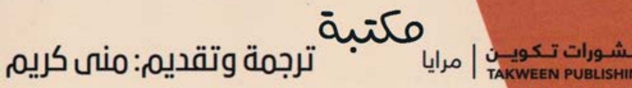
أوكتاڤيا بَتلر





أوكتاڤيا بَتلر



ترجمة وتقديم

منى كريم

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
مرايا

الكاتب: **أوكتاڤيا بَتلر**

عنوان الكتاب: **نَسَبْ**

ترجمة وتقديم: **منى كريم**

العنوان باللغة الأصلية: **Kindred**

الكاتب: **Octavia Butler**

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-61-8

الطبعة الأولى - سبتمبر/ أيلول - 2020

2000 نسخة

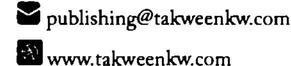


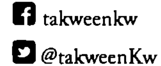
الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +





المحتويات

إهداء

إلى: فكتوريا روز

صديقة ومُحرِّضة

كلمة المترجمة

قضيت في ترجمة هذه الرواية ما يقارب العام من العمل اليومي. خرجت منها بشعور من مر برحلة تحول ميثولوجية مزقتني إلى أشلاء لتعيد تشكيلي من جديد. لا أكاد أصدق أني نفدت بجلدي من هذا العمل الروائي العصي والمتقن والذي يقدم هذه الكاتبة العظيمة لأول مرة لقراء العربية. ولدت أوكتافيا إيستيلي بتلر في باسادينا - كاليفورنيا في العام ١٩٤٧ لتصبح لاحقًا من أهم كتاب الخيال العلمي ومن بين أوائل النساء اللواتي خضن هذا النوع من الكتابة الأدبية، بالإضافة إلى كونها أول كاتب أمريكي أسود يتخصص في هذا النوع وأول كاتب خيال-علمي يتوج بجائزة «ماك آرثر» التي تمنح سنويًّا لخيرة الأدباء والفنانين والعلماء في الولايات المتحدة.

أقدم للقراء هنا أحد أهم أعمال بتلر والتي قد يتم تصنيفها ضمن ما يسمى بـ «أدب العبودية الجديد» الذي بدأ بالظهور في ستينيات القرن الماضي (ويستمر حتى اليوم) على أيدي كتاب مثل

توني موريسون، مارغريت واكر، ديفيد برادلي، شيرلي آن وليامز، تشارلز جونسن، إشمائيل رييد والذي يرجع له الفضل في إطلاق هذا المسمى. لكن «نسب» تختلف عن أقرانها في مزجها بين جماليات الفنتازيا وأدب الرحلات ومذكرات العبودية. كما أن بتلر ليست بروائية واقعية، إلا أن روايتها هذه تأتي كعمل واقعي تشكله الكاتبة باستغلال أداة خاصة بالخيال العلمي ألا وهي السفر عبر الزمن.

كل أعمال بتلر السابقة واللاحقة تدور في مستقبل متخيل مظلم حيث البشر والكائنات الفضائية يتصارعون ضمن استعارة مسرحية عن التاريخ وواقع الهيمنة والاضطهاد. بذلك، اخترقت بتلر حدود الأجناس الأدبية وجاءت بمخيلة كاتب الخيال العلمي لتعالج تاريخًا شائكًا وقاتمًا بحساسية فذة وجديدة. نلاحظ كيف توظف الكاتبة خاصية الترحال الزمني لالتقاط مفارقة فلسفية كبرى ألا وهي إشكالية قراءة الماضي من موضع اللحظة الراهنة، حيث تمر سنوات الأمس وكأنها دقيقة أو صفحة أمام الإنسان الحديث. تركز بتلر على استعادة التجارب المريرة لإنسان الأمس عبر السرد المكثف والشخصيات المتعددة ولغة الجسد والحوارات التفصيلية للكشف عن الأبعاد الاجتماعية والنفسية للاضطهاد والقمع على الإنسان والجماعة. لا تكتفي بتلر بتقديم هذه الاستعادة من أجل القارئ الأسود الذي لا زال يموت ويعيش ويقاوم، بل أيضًا كمشروع إبداعي نقدي لكيفية التعامل مع الاضطهاد من الداخل عبر تقاطع عبقري بين قوة الخيال وحقيقة التاريخ، متمثلًا في التفاصيل والأصوات والأجساد.

عملت بتلر على هذه الرواية لما يقارب عشر سنوات من عمرها، قرأت فيها مذكرات العبيد والوثائق الرسمية وأرشيف الجمعيات التاريخية والخرائط القديمة لتقوم على أساسها بالتخطيط لمسارات وتحركات شخصياتها، هذا بالإضافة إلى زياراتها لولاية ماريلاند حيث تدور أحداث الرواية. سيكون جليًّا أمام القارئ حجم العمل الدؤوب والتراكمي الذي بذلته بتلر لتشكيل سياقات مكانية وزمانية وثقافية حول الرواية. أرادت بتلر أن تقاوم النسيان بالذاكرة وأن تخلق استمرارية بين الماضي والحاضر، خاصة وأن هوة الحداثة تخلق وهمًا عند الإنسان المعاصر بأن ذاك الماضي تحول وبات بعيدًا، ليمحو بذلك معاناة إنسان الأمس ومحاولاته في المقاومة والنجاة. كما أن بتلر تعالج هذه الهوة في سياق محلي أيضًا حيث الاختلاف الأيدولوجي الشاسع بين السود في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي بالمقارنة مع أسلافهم الذين استعبدوا. عاشت بتلر فترة راديكالية في تاريخ أمريكا حين كان أغلب جيلها من السود ينزح نحو الكفاح المسلح وينظر إلى الأسلاف باعتبارهم ضحايا أو خانعين. أرادت بتلر للقارئ أن يخلق روابط جديدة مع الأسلاف قائمة على التعاطف والترابط التاريخي لتطرح مفاهيم جديدة عن القمع والمقاومة.

لم تأت شخصيات بتلر من كتب التاريخ فقط، بل إنها أيضًا مستوحاة من قصص شخصية في حياتها. مات والد بتلر وهي في سن صغيرة فربتها أمها وحيدة. تتذكر بتلر عمل والدتها خادمة في بيوت البيض في كاليفورنيا، كما تستدعي قصص جدتها التي

انتقلت من حقول لويزيانا للعيش في كاليفورنيا ضمن ما يسمى بـ «الهجرة الكبرى» لستة ملايين من السود ممن نزحوا شمالًا وغربًا خلال عشرينيات القرن الماضي. تعترف بتلر أن العار والغضب غلبا على مشاعرها نحو أمها كلما رأتها تُهان خلال وظيفتها، وكيف يقع الواحد في خطأ لوم المظلوم، ومن ثم في حصر المظلوم في دور الضحية التي تجرده من تعقيداته وقدرته المهولة على الصبر والعيش والمقاومة. أرادت بتلر أنسنة العبيد ضد صورة الضحية وفي آنٍ واحد ضد الصور الكاريكاتورية التي خلقتها المخيلة العرقية عبر التاريخ الأمريكي (مثل ثنائية الخدم وعمال الحقل أو المرأة «المامي» التي تطبخ وتعمل على رفاهية السيد). تركز بتلر على الشخصيات النسائية، لأنها كما توني موريسون من بعدها، تريد قراءة تاريخ العبودية من موضع المرأة، لتستكشف بذلك تقاطع الاستغلال الجنسي والاضطهاد العرقي وسعي الإنسان من أجل الحرية والتعايش. هكذا أصبحت بتلر من أوائل كاتبات الخيال العلمي وبين الرائدات ممن قدمن للجماليات النسوية في الأدب الأمريكي وأيضًا نحو التنظير للنسوية السوداء.

سيلاحظ القارئ كيف أن لغة الجسد تلعب دورًا مهمًا في العمل، فبعودة الإنسان المعاصر إلى الماضي، يجد نفسه عاجزًا عن التعبير ليكتفي بهز الأكتاف أو الايماء باليد أو تقطيب الجبين. ولا أظن أن هذا التكنيك عبثيًّا فبالأخير العبودية هي أقصى درجات استغلال الانسان من أجل الإنتاج عبر اخضاعه وسلبه جسده. وتوضح بتلر على هوامش الرواية كيف يستمر هذا الاستغلال في

ظل الرأسمالية اليوم. كما أنها تنجح في دس إشارات هنا وهناك إلى أفريقيا أو العالم العربي لأنها تعي كيف يتشارك البشر في الصراع ضد الاستغلال والاضطهاد.

لقد اخترت ترجمة هذا العمل إلى العربية لعدة أسباب أولها أننا نفتقد لأدب الخيال العلمي وهي حقيقة لا أظن أنها مجرد مصادفة تاريخية فجذور هذا الجنس الأدبي كبرت مع طموح الإنسان الأبيض لغزو الكواكب الأخرى، متسلحًا بوعد التقدم التكنولوجي، ليصنع جبهة جديدة للاستعمار الغربي. رواية «نسب» هي نموذج مغاير تمامًا يمزج بين الواقعية التاريخية وأدوات الخيال العلمي وحتى أدب الرحلات. المؤكد أن بتلر نجحت في رسم حدود وطموحات ثقافية وسياسية جديدة لهذا الفن الأدبي من خلال عمل يهدف لخلخلة التاريخ.

وهنا سبب آخر لترجمة هذه الرواية وهي مركزية سؤال التاريخ بالنسبة للرواية العربية المعاصرة التي تنغمس في الاسترجاع التاريخي وإعادة التسريد دون أن تنجح في «إضافة اللحم على الذاكرة» كما تقول توني موريسون في تعريفها لدور الرواية، أو تطرح معالجة نقدية للتاريخ ترتبط بواقعنا المعاصر. هذه المهمات الجسيمة للأدب لا تتحقق فقط بالمعرفة الكمية والمادية بل أيضًا بالفلسفة والرؤية السياسية وبقوة الفن والخيال على التجاوز والتسلل والخلق. تعترف بتلر أنها اضطرت للتخفيف من حدة قصص العبودية لأنها لم ترد المتاجرة بمعاناة أسلافها، فدور الأدب يتجاوز التوثيق ليذهب إلى جذور الفكرة والشعور.

أود أن أنوِّه هنا أني أبقيت على النعتة العنصرية «نيجر» أو Nigger كما هي بدلًا من استخدام كلمة عربية مثل «زنجي» لأن استخدام الأخيرة في هذا السياق خطأ شائع في الترجمات العربية. كلمة «زنجي» وأصلها «زنكي» من الفارسية أي «النحاسي» كان يوصف بها السود في العالم الإسلامي. ولكن في الأدب العربي الحديث تم ترجمة «negro» إلى «زنجي» وهي كلمة تحولت لاحقًا إلى مصطلح ثوري لحركة تحرر السود على يد المفكر والشاعر الكاريبي إيمي سيزار. بحكم حضور المفردات «نيجر» و«زنجي» و«عبد» في الرواية، أردت أن أحافظ على هذا التباين في اللغة العرقية بدلًا من إحلال ذات الكلمة في سياقات مختلفة مما قد ينتج مغالطات تاريخية بالإمكان تفاديها. والحقيقة أن لغتنا العربية تزخر بالنعوت العرقية ضد السود وغيرهم، إلا أن أغلبها غير معروفة عند القارئ المعاصر، فكم ذهلت حين اكتشفت من خلال مشهد قافلة العبيد في هذه الرواية أن مفردة coffle (تُنطق كوفل) جاءت إلى الإنجليزية من العربية في القرن الثامن عشر. وبذلك، عبر مصادفات اللغة والأدب، قد نلتقط هنا أصداء تاريخنا المنسي وهي تدّوي في حيوات الآخرين.

د. منى كريم

نيويورك، أكتوبر ٢٠٢٠

مفتتح

فقدت ذراعًا في رحلتي الأخيرة إلى البيت. ذراعي اليسرى.

وفقدت ما يقرب سنة من حياتي، وشعوري بالراحة والأمان، الذي لم أقدر قيمته إلَّا بعدما فقدته. حينما أطلقت الشرطة سراحه، جاء كيفن إلى المستشفى وبقي بجانبي طوال الوقت كي أطمئن أني لم أفقده هو أيضًا.

كنت أحاول إقناع رجال الشرطة أن السجن ليس مكانه. كل محاولة تستغرق وقتًا أطول معهم.

يحومون كأشباح من حولي، تظهر وتختفي إلى جانب سريري بأسئلة جديدة استصعب عليَّ فهمها.

«كيف أصبت؟» يسألونني. «من تسبب لك بهذا... الأذى؟» أفكر في الكلمة التي اختاروها. أذى. وكأن الأمر لا يتعدى كونه خدشًا. أيظنون أنني لا أستوعب بعدُ فداحة الخسارة.

سمعت نفسي أهمس «حادثة. مجرد حادثة».

غمروني بأسئلة عن كيفن. تداخلت عليَّ كلماتُهم في البداية حتى بدأتُ أستجمع تركيزي. استوعبتُ أنهم يحاولون إلقاء اللوم على كيفن لِمَا ألحقه من «أذى» بي.

«لا» حرَّكت رأسي المتعبة على الوسادة «لا ذنب لكيفن في الموضوع. أين هو؟ هل بإمكاني رؤيته؟».

«من إذن؟» عادوا يكررون المحاولة.

حاولتُ توفير إجابة لهم تحت تأثير الأدوية وألمٍ بات يبتعد، لكنني لم أجد أي تفسير أمين أقدمه لهم فيصدقونه.

«حادثة» عاودت الكرَّة. «الذنب ذنبي، كيفن لا عَلاقة له بالحادثة. أرجوكم أن تأتوا به إليَّ».

تكررت كلماتي مراتٍ عديدة حتى اختفت الأشباح من أمامي. استيقظتُ لأجد كيفن جالسًا بجواري وقد غَيَّبه النومُ والتعب. تساءلت للحظة متى وصل إلى غرفتي ولم أكترث للإجابة. المهم أنه هنا، سأعود الآن إلى النوم ببالٍ مرتاح.

حين استيقظتُ هذه المرة وَجَدتُني قادرة على الحديث معه واستفهام ما جرى. شعرت بجسدي مسترخيًا فيما عدا الخفقان الغريب في ذراعي. حركت رأسي لألقي نظرة على ذاك الجزء الفارغ ... المبتور.

وقف كيفن على رأس السرير، أخذ برأسي في يده لألتفت نحوه.

لم يقل شيئًا. رجع يجلس يأخذ براحتي في قبضته متمسكًا بها.

شعرت وكأنني على وشك تحريك يدي الأخرى لأمسِّد وجهه. شعرت وكأن لي يدًا أخرى. حاولت إلقاء نظرة على ذراعي الغائبة، لم يمنعني هذه المرة. كأن عينيَّ بحاجة إلى تصديق حقيقة ما أعرفها مسبقًا.

استسلمت رأسي للوسادة مغمضةً عينيَّ. «فوق المرفق!» قلت.

«لم يكن أمامهم حل آخر».

«أعرف. أحاول فقط استيعاب ما حصل». فتحت عينيَّ أنظر إليه. تذكرت زواري السابقين. «هل ورطتُّك معهم؟».

«أنا؟».

«الشرطة كانوا هنا. يظنون أنك السبب».

«آه، تقصدين شرطة العمدة. اتصل بهم الجيران حينما سمعوا صراخك. قاموا بالتحقيق معي وحبسوني لكن حديثك أشعرهم بأن إلصاق التهمة بي سيكون مهمة صعبة».

«جيد. أخبرتُهم أنها مجرد حادثة. غلطتي».

«من المستحيل أن يكون فعلٌ من هذا النوع من صنعك».

«فرضية قابلة للنقاش. الأكيد أنك لم ترتكب أي جريمة. هل طلبوا منك العودة إليهم؟».

«لا أعتقد. يبدو أنهم متأكدون من تهمتهم ضدي لكن غياب

الشهود وشهادتك تكفي لإلغاء القضية. كما أنه يصعب عليهم اختلاق رواية عن طريق ارتكابي لمثل هذا... الأذى».

أغلقت عيني لأستذكر ما حدث لي، الألم الذي مررت به.

«كيف تشعرين؟» سألني كيفن.

«طيب. أخبرني بما قلتَه للشرطة».

«قلتُ الحقيقة!» داعب كفي للحظة في صمت. عندما التفتُّ إليه وجدته يحدق إليَّ.

«لو أخبرتُهم الحقيقة، فمصيرك الحبس مرة أخرى، لكن في مشفى المجانين».

ابتسم. «قلت ما يمكن قوله من الحقيقة. أنني كنت في غرفة النوم حينما سمعتك تصرخين. ركضت إلى غرفة الجلوس لأجدك تنتفضين محاولة تخليص ذراعك من شيء يشبه حفرة في جدار. حاولت إنقاذك. عرفت حينها أن ذراعك لم تكن عالقة فحسب بل إنها انسحقت عبر ذاك الجدار».

«لم يكن انسحاقًا بالضبط».

«أعرف. لكنها كانت المفردة المناسبة وقتها، لأوضح جهلي. ولم يكن وصفي خاليًا من الصحة تمامًا. طلبوا مني تفسير سيناريو من هذا النوع. قلت صادقًا إني لا أعرف. لا أعرف، لا أعرف، بقيت أكرر. والحقيقة يا دانة أنني بالفعل لا أعرف».

«وأنا مثلك لا أعرف» سمعتني أهمس «لا أعرف».

النهر

سبقت الكارثة يوم التاسع من يونيو ١٩٧٦ بوقت طويل، اليوم الذي بدأت أستوعب ما أمر به، اليوم الذي سجَّلته ذاكرتي كبداية لهذه الظاهرة الغريبة. كان يوم عيد ميلادي السادس والعشرين. وكان أيضًا اليوم الذي التقيتُ فيه «روفوس»، يوم مناجاته الأولى لي!

أنا وكيفن لم نخطط للاحتفال بعيد ميلادي. كنا مرهقَيْنِ جدًّا لتخطيط مثل هذه المناسبات. كنا قد انتقلنا قبل يوم واحد من شقتنا في لوس آنجلس إلى بيت يبعد بضعة أميال عن المدينة في ضاحية آلتادينا. جاء انتقالنا إلى هذا البيت كاحتفالٍ مناسب بالنسبة إليَّ. انشغلنا بترتيب المنزل، أو بالأحرى انشغلتُ بترتيب المنزل، فقد انسحب كيفن من المهمة سريعًا بعدما جهز مكتبه. ها هو منعزل هناك يضيع الوقت أو يقلب أفكاره لأني لم أسمع صوت آلته الكاتبة. أخيرًا قرر كيفن أن يشرِّفنا في غرفة المعيشة حيث كنت أصنِّف الكتب على الرفوف. فكرت بصف الروايات والقصص

فقط. لدينا مجموعة كبيرة من الكتب، لذا قررنا أن نتبع نوعًا ما من النظام في ترتيبها.

سألته: «ما الذي يشغل بالك؟».

«لا شيء». جلس على الأرضية بالقرب مني. «أصارع أفكاري المشوشة. تعرفين، خلال نقلتنا البارحة، جاءتني أفكار كثيرة لكتابة قصة الكِرِسمس التي كنت أنتظر فرصة لكتابتها».

«والآن تبخرت جميعها عندما توفَّر لديك الوقت لكتابتها».

«لا يمكنني الإمساك حتى بواحدة منها». التقط كتابًا وفتحه، قلَّب الصفحات. التقطتُ كتابًا آخر وبطرفه نقرت على كتفه. التفت نحوي مستغربًا، وضعت كومة من الكتب غير الروائية أمامه ليرتبها، أجابني بنظرة حزن.

«اللعنة ما الذي جاء بي إلى هنا؟».

«بحثًا عن الأفكار. لا تأتيك إلا وأنت مشغول».

أعطاني نظرة عرفت أنها ليست ناقمة كما تبدو. له عينان شاحبتان لا لون لهما، يبدو وجهه بهما قصيًّا غاضبًا أو غريبًا بغض النظر إن كان فعلًا كذلك أم لم يكن. يستخدم عينيه أحيانًا لإخافة الآخرين. الغرباء. أجبته بابتسامة ضاحكة وعدت إلى مهمة الترتيب. نهض يلتقط الكتب غير الروائية يرتِّبها على الرفوف المخصصة لها.

انحنيت لأدفع صندوقًا آخر من الكتب باتجاهه لكنني عدت

لأستقيم سريعًا بعدما شعرت بدوار وغثيان. بدأت الغرفة تدور من حولي وتختفي وتُظلم. تمسكت بأحد الرفوف، لم أفهم ما الذي يحدث، سقطت أخيرًا على ركبتي. أسمع كيفن يحدث صوتًا بلا كلمات، مثلي هو مصدوم، يسألني مرتعبًا «ماذا يحدث؟».

رفعت رأسي وأدركت أني لا أستطيع تركيز بصري عليه. «لا أعرف ما الذي دهاني!» قلت وصوت لهاثي يتصاعد.

ها هو يتحرك باتجاهي، لمحت شبح بنطاله الرمادي وقميصه الأزرق. وفي تلك اللحظة، وقبل أن يوشك على ملامستي، اختفى كيفن من أمامي.

البيت، الكتب، كل شيء اختفى. فجأة، وجدتُني في مكان خارجي راكعةً على الأرض تحت شجرة. كنت في مساحة خضراء على طرف غابة ما. أمامي نهر صافٍ واسع، في منتصفه طفل يصارع التيار ويصيح.

يغرق!

ركضت لنجدة الطفل. سأطرح أسئلتي لاحقًا، أحاول حَلَّ لغز وجودي هنا، ما حدث لي. الآن عليَّ أولًا إنقاذ هذا الطفل.

ركضت نحو النهر، قطعته إلى المنتصف دون أن أتوقف لنزع ملابسي، وسبحت باتجاه الطفل. كان قد فقد وعيه، ولد أصهب يطفو بوجه غاطس في الماء. قلبته وأمسكت به بحيث لا يغرق وجهه تحت الماء ثانيةً وصرت أجرُّه باتجاه الضفة. لمحت امرأة صهباء

تنتظرنا هناك. أو أنها بالأحرى تتراكض يمينًا ويسارًا وهي تبكي. حينما رأتني أخرج من النهر، هرعت إليَّ لتخطف الولد من يدي وتركض به بقية الطريق، محاولة فحص حركة تنفسه. «فَقَدَ نفَسَه!» صاحت مرارًا.

تنفس اصطناعي. أذكر أني شاهدت أحدًا يقوم به، أعرف الخطوات، لكنني لم أضطر إلى إنقاذ أحد بواسطته. حان الوقت لأجرب! لا أظن أن هذه المرأة قادرة على فعل أي شيء مفيد الآن، كما لم ألمح أحدًا آخر من حولي. أخذت الولد من بين ذراعيها. لم يكن قد تجاوز الرابعة أو الخامسة من عمره بعدُ، صغير الحجم.

جعلته يستلقي على ظهره ورفعت رأسه إلى الوراء وبدأت عملية التنفس بالفم. شعرت بصدره يتحرك بينما أنفخ في فمه. حتى فوجئت بالمرأة تضربني.

«قتلتي طفلي!» راحت تصرخ. «قتلته!».

التفتُّ إليها وأمسكت بقبضتيها. «توقفي!» صرخت بأعلى صوت سلطوي عندي. «مازال حيًّا» أكان كذلك؟ لم أكن متأكدة. يا رب، ليكن حيًّا. «الولد حي. الآن اتركيني أساعده». دفعتها بعيدًا عني، كانت أصغر حجمًا مني، ثم عدت لأركز مع ابنها. بين الشهيق والزفير، لمحتها تحملق إليَّ بلا تعابير، لتسقط راكعة بجانبي تبكي.

بعد لحظات، بدأ الولد بالتنفس، يشهق ويكح ويختنق ويتقيء وينادي على أمه. إن كان بإمكانه فعل كل هذا فإنه على قيد الحياة.

سقطتُ على الأرض مستلقية ألتقط أنفاسي بينما يدور رأسي. لقد فعلتُها!

«حيٌّ! حي!» صاحت المرأة. أمسكت بالولد وكادت تخنقه: «آه، روفوس حبيبي...».

روفوس. من يودي طفلًا لطيف الشكل باسم قبيح كهذا؟

حينما عرف روفوس أن أمه هي من تحمله، تمسَّك بها صارخًا بأعلى صوته. يبدو أن صوته أيضًا على ما يرام. فجأة ظهر صوت آخر.

«ما الذي يحدث هنا؟» صوت رجل غاضب وآمر.

التفتُّ نحوه لأجد نفسي أمام ماسورة بندقية لم أرَ أطول منها في حياتي. سمعت صوت الزناد الحديدي الذي جمدني في مكاني، سيقتلني لأني أنقذت حياة هذا الطفل! ها أنا على وشك الموت.

حاولت إيقافه بصرخة لكن صوتي خانني. شعرت بالدوار والغثيان يداهمانني ثانية. لم يعد بإمكاني رؤية أي شيء أمامي، أو حتى تمييز وجه الرجل خلف بندقيته. سمعت صوت المرأة حادًّا، لكن الدوار غيَّبني بعيدًا عنها، لم يعد من الممكن التقاط أيٍّ من كلماتها.

ثم اختفوا، الرجل، والمرأة، والطفل، والبندقية، كلهم اختفوا.

وجدت نفسي راكعة في غرفة المعيشة ذاتها على بُعد أقدام من النقطة التي وقعتُ فيها قبل دقائق. ها أنا في بيتي ثانية، ملابسي

مبللة وملطخة بالطين، لكني سَلِمت. وجدت كيفن على الجانب الآخر من الغرفة متصلبًا في مكانه وعيناه تحملقان باتجاه النقطة التي وقعت فيها. كم انقضى من الوقت على وقفته هذه؟

«كيفن؟».

استدار باتجاهي يهمس: «ماذا.. بحق الجحيم.. كيف انتقلت إلى تلك الجهة؟».

«لا أعرف».

«دانة، أنت...» اقترب مني يلمسني بحذر كأنه يشك في وجودي. ثم أمسك بي بكتفي يحتضنني بشدة. «ما الذي يحدث؟».

رفعت يدي لأحل ذراعيه عني لكنه لم يكترث لمحاولتي.

وقع على ركبتيه بجانبي صارخًا «أخبريني!».

«لا أعرف. توقف! قبضتك توجعني».

أطلقَ ذراعي أخيرًا لكنه ظل يحملق إليَّ مذهولًا وكأنه لا يعرفني. «هل أنتِ بخير؟».

«لا» تركت رأسي تسقط وأغمضت عينيَّ للحظة. كنت أرتعد من الخوف، جسدي ينتفض من حالة رعب استنفدت كل قواي. انحنيت إلى الأمام أحتضن نفسي، أحاول أن أستكين. زال الخطر، لكن صرير أسناني لم يتوقف.

نهض كيفن واختفى لحظة ليعود بمِنشفة كبيرة يلفها حول

كتفي. بدأت أسترخي متمسكة بالمنشفة. شعرت بألم في ظهري وكتفي حيث وجَّهت الأم ضرباتها. يبدو أنها أقوى مما تخيلت، لم يكن كيفن موجودًا وقتها ليسعفني.

جلسنا معًا على الأرضية، المنشفة تلفني وذراع كيفن من حولي محاولًا تهدئتي. توقف جسدي عن الارتعاش تدريجيًّا.

«أخبريني الآن» قال كيفن.

«ماذا؟».

«كل شيء. ما الذي أصابك؟ كيف...؟ كيف انتقلت هكذا؟».

انتابني الخرس، حاولت جمع أفكاري، مشهد البندقية موجهة إلى رأسي. لم أشعر بهلع مثل هذا من قبل، لم يسبق لي أن وقفت على مقربة شديدة من الموت.

«دانة» قال بنبرة لطيفة. شعرت بصوته يخلق مسافة بيني وبين تلك اللحظة المرعبة. ولكن...

«لا أعرف ماذا أخبرك» قلت «لا أفهم ماذا حصل!».

«أخبريني كيف تبللتِ» قال «لنبدأ من هذه النقطة».

«كان هنالك نهر. غابة يقطعها نهر. وولد يغرق. أنقذته. هكذا تبللت». ترددت، حاولت أن أفكر، أن أفسر. لا أظن أن من الممكن تفسير ما حصل لكني أردت على الأقل أن أروي ما حدث بشكل واضح.

نظرت إلى كيفن وعلى وجهه تعبير محايد. يترقب كلماتي. استجمعت قواي وعدت إلى بداية الحدث، لحالة الدوار، ورويت القصة بتفاصيلها. استرجعت أمورًا لم أكن أعرف أني قد لاحظتها. الأشجار من حولي مثلًا كانت أشجار صنوبر، طويلة ومستقيمة بأغصان وأشواك في رؤوسها. هذا كل ما التقطته في اللحظات التي سبقت صرخة روفوس. وتذكرت تفصيلة عن أم روفوس. ملابسها. كانت ترتدي فستانًا طويلًا أسود غطى جسدها من عنقها حتى قدميها. فستان لا يبدو مناسباً لتمشيةٍ على ضفة النهر. كانت ذات لكنة، أظنها لكنة جنوبية. أما البندقية التي لن أنساها ما حييت، وقفت في وجهي طويلة وقاتلة.

أنصت كيفن لكلماتي دون مقاطعة. حينما استكملت روايتي، أخذ طرف المنشفة ومسح بها بعض الطين عن ساقي. «بالتأكيد أن هذا الطين جاء من مكان ما» قال.

«ألا تصدقني؟».

ألقى نظرة على أطراف ملابسي الملطخة بالطين ثم التفت إليَّ «هل تعرفين كم من الوقت اختفيتِ؟».

«دقائق قليلة. قصيرة».

«بل لحظات قليلة. بين لحظة اختفائك ولحظة سماعك تنادين اسمي لم تمر أكثر من عشر أو خمسة عشر ثانية».

«آه، آآآ، لا» صرت أهز رأسي الثقيلة. «كيف يحدث كل ذلك في ثوانٍ قليلة؟».

لم يعلِّق.

«لكن ما حدث حقيقي. صدقني لقد كنت هناك». حاولت أخذ نفس عميق. «اسمع، أعلم أنك لو أخبرتني بقصة مثل هذه فإني لن أصدقك غالبًا ولكن كما قلت أنت، من أين لهذا الطين أن يصل إلى غرفتنا!».

«نعم».

«ماذا عنك؟ ما الذي رأيته؟ ما هو فهمك لما حدث؟».

عبس وجه كيفن وهو يهز رأسه «اختفيتِ»! بدا وكأنه يجبر نفسه على النطق بهذه الكلمات. «كنت هنا بينما كانت يدي على وشك الإمساك بك. فجأة اختفيت. لم أصدق عيني. وقفت في مكاني ذاهلًا. ثم ظهرت مرة أخرى ولكن في الجانب الآخر من الغرفة».

«هل تصدقني إذن؟».

هز كتفيه مستهجنًا. «نعم هذا ما حدث. هذا ما رأيت. أنك اختفيت ثم عدت وظهرت. هذه حقائق».

«عدت مبللة وملطخة بالطين ومرعوبة حدَّ الموت».

«نعم».

«وأنا أعرف ما رأيت وما فعلت، هذه الحقائق لا تقل جنونًا عمَّا تقول».

«لا أعرف كيف أفهمها».

«وأنا أعرف ما رأيت وما فعلت، هذه الحقائق لا تقل جنونًا عمَّا تقول».

«لا أعرف كيف أفهمها».

«لا أظن أن فهمنا لها مهم الآن».

«يعني؟».

«يعني لو حدث الأمر ذاته مرة أخرى؟».

«لا، لا، لا أعتقد...».

«لا يمكنك التوقع». بدأت أرتعش ثانية. «لا يهمني ما حدث، أريد فقط ألَّا يعاود الحدوث. لقد رأيت الموت من أمامي!».

«اِهدئي» قال «بِغضِّ النظر عمَّا حدث، لا تستسلمي لحالة الفزع».

تحركت بصعوبة أنظرإلى ما حولي. «أشعر بأن الأمر قد يتكرر ثانية في أي وقت. لا أشعر بالأمان هنا».

«لا تهوِّلي من خوفك يا دانة».

«لا!» التفتُّ إليه بنظرة حانقة، بدا على وجهه القلق، إلى درجة أني أشحت بوجهي بعيدًا عنه. لم أعرف إن كان فزعًا بسبب اختفائي أو لفقداني عقلي. أعلم أنه لا يصدق روايتي. «قد تكون محقًّا» قلت «وأتمنى أن تكون محقًّا. قد أكون مثل ضحية سلب أو اغتصاب أو اعتداء ما. مثل ضحية تجاهد لتنجو لكنها تفقد شعورها بالأمان».
رفعت كتفي باستهجان. لا أعرف كيف أُسمِّي ما مررت به لكن الأكيد أني لا أشعر بأي أمان.

رقق من صوته وهو يجيبني: «إن حدث ذلك ثانية، وكان حقيقيًا، فإن والد الطفل لن يقتلك لأنه سيكون ممتنًا لإنقاذك حياة ابنه».

«كيف لك أن تعرف ذلك؟ لا يمكنك توقع ما سيحدث». وقفت مرتبكة. «اللعنة! لا ألومك على مزحتك هذه» توقفت للحظة بانتظار أن ينفي دعابته لكنه لم يفعل «أشعر وكأني أنا من تساير نفسها».

«ما قصدك؟».

«لا أعلم، مع أن الحدث حقيقي، مع أني أعلم أنه حقيقي، فإنه ينحسر عني بطريقة ما. يصبح وكأنه شيء رأيته في التليفزيون أو قرأت عنه، مثل شيء مستعمل اشتريته».

«أو ربما... حلم؟».

نظرت إليه جالسًا أدنى مني «تقصد هلوسات».

«نعم».

«لا. أظن أني أحاول جرَّ نفسي بعيدًا عن ذكرى ما حدث لأنها ترعبني بشدة. لكن كل ما حكيته قد حدث بالفعل».

«اسمحي لنفسك بالتراجع خطوة». وقف وسحب المنشفة الملطخة مني. «يبدو أن هذا أفضل حل أمامك الآن، سواء كان ما حدث حقيقة أم هلوسات، دعيه يمضي».

الحريق

١

حاولتُ.

تحممتُ، غسلت الطين والماء اللزج عني، ارتديت ملابس نظيفة، مشطت شعري.

«هكذا أفضل» قال كيفن عندما رآني.

إلا أني لم أشعر بتحسن.

لم يتحول روفوس ووالداه إلى «الحلم» الذي يريد لي كيفن تصديقه. بقوا معي، كظلال تغطيني بالخوف. خلقوا معضلة ما وحبسوني داخلها. كنت أرتعد خشية أن يعاودني الدوار بينما أستحم، أقع على الأرضية فيشرخ رأسي أو أعود إلى ذاك النهر، أينما كان، لأجدني أقف عارية بين غرباء. أو أظهر في مكان آخر عارية وهشة تمامًا؟

تحممت بسرعة.

ثم عدت إلى الكتب في غرفة المعيشة، لكن كيفن كان على وشك الانتهاء من ترتيبها جميعًا.

«انسي موضوع الترتيب اليوم» قال. «تعالي نذهب إلى مطعم ما».

«نذهب؟».

«نعم، أين تريدين أن نذهب لنأكل؟ اختاري مكانًا جميلًا للاحتفال بعيد ميلادك».

«هنا».

«ولكن...».

«هنا... أرجوك، لا أريد الذهاب إلى أي مكان آخر».

«لماذا؟».

أخذت نفسًا عميقًا. «غدًا» قلت «لنخرج غدًا أحسن». لسبب ما أفضِّل الغد. "ستفصلني عن الحدث ساعات من" النوم. وإن سارت الأمور بخير، فقد أهدأ قليلًا.

«قد تشعرين بتحسن لو خرجنا قليلًا» قال.

«لا».

«اسمعي...».

«لا!» لا شيء سيخرجني من البيت هذه الليلة.

نظر إليَّ كيفن للحظات ويبدو أن تعابير الخوف قد ارتسمت

على وجهي ثانية. توجه إلى الهاتف واتصل بمطعم ليطلب وجبتين من الدجاج والروبيان.

لكن المكوث في البيت لم ينجح في تهدئتي. عندما وصل الطعام، بدأت أستجمع هدوئي أثناء الأكل، ثم بدأ المطبخ يدور من حولي ثانية.

خَفَت الضوء سريعًا، شعرت بغثيان فظيع، دفعت نفسي بعيدًا عن المائدة، لكني لم أحاول النهوض. لم أكن لأستطيع النهوض.

«دانة».

لم أجب.

«ما الذي يجري؟ أتعاودك الحالة ذاتها؟».

«أظن» جلست ساكنة أتفادى السقوط عن كرسيِ. الأرضية تبتعد سريعًا عني. حاولت إمساك المائدة ثانية لأثبِّت نفسي ولكن قبل أن أصل إلى طرفها، اختفت. اختفت الأرضية في الظلام كأنها تتحول إلى شيء آخر. صار السيراميك خشبًا مغطًّى بعضه بالسجاد. والكرسي الذي كان تحتي لم يعد له وجود.

٢

بعدما زال الدوار، وجدت نفسي جالسة على سرير صغير تحت ما يشبه خيمة لونها أخضر غامق. إلى جانبي دُرج خشبي صغير فوقه

1028

مطواة بالية، كريات زجاجية، وشمعة موقدة على ممسك حديدي. أمامي يجلس ولد أصهب. هل يكون روفوس؟

لم يلحظ وجودي، جلس إلى النافذة وظهره تجاهي. يمسك عصًا خشبية ينفث من طرفها الدخان. لقد أشعل النار في الستائر وجلس يشاهدها تنتشر في جوانب النافذة.

لوهلة، استغرقت معه في المشاهدة. لكنني سريعًا ما نهضت، دفعت به جانبًا وجررت الجزء غير المحترق. سقطت الستائر والنيران مشتعلة بها، ومن خلفها ظهرت نافذة نصف مفتوحة. التقطت القطع المشتعلة وألقيت بها إلى الخارج.

التفت الولد نحوي وركض تجاه النافذة يُطلُّ برأسه منها. تبعته برأسي لأتأكد أني لم أطفئ الحريق بخلق حريق آخر، على سقف شرفة أو بالقرب من سياج. انتبهت إلى وجود مدخنة في الغرفة، لم ألحظها في الوقت المناسب. كان بإمكاني التخلص من الستائر المشتعلة بطريقة آمنة.

يبدو المكان في الخارج مظلمًا، على الرغم من أن الشمس لم تغرب بعد حينما اختطفت إلى هذا العالم، لكن ها هو الظلام من أمامي. بإمكاني رؤية الستائر على بعد طابق أسفل مني، تشعل الظلمة بما يكفي لنطمئن أنها بعيدة عن السياج. يبدو أن ردة فعلي العفوية لم تنتهِ بكارثة. بإمكاني الآن أن أعود إلى بيتي بعدما أنقذت حياته للمرة الثانية.

انتظرت أن تحدث النقلة.

في المرة الأولى، انتهت الرحلة بمجرد أن أنقذتُ الولد وفي الوقت المناسب تمامًا لتفادي الموت. ولكن الآن، وبينما أجلس أنتظر، فهمت أن الحظ لن يحالفني هذه المرة.

لم أشعر بالدوار. ظلت الغرفة واضحة أمامي، حقيقية. نظرت من حولي، لم أعرف ما الذي عليَّ فعله الآن. مشاعر الخوف التي سيطرت عليَّ في البيت بدأت تتسرب إليَّ ثانية. ما الذي سيحل بي إن لم أعُد هذه المرة؟ ماذا لو بقيتُ عالقة هنا، أينما تكون هذه الـ«هنا»؟ لم أجلب أي مال معي ولا أعرف طريقًا للعودة.

جلست أحملق إلى الظلام مصارعة نفسي لاسترجاع بعض الهدوء. لم أرَ أنوار المدينة في الظلام لأخدع نفسي بأنها أضواء لوس آنجلس. أو أي أنوار أخرى. لم أكن في خطر مباشر، وأينما كنت، فإني هنا مع هذا الولد، الولد الذي قد يستطيع إجابة أسئلتي أكثر من أي شخص بالغ.

تبادلنا النظرات، كان خائفًا لكن مدفوعًا بالفضول. لا أظنه روفوس. بإمكاني رؤية ذلك الآن. له الشعر الأحمر نفسه والبنية النحيلة نفسها، لكنه أطول وأكبر على الأقل بثلاث أو أربع سنوات. قلت في نفسي، كبير بما يكفي ليعرف خطر النار. لو لم يشعل النار في الستائر، لكنت الآن في بيتي.

أخذت خطوة تجاهه، سحبت العصا من يده ورميت بها في المدخنة. «كان على أحدهم ضربك بهذه العصا» قلت، «قبل أن تحرق بها هذا البيت».

شعرت بالندم بمجرد أن خرجت الكلمات من فمي. أنا بحاجة إلى هذا الولد. ولكن كيف لي أن أعرف أي ورطة جرني إليها؟

ابتعد الولد خطوة إلى الوراء: «لو لمستني سأخبر أبي!» خرجت كلماته بلكنة جنوبية واضحة، وقبل أن أتجاهل ملاحظتي هذه، صرت أتساءل ماذا لو كنت في مكان ما في الجنوب. يعني على بعد ألفين أو ثلاثة آلاف ميل عن بيتي.

إن كنت في الجنوب فإن فرق التوقيت بساعتين أو ثلاث يفسر الظلمة في الخارج. أينما كنت، آخر شيء أريده أن ألتقي بوالد هذا الولد. قد يضعونني في السجن بتهمة اقتحام البيت أو حتى يقتلني بطلقة. هذا خطر أول عليَّ تفاديه، وقد يساعدني الولد على تفادي مخاطر أخرى.

إن كنت سأعلق هنا، فإن عليَّ بذل ما في وسعي لمعرفة ما يمكن معرفته. وعلى الرغم من خطورة الوضع، في بيت رجل قادر على قتلي بمسدسه، فلم يكن الهرب من البيت والتجول في مكان لا أعرفه حلًّا أفضل. عليَّ محادثته بهدوء وبصوت منخفض على أمل أن يعطيني بعض الأجوبة.

«انسَ والدك الآن» قلت بصوت مطمئن، «سيكون لديك الكثير لتحكيه حينما يجد الستائر المحترقة». أخذ الولد بالتراجع، أرخى كتفيه والتفت نحو المدخنة. «من أنت؟» سأل، «وما الذي جاء بك إلى هنا؟».

إذن فهو أيضًا لا يعرف السبب. لم أتوقع منه معرفة ما يحدث

على أي حال. ولكنه لسببٍ ما بدا مرتاحًا معي، أكثر راحة مما قد أكون عليه في سنه لو وجدت امرأة لا أعرفها في غرفتي. لو كان جبانًا مثلما كنت في سنه، لربما وجدتُني مقتولة الآن.

«ما اسمك؟» سألته.

«روفوس».

وقفت مصدومة للحظة أحملق إليه. «روفوس؟».

«نعم، أين المشكلة؟».

تمنيت لو أعرف المشكلة، أو ما يحدث. «لا شيء» قلت، «انظر... روفوس، انظر إليَّ. هل تحس أنك رأيتني من قبل؟».

«لا».

كان جوابه صحيحًا، الجواب المنطقي. حاولت إقناع نفسي بأننا لم نلتقِ من قبل، على الرغم من اسمه ووجهه المألوف. لكن الطفل الذي جررته من النهر من الممكن جدًّا أن يكون قد كبر ليكون هذا الولد، في غضون ثلاث أو أربع سنوات.

«هل تتذكر أنك كنت على وشك الغرق مرة؟» شعرت بالحماقة وأنا أوجه سؤالي.

قَطَّب جبينه وصار ينظر إليَّ بنظرة حذر.

«كنتَ أصغر» قلت، «لربما في الخامسة من عمرك، هل تتذكر؟».

«النهر؟» جاءت كلماته مترددة وغير مسموعة وكأنه لا يصدقها.

«أنت تتذكر إذن، أنت ذاك الولد».

«الغرق، أتذكر ذلك. ولكن أنت...؟».

«لا أعلم إن كنت قد لمحتني وقتها. ويبدو أن وقتًا طويلًا قد مر على تلك الحادثة، بالنسبة إليك».

«أتذكرك الآن! لقد رأيتك!».

لم أقل شيئًا. لم أرِد تصديقه. تساءلت ما إذا كان يرد عليَّ بما أود سماعه. على الرغم من أنه لا يملك سببًا للكذب، فمن الواضح أنه لا يخافني.

«لذلك شعرت بأني أعرفك» قال، «لم أعرف أين التقينا من قبل، لربما بسبب الطريقة التي رأيتك فيها تلك المرة. قلت لأمي وقتها، لكنها أخبرتني أن ليس من الممكن أن أراك بتلك الطريقة».

«أي طريقة؟».

«وعيناي مغمضتان».

«بعينين...» توقفت. لم يكذب الولد، بل يبدو أنه يحلم.

«إنها الحقيقة» قال بصوت عالٍ. سيطر على نفسه وهمس «هكذا رأيتك حينما وضعت قدمي في الحفرة».

«أي حفرة؟».

«في النهر. كنت أمشي في الماء وكانت هنالك حفرة. وقعت ولم أستطِع إيجاد طريقة للوقوف. رأيتك داخل غرفة. رأيت جزءًا من

الغرفة وكانت مليئة بالكتب، أكثر من الكتب في مكتبة بابا. كنتِ ترتدين بنطالًا مثل الرجال، كما تلبسين الآن. ظننتكِ رجلًا».

«شكرًا جزيلًا».

«لكنك هذه المرة امرأة ترتدي بنطالًا».

أخذت نفسًا، «طيب، لا يهم. المهم أنك تتذكرني وتتذكر أني جررتك من النهر».

«فعلاً؟ كنت متأكدًا من ذلك».

لم أفهم قصده. «ألم تقل أنك تتذكر؟».

«أتذكر أني رأيتك. وكأني توقفت عن الغرق لحظةَ رأيتُك ثم عدت لأغرق ثانية. ثم وجدتُني مع ماما وبابا».

«وبندقيته» قلت بمرارة، «كاد والدك أن يقتلني».

«هو أيضًا ظن أنكِ رجل وأنكِ كنتِ تُلحقين الأذى بي وبأمي. حاولت ماما إيقافه بصراخها، ثم اختفيت فجأة».

«نعم» يبدو أنني اختفيت أمامها. يا ترى كيف فسرت ما حصل؟

«سألتها إلى أين اختفيتِ» قال روفوس، «لكنها غضبت عليَّ وقالت إنها لا تعرف. سألتها مرة ثانية فضربتني. وهي لا تضربني أبدًا».

انتظرت متوقعة أن يوجه السؤال إليَّ، لكنه لم يقل شيئًا آخر. عيناه مليئة بالأسئلة. بدأت أفتش في رأسي عن إجابة ما أحضِّرها.

«إلى أين تظن أني اختفيت يا روف؟».

أجاب بنبرة خائبة «واضح أنك لا تملكين الإجابة».

«لا، سأجيب، بقدر المستطاع. ولكن أجبني أولًا. أخبرني أين تظن أني ذهبت؟».

بدا مترددًا في تقديم إجابته. «إلى تلك الغرفة» أجاب، «الغرفة ذات الكتب».

«هل هذا تخمين منك أم أنك رأيتني ثانية؟».

«لم أرَكِ. هل أنا محق؟ هل عدت إلى هناك؟».

«هكذا» قلت وفرقعت بأصابعي.

«هذه ليست إجابة».

«هذه الإجابة الوحيدة لديَّ. كنت في البيت وفجأة صرت هنا لأنقذك. لا أعلم كيف حدث ذلك، كيف أنتقل من مكان إلى مكان، أو متى سيحدث. لا يمكنني السيطرة عليه».

«من يمكنه؟».

«لا أعلم. لا أحد» لم أرد إعلامه أنه قادر على السيطرة على حركتي. خاصة لو كان يمتلك فعلًا مثل هذه القوة.

«ولكن... كيف؟ ما الذي رأته ماما ولا تريد إخباري به؟».

«على الأغلب الأمر نفسه الذي رآه زوجي. أخبرني بأني اختفيت، تمامًا، ثم عدت إلى الظهور ثانية».

فكر للحظة. «اختفيت؟ مثل دخان؟» بدأ الخوف يتسرب إلى تعابيره، «مثل شبح؟».

«مثل دخان، ربما. ولكن لا تذهب بعيدًا بأفكارك، لستُ شبحًا. الأشباح لا وجود لها».

«هذا ما يقوله بابا».

«إنه محق».

«لكن ماما تقول إنها رأت شبحًا مرة».

امتنعت عن إبداء رأيي الآن. يبدو أن أمه... كما أني على الأرجح ذاك الشبح. لم تجد تفسيرًا آخر لما رأته. عندي فضول لمعرفة التفسير الواقعي من زوجها. غير مهم الآن، المهم أن يبقى هذا الولد هادئًا.

«كنت بحاجة إلى المساعدة» أخبرته، «فجئت لمساعدتك. مرتين. هل يستدعي ذلك أن تخاف مني؟».

«لا أظن» ألقى نظرة متأنية عليَّ ثم تحرك تجاهي، مترددًا يلمسني بيده المغطاة بالسخام.

«شفت» قلت، «أني حقيقية مثلك».

هز رأسه موافقًا. «ظننت أنك كذلك. بعد كل ما قمت به. لم أجد تفسيرًا آخر. حتى ماما تقول إنها لمستك».

«هذا أكيد!» مسدت على كتفي حيث أثر ضرباتها. لوهلة، استغربت من الألم، جعلني أستذكر اللحظة، ضرباتها التي أصابتني

منذ ساعات. لكن الولد أكبر الآن بسنوات. يبدو أن رحلاتي تتجاوز المكان والزمان معًا. ويبدو أن هذا الولد هو مركز التنقل أو سببه. كان قد رآني في بيتي قبل أن أختطف، ليس من الممكن أن يختلق مثل هذه التفاصيل. لكنني لم أرَ شيئًا أو أشعر بشيء ماعدا الدوار والغثيان.

«تقول ماما إن ما قمت به بعد سحبي من الماء أمر عجيب، كأنه من سِفر الملوك الثاني».

«سِفر الماذا؟».

«حين نفخ إليسع في فم ولد ميت فعاد الولد إلى الحياة. تقول ماما إنها حاولت إيقافك بينما تحاولين العمل بالمثل، لأنك مجرد نيجر لم يسبق لها رؤيته. ثم تذكرت سفر الملوك الثاني».

جلست على السرير أنظر إليه، لم يظهر على وجهه سوى الاهتمام، وتذكرت الحماسة في عينيه. «قالت إني ماذا؟».

«مجرد نيجر غريب. هي وبابا متأكدان أنهما لم يرياك من قبل».

«يا له من تعليق بعدما أنقذت حياة ابنها».

قطَّب روفوس جبينه «لماذا؟».

حملقت إلى وجهه.

«ما المشكلة؟» قال، «ما الذي يثير غضبك؟».

«هل تشير أمك دائمًا إلى السود بكلمة نيجر يا روف؟».

«بالتأكيد، إلا إذا كانت برفقة أحد. ولم لا؟».

شعرت بالحيرة أمام جهله. إما أنه فعلًا لا يعرف الخطأ وإما أنه ممثل بارع من هوليود. على أي حال، لن أسمح له بتكرار هذه الكلمة أمامي.

«أنا امرأة سوداء، روف. إن كان عليك مناداتي بلقب فعليك استخدام اسمي، هذا كل ما تحتاجه».

«ولكن...».

«انظر، لقد أنقذتك، صح؟ أطفأت النار، أليس كذلك؟».

«آه».

«إذن عليك احترامي ومناداتي باسمي».

وقف في مكانه ينظر إليَّ.

«الآن» قلت بلطف، «أخبرني، هل رأيتني ثانية حينما بدأت الستائر تشتعل؟ أقصد هل رأيتني كما حصل في المرة الأولى عند غرقك؟».

لم يرد على الفور، احتاج إلى لحظة تفكير لمتابعة أسئلتي. «لم أرَ شيئًا سوى النار». جلس على الكرسي الخشبي قرب المدخنة ينظر إليَّ. «لم ألمحك قبل ظهورك هنا. لكني كنت في حالة من الرعب... مثل تلك التي شعرت بها وأنا أغرق... ظننت أن البيت سيحترق بسببي، ظننت أني سأموت».

أومأتُ برأسي موافقة. «على الأرجح ما كنتَ ستموت لأنك

قادر على ترك البيت في الوقت المناسب. لكن لو أن والديك نائمان هنا، فإن النيران كانت ستصلهما قبل أن يتمكنا من الخروج».

بقي الولد يفكر. «مرة أحرقت الإسطبل» قال، «طلبت من بابا أن يعطيني نيرو، الحصان الذي أحب. لكنه قام ببيعه للقسيس وايندهم فقط لأنه عرض الكثير من المال. بابا لديه الكثير من المال. المهم أني غضبت فأشعلت النار في الإسطبل».

هززتُ رأسي متعجبة. هذا الولد يعرف عن الانتقام أكثر مما أعرف. أي نوع من الرجال سيصبح؟ «وماذا عن هذه النار؟» سألته، «لتنتقم من والدك بسبب أمر آخر؟».

«لأنه ضربني. انظري؟» استدار ورفع قميصه ليريني الخطوط الحمراء المتشابكة على ظهره. كما لمحت آثار ضربات أخرى، وندوب نتيجة ضربات يبدو أنها أسوأ بكثير من هذه.

«يا إلهي!».

«يقول إني أخذت مالًا من درجه وأنكرت». هز روفوس كتفيه، «ثم قال إني اتهمته بالكذب فضربني».

«أكثر من مرة».

«دولار واحد لا أكثر.» أسدل قميصه وجلس قبالتي.

لم أجد التعليق المناسب. سيكون محظوظًا لو لم ينتهِ به الأمر في السجن بعدما يكبر، إن كبر. تابع كلامه.

«فكرت لو أني قمت بحرق البيت فسيخسر بابا كل الدولارات.

يجب أن يخسرها فلا شيء يهمه أكثر من الدولارات». بدا على الولد أنه يرتعد أثناء حديثه، «لكني تذكرت الإسطبل والسوط الذي ضربني به بعد الحريق. تقول ماما إنها لو لم توقفه لقتلني. خفت وأنا أتذكر كلامها، أردت إيقاف النار لكني لم أعرف كيف. لم أعرف ما العمل».

معنى ذلك أنه قام باستدعائي. تأكدت الآن. جاء بي الولد بطريقة ما بينما وجد نفسه في ورطة لم يعرف كيف يتعامل معها. كيف قام بذلك؟ لا أعرف. ولا هو يعرف. لو كان يعرف الطريقة لوجدتُني عالقة بينه وبين والده في واحدة من جلسات الضرب. إن حدث ذلك فلا يمكنني تخيل ما سيحصل. يكفيني لقاء هذا الرجل مرة واحدة. ولربما لا يختلف هذا الولد عنه كثيرًا، لكن، «روف، هل قلت إنه ضربك بسوط؟».

«نعم السوط نفسه الذي يضرب به النيجر والحيوانات».

تجمدت للحظة. «السوط ذاته الذي يضرب به... من؟».

نظر إليَّ بقلق. «لم أكن أقصدك بالكلمة.» قال.

تجاوزت رده. «فقط قل السود. ولكن... هل يضرب والدك السود بسوط؟».

«حينما يستلزم الأمر. ماما تقول إن من القسوة والعار أن يضربني، بغض النظر عمَّا فعلت. بعدها أخذتني ماما إلى بالتمور لبيت العمة ماي، لكنه جاء وأخذني وعدنا إلى البيت. بعد مدة عادت أمي إلى البيت».

لوهلة نسيت السوط و«نيجر» بالتيمور سيتي. بالتيمور التي في ميريلاند؟ «هل نحن بعيدون عن بالتيمور الآن يا روف؟».

«على الطرف الآخر من الخليج».

«ولكن... نحن في ميريلاند، صحيح؟» أعرف أن لي أقارب في ميريلاند، قد يساعدونني لو احتجتهم، لو استطعت الوصول إليهم. بدأت الأفكار تتزاحم في رأسي، هل سيمكنني الوصول إليهم، أو أي أحد أعرفه. صار عندي خوف صغير يكبر ببطء.

«أكيد، في ميريلاند». قال روفوس، «كيف لا تعرفين ذلك؟».

«وما التاريخ؟».

«لا أعرف».

«السنة! أخبرني بالسنة».

نظر تجاه الباب، ثم تجاهي ثانية. فهمت أني بدأت أخيفه بأسئلتي وعصبيتي. أجبرت نفسي على الحديث معه بهدوء ثانية. «هيا يا روف، أكيد أنك تعرف السنة، أي سنة؟».

«سنة... ١٨١٥».

«أي سنة؟».

«١٨١٥».

جلست بلا حراك، أتنفس عميقًا، أهدِّئ من روعي، لأصدق ما سمعت. أصدقه. لم أتفاجأ. لقد تقبلت حقيقة أني قد سافرت عبر

الزمن. الآن أعرف أني أبعد عن البيت أكثر مما تخيلت. الآن فهمت أيضًا لماذا يستخدم والد روفوس سوطه على «النيجر» والأحصنة.

رفعت رأسي ونظرت إلى الولد الذي كان قد ترك كرسيه وجلس قريبًا مني.

«أنتِ بخير؟» سألني، «تصرفاتك غريبة».

«لا شيء روف، أنا بخير». أشعر بأني مريضة. ما الذي بوسعي فعله؟ لماذا لا أعود إلى البيت؟ هذا المكان يهدد حياتي لو بقيت هنا أطول من اللازم. «هل هذه مزرعة؟» سألته.

«مزرعة آل وايلن. بابا اسمه توم وايلن».

«وايلن...» استفز الاسم شيئًا في ذاكرتي، شيء لم أفكر فيه منذ سنوات. «روفوس، هل تكتب اسم عائلتك و-ا-ي-ل-ن؟».

«نعم، أظن».

تجهم وجهي أمام إجابته. ولد في عمره من المفترض أن يعرف تهجئة اسمه، حتى لو كان اسمًا بتهجئة غريبة مثل هذا.

«نعم، صحيح». تدارك نفسه سريعاً.

«و... هل توجد امرأة سوداء هنا، لربما عبدة، اسمها آليس تعيش قريبًا من هنا؟» لم أكن متأكدة من اسمها الأخير وكأن الذاكرة تعود بشكل تدريجي.

«أكيد. آليس صديقتي».

«فعلاً؟» صرت أحدق إلى يديَّ، أحاول التفكير. كلما اعتدت تفصيلة مستحيلة أُصدم بأخرى.

«لكنها ليست عبدة» قال روفوس، «هي حرة، وُلدت حرة مثل والدتها».

«آه! معناها قد...» تركت صوتي يتداعى بينما تتسابق الأفكار في رأسي محاولة تشكيل الموقف. الولاية هي الولاية، والسنة، والاسم الغريب، والفتاة، آليس.

«معناها ماذا؟» قاطعني روفوس.

نعم، معناها ماذا؟ لربما، ممكن، إن لم أكن قد فقدت عقلي تمامًا، إن لم أكن الآن في حالة هلوسة تامة لا مثيل لها، إن كان هذا الولد أمامي حقيقيًّا ويخبرني بالحقيقة، فإنه قد يكون أحد أسلافي.

قد يكون أحد أجدادي، لكن ذكراه ظلت في العائلة لأن ابنته كانت قد اشترت إنجيلًا كبيرًا في صندوق خشبي مزخرف استخدمته لحفظ وثائق العائلة. ومازال الصندوق هذا عند عمي.

الجدة، الجدة هاجر وايلن وُلدت في ١٨٣١. كان اسمها الأول في شجرة العائلة وقد كتبت اسم والديها روفوس وايلن وآليس جرين-كذا وايلن.

«روفوس، ما الاسم الأخير لآليس؟».

«جرين-وود. ما الاحتمال الذي خطر ببالك؟».

«لا شيء. ظننت... أني أعرف أحدًا من عائلتها».

«مَن؟».

«لا أعرف. مضى وقت طويل مذ التقيت ذاك الشخص». أكاذيب ضعيفة. لكنها أفضل من الحقيقة. بغضِّ النظر عن عمر هذا الولد، لكنه سيشك في صحة عقلي لو أخبرته الحقيقة.

آليس غرين-وود. كيف ستتزوج هذا الولد؟ هل سيكون زواجًا؟ ولماذا لم يذكر أحد من عائلتي أن روفوس وايلن رجل أبيض؟ لو كانوا يعرفون. على الأغلب لم يعرفوا. هاجر وايلن بليك ماتت في ١٨٨٠، في زمن بعيد عن أيٍّ من أفراد عائلتي الذين أعرفهم. وبالطبع فإن كل المعلومات عن حياتها قد ماتت معها. أو أنها قد ماتت قبل أن تصلني. لم يتبقَ شيء سوى ذاك الإنجيل.

كانت هاجر تكتب في الإنجيل بخطها الحذر. هنالك وثيقة زواجها من أوليفر بليك، وأسماء أطفالها السبعة، زيجاتهم، وبعض أحفادها. ثم تولى أحد آخر مهمة شجرة العائلة. أقارب كثر لا أعرفهم ولم أكن لأعرفهم.

أم أني سأتعرف إليهم؟

نظرت إلى الولد الذي سيكون والد هاجر. لا شيء فيه يذكرني بأيٍّ من أقاربي. أشعر بالحيرة أمامه لكن لابد أنه والد هاجر، فلا يمكنني أن أجد تفسيرًا آخر لوجودي هنا. ليس لأني أجد في قرابة الدم تفسيرًا منطقيًّا، لكنها التفسير الوحيد المتاح. ما يحدث هنا لم يسبق له وجود، حالة لا اسم لها بعد. تجمعنا غرابة ما قد تكون أو لا تكون قائمة على صلة قرابة. على الأقل يمكنني الآن أن أسعد

بإنقاذه. ففي نهاية الأمر... في نهاية الأمر، كيف سيكون مصيري، مصير عائلة أمي، لو لم أقم بإنقاذه؟

هل هذا سبب وجودي هنا؟ ليس فقط لإنقاذ هذا الولد بل لتمكين عائلتي من البقاء، لتمكيني أنا من الوجود.

ماذا كان سيحدث لو غرق الولد؟ هل كان سيغرق لو لم أنقذه؟ هل كانت أمه ستنقذه بطريقة ما؟ أو يصل والده في الوقت المناسب لإنقاذه؟ من المحتم أن ينقذه أحدهم بشكل ما. فكيف لحياته أن تعتمد على تدخل من نسله الذي لم يُخلق بعد؟ مهما فعلت فإنه سيبقى على قيد الحياة وستكون هاجر ابنته وإلا لَمَا كان لي وجود. هكذا أتفهم الأمر. لكن لسبب ما، كل تحليلاتي وتفسيراتي لم تمنحني الراحة، الراحة الكافية لتجاهله لو وجد نفسه على وشك الموت مرة أخرى، لو افترضنا أن بإمكاني تجاهل طفل بحاجة إلى من ينقذه. لكن هذا الطفل يحتاج إلى رعاية خاصة. لكي أعيش، لكي يعيش غيري، يجب أن يعيش هذا الولد. لن أجرؤ على تحدي هذه المعادلة.

«تعرفين» قال، وهو ينظر إلى عينيَّ «تشبهين والدة آليس كثيرًا. لو ارتديت فستانًا وربطت شعرك، فستكونين شبيهتها إلى حد كبير». ثم جلس إلى جانبي كما لو كنا أصدقاء.

«أليس من الغريب أن أمك لم تظن أني والدة آليس» قلت.

«ليس بهذا الزي! ظننت أنك رجل، حتى أنا وبابا قلنا إنك رجل».

«آه» صارت الصورة أوضح الآن.

«متأكدة أنك لست من أقارب آليس؟».

«ليس على حد علمي» كذبت. ثم غيرت الموضوع سريعًا. «روف، هل هنالك عبيد هنا؟».

هز رأسه وقال «٣٨ من العبيد، بابا قال لي». رفع رجله ليضعها فوق الأخرى جالسًا على السرير، عيناه تنظران إليَّ باهتمام. «ماذا عنك؟ لا أظن أنك عبدة».

«لا».

«عرفت ذلك. لا تتحدثين ولا تتصرفين ولا تلبسين مثلهم. ولا حتى مثل الهاربين منهم».

«لستُ بهاربة».

«كما أنك لا تخاطبيني بالسيد».

تفاجأت بنفسي أضحك: «السيد؟».

«لازم» بدا جادًّا في تعبيره، «طلبتِ أن أسميك سوداء».

تعبيره الجاد قاطع ضحكتي. ما المضحك أصلًا؟ على الأغلب أنه محق. لا شك أني من المفترض أن أعطيه لقبًا ما للتعبير عن الاحترام. ولكن «السيد»؟

«عليك نطق الكلمة» أصر، «أو السيد الصغير أو مستر كما تقول آليس. هذا فرض».

«لا» هززت رأسي نفيًا، «إلا لو ساءت الأمور واضطررت إلى ذلك».

أمسك الولد بذراعي «نعم» همس لي، «أو ستجدين نفسك في ورطة لو سمعك بابا».

سأكون في ورطة لو سمع «بابا» أي شيء أقوله. يبدو أن الولد يهتم بمصيري، بل ويخاف عليَّ. والده من النوع الذي يثير الرعب في نفوس الآخرين. «طيب» قلت، «لو أصبحنا في حضرة أحدهم فسأسميك السيد روفوس، ما رأيك؟» لو جاء أحدهم فسأكون محظوظة إن بقيت حية.

«جيد» قال روفوس، استرخى ثم أضاف «مازالت الندوب واضحة على ظهري من جلدات سوط بابا».

«رأيتها» قلت. لقد حان الوقت لترك هذا البيت. تحدثت وتعلمت وانتظرت بما فيه الكفاية، كي أعود إلى بيتي. الواضح أن هذه القوى المجهولة التي أتت بي لإنقاذ روفوس لا تكترث بمصيري. عليَّ أن أهرب من هذا البيت إلى مكان آمن قبل الفجر، هذا إن كان هنالك مكان آمن هنا. صرت أفكر في والدي آليس، وكيف لي أن أنجو.

«نعم!» نطق روفوس فجأة.

قفزت أنظر إليه، وانتبهت أنه يحاول قول شيء لكنني لم أنتبه.

«سألتك ما اسمك؟» أعاد سؤاله، «لم تخبريني باسمك».

هذا كل ما عندك؟ «إيدانة» قلت. «يسمونني دانة».

«آه! لا!» همس. يحدق إليَّ كما فعل حين ظهرت أمامه كالشبح.

«ما المشكلة؟ لا شيء، أظن، لكن... سألتني لو كنتُ قد رأيتك قبل ظهورك هنا، مثل تلك المرة التي رأيتك في الغرفة قبل ظهورك في النهر. هذه المرة لم أرك لكني أظن أنني سمعتك».

«كيف؟ متى؟».

«لا أعرف كيف. لم تكوني هنا بعد. لكن حين بدأ الحريق، شعرت بالخوف وسمعت صوتًا ما، صوت رجل. نادى الصوت باسمك. ثم سألك إن كان الأمر يحدث ثانية. فأجاب شخص آخر أعتقد أنه أنت: أظن. نعم لقد سمعتك!».

زفرت متعبة أتذكر سريري وبيتي ونهاية كل هذه الأسئلة التي لا يمكن الإجابة عليها.

كيف استطاع روفوس أن يسمعنا عبر المكان والزمان؟ لا أعرف. ليس لديَّ الوقت للبحث عن إجابة. هنالك مشاكل عاجلة عليَّ حلها الآن.

«من يكون الرجل؟» سألني روفوس.

«زوجي» مسحت وجهي بكفي، «روف، يجب أن أخرج من البيت قبل أن يستيقظ والدك. هلَّا قدتني إلى الطابق الأسفل حتى لا أوقظ أحدهم؟».

«وأين ستذهبين؟».

«لا أعرف لكن لا يمكنني أن أبقى هنا». توقفت لحظة أفكر إلى أي درجة بإمكانه مساعدتي، إلى أي درجة يريد أن يساعدني. «أنا بعيدة جدًّا عن بيتي» قلت، «ولا أعرف متى سأتمكن من العودة إلى هناك. هل تعرف مكانًا بإمكاني البقاء فيه؟».

أنزل روفوس ساقه عن الأخرى وصار يحك رأسه. «بإمكانك الخروج والاختباء حتى الصباح، ثم تكلمين بابا ليعطيك شغلًا هنا. يقوم أحيانًا بتوظيف النيجر الأحرار».

«فعلًا؟ طيب لو كنتَ أسود وحرًّا هل كنت ستعمل عنده؟».

أشاح بنظره بعيدًا عني وهز رأسه، «لا أعتقد. إنه شرير أحيانًا».

«هل هنالك مكان آخر أستطيع الذهاب إليه؟».

فكر قليلًا، «بإمكانك الذهاب إلى المدينة والبحث عن شغل هناك».

«أي مدينة؟».

«إيستون».

«كم تبعد من هنا؟».

«ليست بعيدة جدًّا. يتمشى العبيد إلى هناك أحيانًا حينما يسمح أبي لهم. أو يمكن...».

«ماذا؟».

«بيت والدة آليس أقرب. بإمكانك الذهاب إليها وهي ستخبرك

أين تذهبين للبحث عن عمل. أو البقاء عندها ربما. هكذا أراكِ ثانية قبل أن تعودي إلى بيتك».

تفاجأت بأنه يريد رؤيتي ثانية. لم أتعامل مع أطفال منذ... أن كنت طفلة. لكن لسبب ما وجدتني أستلطف هذا الولد. إلّا أن آثار بيئته واضحة عليه. لربما لو وجدت نفسي في الجنوب، لصرت أسوأ منه.

«كيف أجد والدة آليس؟».

«تعيش في الغابة. تعالي نخرج، سأريك الطريق إليها».

أخذ شمعته وسار نحو باب الغرفة والظلال تتحرك معه. فكرت فجأة أنه قد يخونني، إن بإمكانه الركض في الممر. صرخة واحدة تكفي لإنهاء حياتي.

لكنه فتح الباب بهدوء وألقى نظرة أولًا. ثم استدار وأشار إليَّ. كان متحمسًا ومستمتعًا بالمغامرة، وخائفًا بما يكفي ليتحرك بحذر. اطمأننت وتبعت خطاه مسرعة. ها هو يلعب بالنار مرة أخرى ولكن هذه المرة يساعد دخيلًا على الهرب من بيت والده. لو رآنا والده فإنه سيجلدنا بسوطه.

في الطابق السفلي، دفعنا الباب الخشبي الثقيل بهدوء وخرجنا إلى العتمة الموشكة. السماء مرصعة بنصف قمر ومليون نجمة تضيء الليل كما لم أرَ من قبل في مدينتي. روفوس انطلق يعطيني الإرشادات إلى بيت صديقته، قاطعته. كان هنالك شيء آخر لا بد من فعله أولًا.

«أين وقعت الستائر التي ألقيتها؟ خذني إليها».

استجاب لسؤالي فسار وانعطف عند زاوية المنزل فوصل إلى جانبه. هناك، وجدت ما تبقَّى من الستائر المحترقة على الأرض والدخان ينفث منها.

«لو تخلصنا منها» قلت، «هل ستتمكن من الحصول على غيرها من أمك دون أن يعرف والدك بالأمر؟».

«أظن» قال، «بابا وماما لا يتحدثان كثيرًا أصلًا».

كان كل ما تبقى من الستائر قد برد. دعست على ما تبقَّى من وميض أحمر على أطرافها كي لا تشتعل ثانية. ثم وجدت قطعة كبيرة لم تكن قد احترقت، فردتها ووضعت فيها القطع الصغيرة والرماد وما تعلق بها من التراب. تدخل روفوس لمساعدتي بصمت وعندما انتهينا من جمعها لففت القطعة وربطتها ثم أعطيتها له.

«ألقِ بها في مدخنة غرفتك» قلت، «تأكد من حرقها كليًّا. ولا تحاول حرق شيء آخر يا روف».

هز رأسه خجلًا: «طيب».

«جيد. لا بد من وجود طُرق أخرى تزعج بها والدك دون المخاطرة بحياتك. والآن، كيف أصل إلى بيت آليس؟».

٣

أشار بسبابته نحو الطريق قبل أن يتركني وحيدة لهذا الليل البارد. وقفت إلى جانب البيت للحظة مرعوبة. لم أتوقع أن وجود الولد مصدر راحة لي. قررت أن أسير نحو الأرض المعشوشبة الواسعة التي تفصل بين البيت والحقول. بإمكاني رؤية الأشجار المتفرقة وظلال مبانٍ صغيرة من حولي. وجدت صفًّا من المباني الصغيرة على طرف واحد قد لا يلمحها الواحد من المنزل. لا بد أنها أكواخ العبيد. تخيلت أني لمحت أحدهم يتحرك، للحظة، وقفت جامدة خلف شجرة فروعها مشرعة. بعد صمت، اختفى الخيال بين الكوخين، قد يكون أحد العبيد، مثلي يرتعش خوفًا من أن يصطاده أحدهم رغم العتمة.

سرت بمحاذاة حقل يصل طول نباتاته إلى خصري، لم أحاول التعرف على أنواع النبات في غياب الضوء. كان روفوس قد أخبرني عن شق مختصر وآخر أطول يتفرع من الطريق. حسنًا أني تفاديت الطريق، فاحتمالات لقاء رجل أو امرأة بيضاء ترعبني، أكثر من جرائم الشوارع في مدينتي.

أخيرًا، وجدت نفسي أمام جدار من الأخشاب المكدسة التي قد تبدو كقطعة من العتمة بعدما تعبر الحقول تحت ضوء القمر. وقفت أمام الجدار للحظات أفكر إذا ما كانت الطريق حلًّا أفضل.

فجأة سمعت كلابًا تنبح على مسافة قريبة وبفعل الخوف انطلقت أركض في الحقل تجاه الأشجار بين نباتات غضة. فكرت

ماذا لو كانت نباتات شوكية أو لبلابًا سامًّا أو محفوفة بالأفاعي، فكرت في الاحتمالات لكني لم أتوقف، لأنها بالتأكيد أرحم من قطيع كلاب. أو ما هو أسوأ، كلاب صيد مروضة يستعملونها للبحث عن العبيد الهاربين.

لم تبدُ الغابة معتمة كما ظننت. صرت قادرة على الرؤية قليلًا بعدما اعتادت عيناي العتمة. رأيت أشجارًا، طويلة وذات ظلال، أكملت سيري أفكر كيف لي أن أتأكد من صحة طريقي نحو بيت آليس. قررت أني مشيت كفاية واستدرت لأعود من حيث جئت، وكأن بإمكاني العودة إلى تلك النقطة، أكملت سيري في الحقل. استوعبت كم أني بنت مدينة فعلًا.

وجدت طريقي إلى الحقل ثم انحرفت تجاه الطريق الذي أخبرني عنها روفوس. وجدت الطريق وتبعتها بينما تبحث أذناي عن أثر لأي نباح. لم يعد هنالك صوت سوى حركة طيور الليل وصفير الحشرات: صراصير الليل وبومة وطيور لم أميزها. وددت لو أحتضن طرف الطريق، محاولة السيطرة على أعصابي أتمتم بالأدعية علّها تعيدني إلى بيتي.

قفز شيء من الطريق على مقربة مني وكاد أن يلامس رجلي. تجمدت، خائفة منه ومن صرختي، أدركت أنه مجرد حيوان صغير تفاجأ بحركتي، قد يكون ثعلبًا أو ربما أرنبًا. بدأت قواي تخور، أتأرجح في مكاني. سقطت على ركبتي، مستسلمة للدوار، لربما حان وقت النقلة...

كنت قد أغمضت عينيَّ. وحين فتحتهما وجدتني على الطريق نفسها الرملية محاطة بالأشجار. وقفت هلعة وأكملت المسير.

بعد المشي فترة، صرت أتساءل ما إذا كنت قد اجتزت الكوخ دون أن ألمحه. ثم عادت الأصوات إلى مسامعي لكنها لم تكن حيوانات أو طيورًا هذه المرة، لم تكن أصواتًا مألوفة. لا يمكنني التعرف عليها لكني متأكدة أنها تقترب مني. ببطء شديد استوعبت أخيرًا أنها وقع حوافر خيل على الطريق تسير تجاهي.

في اللحظة الأخيرة، قفزت أختبئ بين الشجيرات.

استلقيت ساكنة أنصت للطريق وأرتعش متسائلة إن كانت الخيل ستشعر بي. بإمكاني رؤيتهم الآن في الظلمة يتحركون ببطء في اتجاه قد يأخذهم بعيدًا عني إلى بيت آل وايلن. وإذا ما لمحوني، فقد يأخذوني معهم أسيرة، فالأَسوَد هنا عبد إلا إذا كان لديه ما يثبت غير ذلك، أوراق رسمية، صكوك حرية. أي أسود بلا أوراق سيقع تحت رحمة أي أبيض قد يجده.

بإمكاني أن أرى الآن أنهم رجال بيض. أراهم تحت ضوء القمر يقتربون نحوي. ثم يلتفون باتجاه الأشجار على بعد أقدام مني. تسمرت في مكاني أترقب ما سيحصل، في سكون تام بانتظار أن يتجاوزوني. ثمانية رجال بيض في تمشية مسلية وسط الليل. ثمانية رجال بيض بين الأشجار في المنطقة حيث من المفترض أن أجد كوخ آليس.

بعد لحظات من التردد، قررت أن أنهض وأتبعهم، أتحرك ببطء

وحذر شديدين من شجرة إلى أخرى. كنت مرعوبة منهم ومرتاحة لوجودهم في آن واحد! خطرهم عليَّ لا يمكن تخيله، لكن لسببٍ ما لم أظن أنهم أكثر خطرًا من الغابة ذات الظلال وأصواتها المريبة وكائناتها التي أجهلها.

كما توقعت، قادني الرجال نحو كوخ صغير مضاء بلون القمر وسط الأشجار. أخبرني روفوس أن الكوخ بعيد عن الطريق، لكنه لم يخبرني أنه لا يُرى من الطريق. لربما الكوخ ليس بعيدًا جدًّا كما ظننت. قد يكون كوخًا آخر. جزء مني يتمنى ألا يكون هنالك أحد أسود داخل هذا الكوخ، لأن مصيبة تنتظرهم الآن!

تقدم أربعة من الخيالة نحو الباب يركلونه ويدقون عليه. حين لم تأتهم إجابة قاموا بمحاولة كسر الباب. باب ثقيل قد يكسر أكتافهم قبل أن ينكسر. لكن القفل ليس بقوة الباب. سمعت الخشب يتكسر والباب ينفتح إلى الداخل. دخل الأربعة وخرجوا يجرجرون ثلاثة أشخاص. اثنان منهم، رجل وامرأة، حاولوا الهرب من النافذة لكن الرجال الواقفين في الخارج توقعوا محاولتهم الخروج من الخلف. الشخص الثالث فتاة صغيرة ترتدي ثوبًا طويلًا ملونًا ألقوا بها على الأرض وتركوها هلعة تحاول الهروب. تحركت إلى موضع يبعد عني مسافة قليلة، بين الشجيرات قرب حافة الخلاء، بعدما تجاهلها الرجال.

بدأ الكلام يصل إلى مسامعي، أحاول التقاط الكلمات رغم المسافة ولكناتهم الغريبة.

«لن نسامحه» قال أحدهم، «فقد حاول الهرب».

«لا يا سيدي» تضرع أحد سكان الكوخ، أسود يخاطب البيض، «عندي إذن. عندي إذن».

لكمه أحدهم على وجهه بينما ثبته اثنان آخران وهو يتلوَّى بينهما. الصراخ مستمر.

«أين الإذن؟».

«لا أعرف لا أعرف. ربما أضعته في الطريق إلى هنا».

جرجروا الرجل إلى شجرة قريبة مني، استلقيت على الأرض ميتة، متخشبة من الخوف. بنتفة من سوء الحظ قد يلمحني أحد البيض أو يدوسني في العتمة.

أجبروه على معانقة الشجرة ليربطوا يديه إليها كي لا يفلت منهم. كان الرجل عاريًا، كان نائمًا في سريره.

لمحت المرأة تقف ساكنة قرب الكوخ ولاحظت أنها وجدت ما تلف جسدها به. بطانية ربما. في تلك اللحظة، جر أحد البيض البطانية عنها، سمعتها تنطق بصوت في غاية النعومة كلمات لم أفهم منها سوى نبرة احتجاج.

«اخرسي!» قال الرجل الذي سحب غطاءها ملقيًا به على الأرض، «يبدو أنكِ نسيتِ نفسك».

انضم إليه أحدهم «أتظنين أنك تمتلكين ما لم نره من قبل؟».

انفجرت ضحكاتهم عالية.

«رأيت من هن أجمل منك» أضاف آخر.

تبادلوا عبارات قبيحة وشتائم دون أن تتوقف ضحكاتهم.

بعدما ثبتوا الرجل الأسود إلى الشجرة، توجه أحد البيض إلى حصانه ليلتقط منه سوطًا. لسعه في الهواء مرة، بداعي التسلية، ثم راح يسوط ظهر الأسود الذي صار ينتفض ألمًا. استقبل المزيد من الجلدات دون أن يصرخ، لكني سمعت صوت أنفاسه، قوية وسريعة.

من خلفه، تنوح طفلته عاليًا متشبثة بقدم أمها، بينما ظلت المرأة صامتة مثل زوجها. احتضنت طفلتها بشدة تطأطئ رأسها ترفض مشاهدة ما يحدث له.

انكسر الرجل. لم يعد بإمكانه التحمل أكثر، صار يئن من أعماقه وكأنها تتمزق، تغلب العذاب على إرادته، ثم استسلم للصراخ.

على بعد خطوات منه أشتم رائحة عرقه، أسمع كل نفس من أنفاسه، كل صرخة، كل جلدة تقطع جلد ظهره. أرى جسده ينتفض يصرخ يقاوم الحبل. استمر عويله بلا انقطاع. أشعر بمعدتي تتقلب لكني بقيت ساكنة في مكاني. متى سيتوقفون؟ لِمَ لم يتوقفوا؟

«أرجوك سيدي» توسل الرجل، «بحق الرب أرجوك يا سيدي ...».

أغمضت عيني محاولة السيطرة على عضلاتي خوفًا من التقيؤ.

سبق وأن شاهدت أناسًا يُضربون ويُجلدون على التليفزيون وفي

الأفلام. رأيت الدم المزيف يلطخ ظهورهم وسمعت صرخاتهم المدروسة. لكني لم أجلس على مقربة منهم أو أشم رائحة عرقهم أو أستمع إليهم يتضرعون ويُصلُّون، يُهانون أمام أهلهم وأنفسهم. كنت أقل استعدادًا لمواجهة هذا الواقع من تلك الطفلة على بعد خطوات مني. بل إن ردة الفعل متقاربة جدًّا. وجهي مثل وجهها مبلل بالدموع، وعقلي يهرع من فكرة إلى أخرى، يحاول الهرب من صوت السوط. بل إني تذكرت شيئًا مفيدًا وقتها، ما يلقب به هؤلاء البيض المرتحلون ليلًا في نواحي الجنوب، محطمين الأبواب بحثًا عن سود يعذبونهم ويقتلونهم.

الدوريات. جماعات من الشباب البيض تتلخص مهمتهم في تطويع العبيد. دوريات. بمثابة رأس الحربة لجماعات الكوكلوكس كلان.

توقفت صرخات الرجل.

انتظرت لحظة ثم فتحت عيني لأرى الدورية تفك الحبل عن يديه. بقي في مكانه معانقًا الشجرة، حتى قام أحدهم بجره عنها وربط يديه ثانية من الأمام. ممسكًا بالطرف الثاني من الحبل، صعد الأبيض على الحصان الذي راح يجر الطريد من خلفه. لحق به الآخرون على أحصنتهم ما عدا واحدًا منهم بقي يتجادل مع المرأة. يبدو أن الجدال لم يعجبه، بضربة واحدة لكم وجهها، تمامًا كما فعل بزوجها، سقطت المرأة على الأرض، ثم ركب حصانه يلتحق بدوريته.

توجه رجال الدورية بطريدهم إلى الطريق نحو بيت آل وايلن. لو أنهم أخذوا الطريق التي جاؤوا منها لوجدوني أو دعسوا جسدي. أتساءل إن كان الرجل عبدًا لآل وايلن. قد يفسر ذلك علاقة روفوس بالطفلة آليس، إن كانت الطفلة هذه هي آليس. إنِ كان هذا الكوخ الصحيح. بغض النظر، ها هي المرأة على الأرض، غائبة عن الوعي وبحاجة إلى المساعدة. نهضت أسير نحوها.

الطفلة، راكعة على جنبها، قفزت تهم بالهرب.

«آليس!» قلت هامسة.

توقفت، عيناها تحملق إليَّ في الظلام. إنها آليس بالفعل. هؤلاء أهلي إذن، أسلافي. وهذا البيت قد يكون ملجئي.

٤

«آليس، أنا صديقتكم» سارعت بالقول. ركعت آخذ برأس المرأة محاولة رفعها، بينما تشاهدني الطفلة بريبة، همست تسألني:

«هل ماتت؟».

التفتُّ إليها. كانت أصغر من روفوس، سمراء ونحيلة وصغيرة. تمسح بكمها أنفها.

«لا لم تمت. هل هنالك ماء في البيت؟».

«نعم».

«هيا اجلبيه».

ركضت إلى الكوخ وعادت بعد لحظات بمغرفة خشبية كبيرة يخر منها الماء. بللت وجه الأم قليلًا، وغسلت الدم عن أنفها وفمها. اكتشفت أنها في مثل عمري، نحيلة مثل ابنتها، ومثلي. تشبهني بتقاطيع جسدها الناعم، على الأرجح ليست قوية بما يكفي لتنجو في هذا الزمان. لكنها هنا، ها هي على قيد الحياة، بالرغم من مرارة العيش. قد تعلمني كيف أعيش وأنجو مثلها.

بدأت تستعيد وعيها، تتأوه في البداية، ثم تصيح: «آليس! آليس!».

«ماما؟» ردت الطفلة بلهفة.

اتسعت عينا المرأة فجأة، تحدق إليَّ. «من أنتِ؟».

«صديقة. جئت هنا لطلب المساعدة، ولكن الآن، أود لو أقدمها. لا تستعجلي، حين تستجمعين قواكِ دعيني آخذك إلى الداخل».

«سألتك من أنتِ؟» قالت بصوت صارم.

«اسمي دانة. امرأة حرة».

كنت راكعة إلى جانبها، رأيتها تنظر إليَّ وإلى قميصي، بنطالي وحذائي. لأني كنت مشغولة بالانتقال إلى شقتنا الجديدة وترتيبها، كنت قد ارتديت بوطًا صحراويًّا من النوع الذي شاع عن الجنود الإنجليز ارتداؤه خلال الحرب العالمية الأولى. تفحصتني بنظرة مفصلة وكأنها تطلق حكمًا ما عليَّ.

«هاربة تقصدين؟».

«هذا ما قد يقوله رجال الدورية لأني لا أملك أوراقًا تثبت عكس ذلك لكني امرأة حرة، وُلدت حرة، وأنوي أن أظل كذلك».

«ستورطيننا معك!».

«لن أورطكم الليلة، فقد أخذتم حصتكم من ذلك!» ترددت، عضضت على شفتي، وأكملت رجائي: «أرجوك لا تصديني».

بقيت المرأة صامتة للحظات. شاهدتها تنظر إلى طفلتها، تتلمس وجهها ثم تمسح الدم عن طرف فمها. «لم تكن هذه نيتي» قالت بصوت لطيف.

«أشكرك».

ساعدتها على الوقوف ودخول الكوخ. أو الملجأ. ساعات من السكينة. لربما ليلة الغد سأصبح هاربة كما تقول عني هذه المرأة. أو ربما أنها سترشدني إلى طريق نحو الشمال، طريق آمنة وسريعة.

كان الكوخ مظلمًا فيما عدا نار خابية في المدخنة لكن المرأة وجدت طريقها إلى السرير بسهولة.

«آليس» نادت.

«أنا هنا يا ماما».

«ضعي حطبًا في النار».

شاهدت الطفلة بثوبها الطويل المنسدل قريبًا من الخشب المشتعل. يبدو أن صديقة روفوس مثله لا تخشى النار.

روفوس. اسمه أيقظ فيَّ رغبة العودة إلى بيتي، مشاعر مختلطة من الخوف والحنين والحيرة. هل يجب عليَّ فعلًا أن أذهب إلى الشمال لأجد الأمان؟ وإن وصلت، فأي نوع من الأمان هذا؟ الشمال المنظم أفضل من عبودية الجنوب لكنه ليس أفضل بكثير.

«ما الذي جاء بك هنا؟» سألتني المرأة، «من أرسلك؟».

متجهمة وجدتني أسرح في اشتعال النار، سمعتها تتحرك من خلفي، تبحث عن ملابس ترتديها. «الولد» قلت بهدوء «روفوس وايلن».

توقفت عن الحركة. لحظة من الصمت. كنت أعلم أني أجازف بإخبارها الحقيقة، بذكر روفوس. مجازفة حمقاء. لا أعلم ما الذي دفعني إلى ذلك. «لا أحد سواه يعرف عني» أضفت.

بدأت النار تشتعل حول الحطبة التي وضعتها آليس. الموقد ينفث بالشرار ويملأ الصمت من حولي، حتى قالت آليس: «مستر روف لن يقول» وهزت كتفيها «روف لا يقول شيئًا أبدًا».

كلماتها أكدت معنى المجازفة التي خضتها بقول الحقيقة. لم أفكر بذلك حتى الآن، ولكن إن أخبرهم روفوس عن وجودي، فعلى أم آليس أن تعرف ذلك كي تخبئني أو تدفعني إلى الرحيل. انتظرت ردها.

«متأكدة أن أباه لم يرَكِ؟» سألتني. مما يعني أنها توافق ابنتها، بأن روفوس لا خوف منه. يبدو أن توم وايلن قد علَّم على ابنه بالسوط على عكس ما يتوقع الناس.

«هل كنت سأصل إلى هنا لو رآني الأب؟» سألتها.

«لا أظن».

التفتُّ تجاهها. كانت قد ارتدت ثوبًا أبيض وطويلًا مثل ثوب ابنتها. جلست على طرف السرير تشاهدني، تفصلني عنها طاولة مصنوعة من ألواح خشبية طويلة متينة وملساء، ومقعد منحوت من نصف جذع شجرة. جلست على المقعد. «هل يملك توم وايلن زوجَك؟» سألتُ.

هزت رأسها حزينة: «شفتِ؟».

«نعم».

«ما كان عليه المجيء. حذرته من المجيء».

«هل كان لديه إذن فعلًا؟».

ضحكت بمرارة. «لا. ولن يحصل على إذن. كي يأتي لمقابلتي. كان مستر توم قد أمره أن يجد زوجة جديدة، هناك في المزارع. حتى يصبح بإمكانه امتلاك كل أطفاله».

نظرت إلى آليس. تابعت المرأة نظراتي. «لن أسمح له بامتلاك أحد أطفالي» قالت بحزم.

بدتا أمامي في موقف هش. لا أظن أن هذه المرة الأولى التي زارتهم فيها الدوريات، ولن تكون الأخيرة. في مكان مثل هذا، كيف لهذه المرأة أن تتحلى بهذه الثقة. وهنالك أيضًا التاريخ، سيصبح روفوس وآليس رفيقين بشكل أو بآخر.

«أنتِ من أين؟» سألت المرأة فجأة. «من طريقة كلامك لا يبدو أنكِ من هنا».

تفاجأت بتغييرها الموضوع، وكدت أخبرها أنني من لوس آنجلس.

«نيويورك» أطلقت كذبتي بهدوء. في ١٨١٥، لم تكن هنالك كاليفورنيا، كانت مجرد مستعمرة إسبانية بعيدة على الأرجح لم تسمع بها هذه المرأة.

«نيويورك بعيدة جدًّا» قالت المرأة.

«زوجي هناك» لا أعلم من أين جئت بهذه الكذبة؟ قلتها وكلي حنين لكيفن الذي يجلس الآن على مسافة أبعد بكثير مما يمكنني قطعه.

اقتربت مني ووقفت فوق رأسي تتفحصني. طويلة ومستقيمة، عابسة وأكبر سنًّا.

«حملوك إلى هنا؟» سألتني.

«نعم». بشكل ما، قد يقول الواحد إني تعرضت للاختطاف.

«هل أنتِ متأكدة أنهم لم يأخذوه هو أيضًا؟».

«لا، أخذوني وحدي، أنا متأكدة».

«والآن تريدين العودة».

«نعم» قلت بحزم وأمل. «نعم!» تداخلت الحقيقة بالكذبة.

حلَّ الصمت للحظة. نظرت المرأة إلى طفلتها، ثم إليَّ. «تبقين هنا حتى ليلة الغد» قالت. «ومن ثَمَّ هناك مكان آخر سأرشدك إليه. سيعطونك الأكل و...آه!» نظرت إليَّ خجلة. «أكيد أنك جائعة الآن. دعيني أجلب لك...».

«لا لست جائعة. لكني مرهقة».

«ادخلي السرير إذن. آليس أنتِ أيضًا. السرير يسعنا جميعًا هيا».

اتجهت إلى طفلتها تمسح عنها التراب. شاهدت عينيها للحظة، ترقب الباب. «دانة... قلت اسمك دانة؟».

«نعم».

«نسيت البطانية» قالت. «تركتها في الخارج حين... تركتها في الخارج».

«سأجلبها» قلت. خرجت ألقي نظرة. كانت البطانية ملقاة حيث تركها رجل الدورية، ليست بعيدة عن البيت. توجهت نحوها، ولحظة انحنيت لالتقاطها انقض عليَّ أحدهم يلقي بي على الأرض. كان رجلًا أبيض شابًّا، وجهه واسع وشعره أسود، ممتلئ وأطول مني بربع متر.

«ما هذي الـ...؟» انفجر «أنت... لست هي». تفحصني وكأنه لا يصدق ما يراه. يبدو أني أشبه والدة آليس بما يكفي لأبعث فيه الحيرة. «من أنتِ؟» صرخ عليَّ. «وماذا تفعلين هنا؟».

ماذا أفعل الآن؟ أمسك بي بكل سهولة، كل محاولاتي لجر نفسي

لم تؤثر فيه. «أعيش هنا» كذبت. «ما الذي تفعله أنتَ هنا؟» وكأنه سيصدقني لو حدثته بنبرة امتعاض.

صفعني بيد واحدة بينما ظلت الأخرى محكمة عليَّ. قال بصوت هادئ: «يبدو أن أحدًا لم يعلم هذه النيجر كيف تحدث أسيادها. ولكنك على يدي ستتعلمين».

لم أرد. أذناي تطن من صفعته، سمعته يقول: «كأنك أختها، بل إنك قد تكونين أختها التوأم».

يبدو أن الفكرة مقنعة بالنسبة إليه، لذا التزمت بالصمت. الصمت أأمن.

«أختها متنكرة بلباس رجل!» بدت على وجهه ابتسامة. «أختها الهاربة. يا ترى كم سيكون سعرك؟».

بدأت أرتعد. يكفي أنه أمسك بي، الآن يريد أن يقوم بتسليمي ... بيدي المحررة غرزت أظافري في ذراعه أمزق لحمه من المرفق حتى المعصم.

تفاجأ الرجل بردة فعلي وبتأثير الألم انفكت قبضة يده عني فانطلقت أركض.

سمعته يصرخ ويركض خلفي.

ركضت دون تفكير نحو باب الكوخ لكن والدة آليس وقفت تمنعني.

«لا تدخلي» همست. «أرجوك لا تدخلي إلى هنا».

لم تسنح لي الفرصة للدخول فقد قبض الرجل عليَّ، جرني إلى الوراء وألقى بي على الأرض. كان على وشك ركلي لكني تدحرجت على جانبي وقفزت واقفة. منحني الرعب سرعة ورشاقة لم أمتلكهما من قبل.

مرة أخرى ركضت، هذه المرة نحو الأشجار. لم أكن أعرف إلى أين، لكن وقع مطاردة الرجل لي من خلفي جعلني أناور بين الاتجاهات، أبحث عن أشجار أكثر كثافة لأضيع في الظلام تحتها.

قفز الرجل فوقي وثبتني على الأرض بقوة. في البدء استلقيت مذهولة غير قادرة على الحركة أو الدفاع عن نفسي حتى صار يضربني ويلكمني بكلتا قبضتيه. لم أتعرض للضرب هكذا من قبل، ولم أتخيل يومًا أن بمقدوري تلقي كل هذه اللكمات دون فقدان الوعي.

كلما حاولت الإفلات منه، جرني نحوه. وكلما قمت بدفعه عني، فشلت في تحريكه. لكني لفت انتباهه لوهلة حين اقترب مني أكثر وقد ثبت ظهري على الأرض. رفعت يديَّ أمام وجهه وأصابعي تغطي عينيه. في تلك اللحظة، عرفت أن باستطاعتي إيقافه، التسبب بعاهة له، في هذا العصر البدائي، سيعني ذلك نهايته.

العينان.

عليَّ فقط توجيه أصابعي إلى عينيه أضرب نسيجهما الناعم، أفقأهما لأعذبه بألم أشد مما يلحقه بي.

لكني لم أستطِع. الفكرة مقززة، تجمدت قبضتاي بلا حركة. كان عليَّ أن أهجم لكني لم أستطِع.

ضرب الرجل يديَّ متراجعًا عني، لعنت نفسي على حماقتي هذه. لقد ضاعت الفرصة، لم أضرب ضربتي. حساسيتي المفرطة ليست لهذا الزمان، لكني جئت بها إلى هنا. والآن سيبيعونني عبدة لأني لم أقوَ على الدفاع عن نفسي كما يجب. العبودية! هذا خطر أشد.

توقف الرجل عن ضربي واكتفى بتثبيتي والتحديق إليَّ. لاحظت أني قد تسببت في بعض الخدوش على وجهه. خدوش تافهة على السطح. مسح الرجل وجهه ليرى الدم على يده ثم نظر إليَّ.

«تعرفين أنك ستدفعين ثمن ما فعلت» قال.

لم أرد. إن كنت سأدفع ثمن شيء فسيكون ثمن حماقتي.

«أظن أنكِ ستكونين بسعر أختك» قال، «كنت قد جئت لآخذها لكنك ستوفين بالغرض».

فهمت أنه أحد رجال الدورية. على الأرجح الرجل الذي قام بضرب أم آليس. مد يده ومزق قميصي عني. يبدو أنه ليس الأحمق الوحيد بيننا. ها هو يمنحني فرصة أخرى لتدميره. شعرت بالأمل يقترب مني.

قام بتمزيق حمالة الصدر عني. يجب أن أستعد للهجوم، كل ما أحتاجه وخزة واحدة فقط. تفاجأت به يجلس فوقي رافعًا قبضته ينهال عليَّ باللكمات. يمينًا وشمالًا التفتُّ متفادية لكماته، اصطدمت رأسي بشيء جامد عندما حلت قبضته فوق فكي.

انهارت قواي أمام هذا الألم الجديد، حاولت هرعة الخلاص

منه. لا أستطيع التحرك سوى بضع إنشات قبل أن يعود ليثبتني مرة أخرى، لحظتها أدركت أن رأسي قد اصطدمت بعصًا ثقيلة، ربما كانت جذع شجرة. التقطتها ولوَّحت بها نحو رأسه بكل ما تبقى عندي من قوة.

انهار جسده فوق جسدي.

بأنفاس متلاهثة، استلقيت في مكاني، أحاول استجماع طاقتي حتى أقف وأهرب. لا بد أن حصانه في مكان ما هنا، لو أجده...

جررت نفسي من تحت جسده الثقيل محاولة الوقوف على قدميَّ. تفاجأت بدوار رهيب يداهمني قبل أن أنهض، أتأرجح. حاولت التمسك بجذع الشجرة علني أستعيد تركيزي. لو جاء الرجل ووجدني هنا فإنه بلا شك سيقتلني. لكني لم أستطِع التمسك بالجذع أكثر، ببطء، تهاويت على الأرض في عتمة عميقة لا نجوم فيها.

٥

بدفعة من الألم استعدت وعيي. لم أشعر بغير الألم، كل جزء فيَّ يتوجع، حتى رأيت وجهًا مغبشًا فوقي، وجه رجل! انتفضت من الهلع.

أحاول ركله، أحاول الهرب منه، أغرز أظافري في يديه الممتدة تجاهي، أحاول الانقضاض عليها، عضها، أريد استهداف عينيه هذه المرة.

هذه المرة سأفعل كل ما بوسعي، لن أتراجع لأي سبب.

«دانة!».

تجمدت. اسمي؟ الدورية لا تعرف اسمي.

«دانة، انظري إليَّ أرجوكِ».

كيفن! هذا صوت كيفن! تطلعت إليه محاولة تركيز انتباهي عليه. أخيرًا! أنا في البيت. مستلقية على سريري، ملطخة بالدم والتراب، لكني في أمان. أمان!

انحنى كيفن من فوقي يحاول احتضاني، يهدئ من روعي، يختلط دمي بدمه. بإمكاني رؤية الخدوش التي ألحقتها به، على وجهه بالقرب من عينه.

«كيفن أنا آسفة».

«أنتِ بخير الآن؟».

«ظننتك... ظننتك رجل الدورية».

«رجل الماذا؟».

«الـ... سأخبرك لاحقًا. يا إلهي! أشعر بوجع شديد، بإنهاك. لا يهم، المهم أني عدت إلى البيت».

«غبتِ دقيقتين أو ثلاثًا هذه المرة. حسبت الوقت. ولكن يبدو أن المدة كانت أطول بالنسبة إليك».

أغمضت عيني مختنقة بالوجع والقلق. لم تكن دقائق فحسب،

بل ساعات، أعرف ذلك. لكني لا أستطيع مجادلته الآن. لا يمكنني الجدال. فورة القوة التي جاءتني وأنا أقاتل لإنقاذ حياتي اختفت الآن.

«سآخذك إلى المستشفى» قال كيفن، «لا أعرف كيف أشرح ما حصل، لكنك بحاجة إلى طبيب».

«لا».

نهض، شعرت به يريد رفعي عن السرير.

«لا يا كيفن، أرجوك».

«اسمعي، لا تخافي، أنا معك».

«لا لا، اسمع. كل ما حصل أنه قام بضربي، عدة مرات. صدقني لا أحتاج إلى المستشفى». فجأة عادت إليَّ الطاقة حين احتجتها، «كيفن، في المرة الأولى اختفيت من هنا وعدت، وهذه المرة حصل الشيء نفسه. ماذا لو اختفيت في المستشفى ثم عدت إليه؟».

«عادي» ثم توقف، «إن اختفيتِ وعدتِ إلى الظهور أمام أحدهم فلن يصدق نفسه ولن يتجرأ على إبلاغ شخص آخر».

«أرجوك فقط دعني أنام. هذا كل ما أحتاجه الآن. أحتاج الراحة. الكدمات والخدوش ستتشافى. سأتحسن، لا تقلق».

أعادني إلى السرير، بالرغم من عدم اقتناعه بما قلت. «كم كانت المدة بالنسبة إليك؟».

«ساعات. لكنها انتهت بشكل مرعب».

«من ضربك؟».

«رجل الدورية. ظن أنني هاربة». تجهم وجهي، «كيفن، أريد فقط أن أنام. سأشرح لك في الصباح. أعدك». صوتي يخبو.

«دانة!».

فززت من النوم أحاول التركيز عليه مرة أخرى.

«هل اغتصبك؟».

تنهدت. «لا ضربته بعصًا، فقد وعيه. دعني أنام الآن».

«انتظري...».

انجرف وعيي بعيدًا عنه. لم أعد قادرة على التركيز أكثر، لا يمكنني التفسير والشرح الآن، الإجابة عن أسئلته مرهقة جدًّا.

تنهدت ثانية وأغمضت عينيَّ. سمعته ينهض ويخرج من الغرفة، سمعت خرير الماء من مكان ما. ثم سقطت في النوم.

٦

وجدتني نظيفة عندما استيقظت قبل شروق الشمس في اليوم التالي، أرتدي قميصًا من الصوف لم أكن قد ارتديته مذ تزوجت كيفن، وبالتأكيد أني لم أرتدِه في حر يونيو من قبل. إلى جانبي حقيبة قماشية فيها بنطلون وبلوزة وملابس داخلية وكنزة وحذاء ومطواة كبيرة لم أكن قد رأيتها من قبل. الحقيبة مربوطة بوسطي عن طريق

حبل. وعلى الجانب الآخر كان كيفن يستغرق في النوم، لكنه استيقظ عندما قبلته.

«ما زلتِ هنا!» قال بشعور من الراحة ثم بدأ بمعانقتي، ذكرني جسده بالكدمات التي لم تزل بعد. انتبه هو أيضًا فتراجع عني وأشعل الضوء. «كيف تشعرين الآن؟».

«أفضل بكثير» نهضت أخرج من السرير، تمكنت من الوقوف للحظة، ثم رجعت تحت الغطاء مرة أخرى. «أو مازلت أتعافى».

«جيد. أنتِ بحاجة إلى الراحة ووقت كافٍ للشفاء. بإمكانك الآن أن تخبريني عمّا حدث. من يكون رجل الدورية هذا؟ كل ما استطعت تخمينه أنك قد تقصدين دورية المرور».

استرجعت التعريف الذي كنت قد قرأته في مكان ما «رجل الدورية هو رجل أبيض، غالبًا ما يكون شابًّا فقيرًا وربما سِكِّيرًا. رجل من جماعة تهدف إلى السيطرة على السود».

«ماذا؟».

«الدوريات دورها التأكد من وجود العبيد في أماكنهم ليلًا لمعاقبة من يخالف ذلك. يطاردون الهاربين لقاء مكافآت مالية. وأحيانًا يتفننون في أساليب التعذيب والترهيب بحق أشخاص عُزَّل غير مسموح لهم بالدفاع عن أنفسهم».

مال كيفن مسندًا خده على كفه يقترب مني: «ما الذي تتحدثين عنه؟ أين كنتِ؟».

«في ميريلاند. في مكان ما على الساحل الشرقي. هذا ما فهمته من روفوس».

«ميريلاند! على بعد ٣ آلاف ميلمن هنا... في غضون دقائق؟».

«أكثر من ٣ آلاف ميل. أكثر من أي عدد من الأميال». تزحزحت قليلًا محاولة تخفيف الضغط عن كدمة حساسة. «دعني أروي لك ما حدث».

استدعيت الأحداث بتفاصيلها كما فعلت المرة الماضية. استمع إليَّ دون مقاطعتي. وعندما انتهيت، اكتفى بهز رأسه.

«الأمور تزداد جنونًا!».

«هكذا تبدو لك».

طالعني بنظرة استفهام.

«بالنسبة إليَّ الأمر صار واقعًا أكثر فأكثر. بالتأكيد لست سعيدة بما يحصل، بالتأكيد لا أريد أن أعلَقَ هناك مرة أخرى. لا أعرف كيف يحدث ما يحدث إلا أنه حقيقي. حقيقي كالألم الذي أشعر به الآن. وأسلافي.. أسلافي!».

«ربما».

«كيفن، بإمكاني أن أريك إنجيل العائلة».

«ولكن الحقيقة أنك سبق ورأيتِ الإنجيل. تعرفين مسبقًا عنه وعن عائلتك وأسمائهم وأنهم جاؤوا من ميريلاند. وتعرفين...».

«اللعنة! كيفن! ماذا تقصد؟ على ماذا يدل كل هذا؟ أتقصد أني أهذي وأهلوس بأسماء أسلافي؟ لماذا لا تأخذ بعضًا من هذا الوجع كي تتأكد!».

وضع ذراعه على صدري يحاول تهدئتي في موضع لم تصبه الكلمات. بعد فترة صمت، قال: «هل تعتقدين فعلًا بأنك سافرت لأكثر من قرن من الزمن و٣ آلاف ميل لتلتقي بأسلافك الذين ماتوا؟».

تحركت بصعوبة، «نعم» همست، «بغض النظر عن مدى جنون ما تسمعه، ومحاولات الفهم، هذا ما حصل فعلًا. لا أظن أنك تساعدني بالمزاح».

«لم أمزح».

«إنهم أسلافي، حتى ذاك الرجل الملعون لاحظ التشابه بيني وبين أم آليس».

لم يرد.

«الأكيد أني لن أجرؤ على تجاهلهم وكأنهم ليسوا أسلافي. سأفعل كل شيء بمقدرتي كي أدفع الضرر عنهما، الولد والبنت».

«وكيف بإمكانك حمايتهما؟».

«كيفن، الأمر في غاية الجدية!».

«صدقيني لا أمزح. أخبريني كيف أساعدك».

«بتصديقي!».

تنهد. «مثلما قلت للتو».

«ماذا؟».

«لا يمكنني تجاهل ما حدث. بالتأكيد أنك حين تختفين تذهبين إلى مكان ما. إذا كان هذا المكان كما تعتقدين في الجنوب، فإن علينا إيجاد طريقة لحمايتك كلما وجدت نفسك هناك».

اقتربت منه، شعرت بقليل من الراحة، راضية برد فعله حتى وإن كان لا يصدقني تمامًا. كيفن الآن هو مرساتي في هذا العالم، لقد صار الرابط بيني وبين عالمي هذا. لا يمكنه تصور كم أحتاجه إلى جانبي.

«لا أظن أن بإمكان امرأة سوداء وحدها، أو حتى رجل أسود، حماية نفسها في مكان مثل ذاك» قلت، «لكن لو لديك فكرة فأرجوك أخبرني».

صمت قليلًا ثم مد يده إلى الحقيبة القماشية وأخرج المطواة منها «قد تساعدك هذه، لو استطعت استخدامها».

«نعم، رأيتها».

«هل تعرفين كيف تستخدمينها؟».

«تقصد هل سأقوى على استخدامها؟».

«وذاك أيضًا».

«نعم. ربما لو سألتني قبل البارحة لترددت في الإجابة، ولكن الآن، نعم».

نهض وترك الغرفة ثم عاد بمسطرتين خشبيتين. «أرني كيف» قال.

حللت عني حبل الحقيبة ونهضت، أحسست بعضلاتي ملتهبة أثناء الحركة. عرَّجت إليه وأخذت إحدى المسطرتين، تفحصتها، بدأت أفرك وجهي بعصبية ثم بحركة عشوائية مررت المسطرة على بطنه وهو يكاد يفتح فمه ليشرح لي.

«هكذا!» قلت.

تجهم.

«كيفن، لن أجد نفسي طرفاً في معركة متكافئة».

لم يرد.

«أرجوك افهم أني بالنسبة إليهم مجرد نيجر فقيرة غبية خائفة. وبذا إن سنحت لي الفرصة، فلن يتوقعوا ظهور المطواة، هذا إذا التقطتها في الوقت المناسب».

هز رأسه. «يبدو أن هنالك أمورًا لا أعرفها عنك».

هززت كتفي باستسلام وعدت إلى السرير. «لسنوات طويلة تفرجت على هذا النوع من العنف على شاشة التليفزيون، ظننت أني أعرف بعض التفاصيل».

«جيد».

«لكن كل ما أعرفه لم يخفف وطأة ما شهدته».

جلس بالقرب مني. «عمَّ تتحدثين؟».

«عن المحيطين بروفوس، فهم يعرفون عن العنف أكثر مما يمكن لأي كاتب أفلام معرفته».

«هذا... قابل للنقاش».

«لا أعرف كيف أقنع نفسي أن بإمكاني النجاة في مكان مثل ذاك. سواء بمطواة في جيبي أو حتى مسدس».

أخذ نفسًا عميقًا. «اسمعي، لو انتقلت إلى هناك مرة أخرى لا حل أمامك سوى أن تحاولي البقاء على قيد الحياة. ما الخيار، هل ستتركينهم يقتلونك؟».

«آه، كم أتمنى لو يقتلوني، سيحصل ذلك إن تجرأت وقاومت كل ما يمكنهم فعله بي: اغتصابي أو حبسي باعتباري هاربة، ومن ثم بيعي بأعلى سعر بعدما يتبين أن لا مالك لي». حككت جبهتي «أتمنى لو لم أقرأ عن العبودية من قبل».

«لكن هنالك طريق أخرى، كان السود الأحرار موجودين وقتها، بإمكانك أن تكوني منهم».

«لكنهم يحملون أوراقًا تثبت حريتهم».

«بإمكانك الحصول على مثلها، بإمكاننا تزوير أوراق لك».

«لو استطعنا التزوير. نحتاج إلى صك حرية لكني لا أعرف كيف يبدو. كنت قد قرأت عنه لكني لم أرَ نموذجًا له من قبل».

نهض وتوجه إلى الصالة وعاد بعد لحظات بدزينة من الكتب ألقى بها على سريري. «هذه كل الكتب التي نملكها في تاريخ السود» قال، «دعينا نفتش فيها».

عشرة كتب. بدأنا نتصفح الملاحق والفهارس فيها، بل إني قلَّبت كل صفحاتها حتى لا يفوتني شيء منها. لم نجد صورة ولا معلومات عن صكوك الحرية. لم أكن قد قرأت الكتب العشرة كلها لكني سبق وتصفحتها.

«علينا الذهاب إلى المكتبة إذن» قال كيفن، «سنذهب اليوم بمجرد أن تفتح المكتبة».

«هذا لو وجدتني هنا».

وضع الكتب على الأرض ودخل يتلحف معي الغطاء. استلقى بقربي يحدق إليَّ متجهمًا: «ماذا عن الإذن الذي كان مع والد آليس؟».

«إذن... مجرد ورقة مكتوبة تسمح للعبد بأن يتواجد في مكان غير مكانه في وقت ما».

«يعني مجرد تنويه».

«صحيح» قلت، «أصبت! أذكر أن بعض الولايات بررت منع تعليم العبيد بأنهم سيزيفون تنويهات مثل هذي للهرب. بل إن بعضهم قد تمكن فعلًا من الهرب بهذه الطريقة». نهضت وذهبت إلى مكتب كيفن بحثًا عن دفتر وقلم على طاولته، وسحبت الأطلس الكبير من الرف.

«سأقطع صفحة ميريلاند» قلت.

«طيب، أتمنى لو أن لديَّ خرائط للطرق. لربما لن تكون الطرق المرسومة فيها موجودة، لكنها قد تساعدك في إيجاد سبيل للهرب».

«هذه الخريطة تُظهِر الطرق الرئيسية. والكثير من الأنهار، الأرجح أنهم لم يبنوا الكثير من الجسور وقتها». تفحصت الخريطة عن قرب ثم نهضت ثانية.

«كتاب آخر؟» تساءل كيفن.

«الموسوعة. أريد أن أعرف متى قامت ولاية بنسلفانيا ببناء سكة الحديد في شبه الجزيرة. عليَّ الوصول إلى ديلاوير للوصول إلى القطار لكنه سيأخذني إلى بنسلفانيا».

«انسي» قال، «في ١٨١٥ لم تكن القطارات قد وُجدت بعد».

بحثت في الموسوعة من باب الاحتياط واكتشفت أن سكة قطار بنسلفانيا لم تُبنَ حتى عام ١٨٤٦. عدت إلى السرير ووضعت القلم والخريطة والأوراق في حقيبتي القماشية.

«اربطيها بك ثانية» قال كيفن.

ربطت الحبل.

«أظن أننا لم ننتبه إلى تفصيلة مهمة» قال، «لربما العودة إلى هنا أسهل مما تظنين».

«هنا؟».

«نعم هنا. قد تكون لديك يد في النقلة».

«كيف؟ لا يمكنني التحكم في النقلة».

«ربما. اسمعي، هل تذكرين الأرنب الذي قطع الطريق من أمامك؟».

«نعم».

«أخافك؟».

«نعم أرعبني. للحظة ظننت أنه... لا أعرف، كائن خطر».

«والخوف أصابك بالدوار فظننت أنك تعودين إلى البيت. هل يشعرك الخوف بالدوار غالبًا؟».

«لا».

«لا أظن أنه دوار بسبب الخوف، على الأقل ليس بالشكل الطبيعي. أظن أنكِ محقة، الخوف فعلًا كان على وشك نقلك إلى البيت».

«ولكني... كنت خائفة طوال الوقت. وكنت مرعوبة وأنا أتعرض للكمات من رجل الدورية. لكني لم أعد إلى البيت إلا بعدما ضربته ونجوت».

«لا أعرف كيف نفسر ذلك».

«ولا أنا».

«دعينا نفكر، هل كانت مواجهتك مع رجل الدورية قد انتهت

فعلًا؟ قلتِ إنكِ خفت لو استيقظ ووجدك غائبة عن الوعي فسيقتلك».

«بالتأكيد، بدافع الانتقام. فقد قاتلته وتسببت له في إصابات. لا أظن أنه سيتركني حية بعدها».

«قد تكونين على حق».

«بل إني محقة».

«القصد أنك كنت مؤمنة بالخطر».

«كيفن».

«لحظة، اسمعيني فقط، لحظتها كنت تعرفين أن حياتك في خطر وأنه حتمًا سيقتلك. في المرة السابقة أيضًا كنت تعلمين أن حياتك مهددة حينما وجه والد روفوس البندقية إلى رأسك».

«نعم».

«حتى مع الأرنب، توقعتِ أنه خطر عليك».

«لكني لمحته في الوقت المناسب، مجرد خيال مظلم فعرفت أنه صغير. فهمت قصدك الآن».

«لربما لو كان الحيوان ثعبانًا لعدت إلى البيت وقتها، حتى قبل مجيء رجل الدورية. لربما الشعور بالخطر هو ما يعيدك إلى هنا».

«وبذلك فإن شعور روفوس بالخطر يستدعيني إليه، بينما يعيدني شعوري بالخطر إلى هنا».

«هكذا يبدو».

«لكن هذا لا يفديني في شيء».

«قد يساعدك».

«فكر في الأمر يا كيفن. إذا كان التهديد غير حقيقي فإني أظل عالقة هناك. وإن كان فعليًّا فإني معرضة للموت قبل عودتي إلى هنا. النقلة تستغرق وقتًا، عليَّ أولًا أن أجابه شعور الدوار والغثيان».

«للحظات».

«اللحظات تفرق في مواجهة الموت. لن أجرؤ على تعريض نفسي للخطر على أمل العودة بينما تستقر فأس فوق رأسي. وإن وقعت بالمصادفة في خطر، فلن أجلس خانعة بانتظار معجزة. قد أعود هنا أشلاء».

«أفهمك».

تنهدت. «كلما فكرت أكثر، صعب عليَّ تخيل النجاة حتى لو لبضع رحلات في مكان مثل ذاك. احتمالات الحوادث كبيرة».

«لا تفكري هكذا! أسلافك عاشوا ونجوا في ذاك الزمان بقدرات أقل مما تملكين. لا ينقصك شيء عنهم».

«بل أنقص عنهم بشكل ما».

«بأي شكل؟».

«لا أملك قوتهم وجلَدهم. اضطر أسلافي إلى تحمل أكثر مما أستطيع تحمله كي ينجوا. تفهمني؟».

«لا، لا أفهم» رد منزعجًا «تفكيرك انتحاري، عليك بالحذر».

«ولكني فعلًا أمام حالة انتحارية يا كيفن، أو أسوأ. فمثلًا لو أني استخدمت المطواة ضد رجل الدورية ليلة الأمس لو كانت معي، لكنت قتلته. وبذلك أنجو من الخطر وقتها، لكن لو قبض عليَّ رجال الدورية، لقتلوني. وإن لم يجدوني لذهبوا إلى أم آليس. بل ربما عادوا إليها فعلًا. فإما أن أُقتل أو أتسبب في مقتل شخص آخر».

«ولكن رجل الدورية كان يحاول..» توقف ونظر إليَّ، «فهمت».

«طيب».

حل صمت طويل بيننا. ثم سحبني قربه «هل أشبه ذلك الرجل فعلًا؟».

«لا».

«هل أبدو كشخص تريدين العودة إليه من أي مكان آخر؟».

«أحتاجك هنا حتى أعود إليك. هذا ما أؤمن به».

حدق إليَّ للحظات. «يجب أن تعودي» قال، «أنا أيضًا أحتاجك هنا».

السقوط

١

كان مثلي، يشعر بالوحدة والغربة، عندما التقيته لأول مرة، لكن أسلوبه في التعامل مع الواقع أحسن مني، على الأقل وقتها. ربما لأنه كان على وشك بدء حياة جديدة.

كنت أعتمد على مكتب التوظيف للحصول على وظائف مؤقتة، نسميه «سوق العبيد»، رغم أنه على العكس تمامًا من سوق العبيد؛ المسؤولون عنه لا يكترثون إن غاب أحد منا عن الوظائف العابرة التي يلقون بها إلينا. إن أردت لفت انتباههم، فعليك الوصول في السادسة صباحًا للتوقيع ثم الانتظار لساعات حتى يتكرمون عليك بمهمة. الانتظار في صالة إلى جانب سكارى كل أملهم شراء المزيد من الكحول، وأمهات فقيرات يأملن سد ما ينقص أطفالهن بعد نفاد المعونة الشهرية، أولاد يبحثون عن أول وظيفة، مسنون اعتادوا فصلهم عن العمل مع نهاية كل موسم، وامرأة فقدت عقلها تحدِّث نفسها بصوت عالٍ. الأكيد

أنها لن تحصل على أي وظيفة مهما فعلت لأنها ترتدي فردة حذاء واحدة.

يستمر جلوسك حتى يأتيك موظف منهم يرسلك في يومية عمل أو يصرفك إلى البيت. البيت يعني أنك ستنام بلا نقود. تضع بطاطة أخرى في جوف الفرن. أو -مضطرًّا- قد تبيع دمك أمام إحدى المحلات القريبة من مكتب التوظيف. سبق وفعلتها مرة.

إن أرسلوك في يومية فسيتكَّون أجرك من الحد الأدنى للأجور مضروبًا في عدد ساعات العمل، ثم اخصم منها ما سيقتطعه العم سام كحصة له. تهلك نفسك في مسح البلاط وتعبئة الظروف أو عد السلع وغسيل الصحون وتصنيف أنواع البطاطس (جد، لا أمزح!) وتنظيف الحمامات أو تسعير العلب... مهما كان العمل الذي سيرسلونك لإنجازه فعليك أن تنجزه. أنواع من الشغل لا تتطلب التفكير، وبالنسبة إلى أصحاب البزنس، فإن من ينجزها أيضًا يجب ألا يفكر. مجرد آلات يستأجرونها لساعات أو أيام أو أسابيع قليلة، كما يحلو لهم.

كنت أنجز المهمة وأعود إلى البيت وأنام لساعات قليلة لأستيقظ باكرًا للكتابة. في الساعة الواحدة أو الثانية صباحًا أكون قد استيقظت وصحصحت لأنكب على العمل في روايتي. خلال اليوم، أحمل معي علبة من الحبوب المنبهة تساعدني على الاستمرار. أول مرة كلمني فيها كيفن، قال: «لِمَ تتحركين كالزومبي؟».

كان موظفًا في مخزن لقطع السيارات عندما أرسلني مكتب

التوظيف وآخرين لاستكمال الجرد السنوي في المخزن. أتحرك بين رفوف مليئة بالإطارات واللمبات والصحون والصواميل وقطع أخرى لم أرها من قبل، بينما أتابع الآخرين من العاملين. يبدو أني كنت مميزة جدًّا في التزامي بالتوقيت والقدرة على العد! فقد قرر المسؤول أن يعينني مراقبة على الآخرين. لا ألومه، كان الواحد منهم يصل إلى العمل بعد ليلة ثقيلة من الشرب فيضع خمس قطع في صندوق واضح أنه يحتوي على خمسين قطعة.

«زومبي؟» قلت، رافعة رأسي عن صينية مليئة بالأسلاك السوداء.

«وكأنك تسيرين نائمة طوال النهار» قال، «هل تتعاطين شيئًا؟».

كان يعمل في صفِّ القطع أو وظيفة أخرى حقيرة. لا سلطة له عليَّ، لذا لا أدين له بأي إجابة.

«أقوم بعملي» قلت بهدوء، ثم عدت إلى الأسلاك أعدها وأصحح ورقة الجرد، أوقع عليها، وأنتقل للعمل على رفٍّ جديد.

«باز أخبرني أنكِ كاتبة» فاجأني صوته بعدما ظننت أنه اختفى.

«اسمع، لا يمكنني العد إذا استمررت في مقاطعتي» سحبت صينية مليئة بالبراغي الكبيرة، ٢٥ في كل علبة.

«طيب خذي استراحة».

«ألم ترَ ذاك الرجل الذي طردوه بالأمس؟ استراح أكثر من اللازم. للأسف أحتاج إلى هذه الوظيفة».

«أصحيح أنك كاتبة؟».

«أنا مجرد مزحة بالنسبة إلى باز. يعتبر باز أي شخص يقرأ كتبًا غريب أطوار. وحتى...» قلت بمرارة، «لو كنت كاتبة، فما الذي أفعله هنا في سوق العبيد؟».

«كاتبة تدفع الإيجار وتشتري الهمبرغر. الأسباب ذاتها التي جاءت بي إلى هنا».

ركزت قليلًا أحاول النظر إليه. كان رجلًا أبيض ذا هيئة مختلفة، وجهه شاب ناعم، لكن شعره أبيض وعيونه باهتة لا يبدو منها أي لون. ذو عضلات، بِنيته جيدة، لكنه لم يكن أطول مني، ١٧٢ سم على الأكثر، عيوننا تلتقي في نقطة ما. أشحت بنظري بعيدًا، كأني قد لمحت غضبًا ما في عينيه. يا ترى هل لديه سلطة أعلى في المخزن؟

«ماذا عنك؟ هل أنت كاتب؟».

«نعم، صرت كاتبًا الآن» قال وابتسم، «بعت كتابي مؤخراً. سأترك هذه الوظيفة إلى الأبد يوم الجمعة».

نظرت إليه بنظرة حسد وانزعاج. «مبروك».

«اسمعي» قال، «ستبدأ استراحة الغداء بعد قليل. لنأكل معًا، حدثيني عن كتابتك».

ثم اختفى. لم أجبه بنعم أو لا ولكنه اختفى.

«هيه...» همس صوت من خلفي. باز. المهرج من مكتب التوظيف، حينما لا يكون سكران. يجعله النبيذ في حالة من التجلي،

يجلس ويبحلق، يبدو كالأهبل، لكنه ليس بالأهبل. يصرف كل أجرته على الخمرة، يرتدي الثياب نفسها ولا يستحم أبدًا. «هيه... هل ستجتمعان وتؤلفان الكتب معًا؟» سأل ساخرًا.

«ابتعد من هنا» قلت محاولة حبس أنفاسي بقدر الإمكان.

«تكتبان قصصًا إباحية عن الفقر معًا» قال وذهب ضاحكًا.

لاحقًا، على إحدى الطاولات المعدنية الصدئة في زاوية من المخزن يستخدمونها لاستراحة الغداء، تعرفت إلى صديقي الجديد الكاتب كيفن. كيفن فرانكلِن، كان اسمه، الذي لم ينجح في بيع روايته فحسب بل إنه تحصَّل على مبلغ كبير مقابل طبعة شعبية جديدة. سيعيش بالمبلغ بينما يكتب روايته الجديدة. سيتخلص من هذه الوظيفة إلى الأبد... لنأمل.

«لماذا لا تأكلين؟» قال بين جملتين. كان المخزن في جزء صناعي جديد من كامبتون، بعيد كفاية عن المقاهي وبائعي الهوت دوغ كي يصعب علينا الخروج خلال استراحة الغداء. يجلب البعض وجباتهم. آخرون يشترونها من العربة. إلا أنا، فأكتفي بشرب المزيد من القهوة التي يوفرها المخزن للجميع مجانًا.

«أتبع حمية» قلت.

نظر إليَّ للحظة، ثم نهض وأشار إليَّ «تعالي».

«إلى أين؟».

«إلى العربة إن لم ترحل بعد».

«لا، انتظر، لا تتعب نفسك...».

«اسمعي، سبق واتبعت حميتك هذه».

«أنا على ما يرام» كذبت محرجة. «لا أريد شيئًا».

تركني في مقعدي وذهب إلى العربة وعاد ببرغر وحليب وفطيرة تفاح.

«كلي» قال، «لستُ غنيًّا بعد كي أخسر مالي، كلي».

تفاجأت بنفسي أأكل. لم أنوِ ذلك في البداية. كنت سأعيش على الكافيين فأخسره ماله. حاولت تحذيره من تبذير نقوده، لكن ها أنا أأكل الآن!

مر باز بالقرب منا. «هيه» قال بصوت منخفض، «أدب إباحي!» واستمر في طريقه.

«ماذا؟» قال كيفن.

«لا تهتم» قلت، «مجنون» ثم «شكرًا على الغداء».

«عفوًا. الآن أخبريني ماذا تكتبين؟».

«قصص قصيرة حتى الآن. ولكني أعمل على رواية».

«طبيعي. هل بعت أيًّا من قصصك؟».

«البعض. مجلات صغيرة لم يسمع بها أحد. من النوع الذي يدفع لك نسخًا مقابل القصة».

هزَّ رأسه «ستموتين جوعًا».

«لا. بعد فترة، سأقنع نفسي أن خالي وزوجته على حق».

«بخصوص؟ كان عليك العمل كمحاسبة؟».

تفاجأت بنفسي أضحك بصوت عالٍ. يبدو أن الأكل أعاد إليَّ الحياة. «لم يفكروا بالمحاسبة» قلت، «أظن أن المحاسبة ستعجبهم لو اخترتها. قرار حكيم حسب كلامهم. يريدونني أن أعمل ممرضة أو سكرتيرة أو معلمة مثل أمي. طبعًا أقصى طموحهم المعلمة».

«نعم» تنهَّد، «توقعوا مني أن أصبح مهندسًا».

«المهندس أحسن على الأقل».

«بالنسبة إليهم».

«المهم أنك الآن أثبتَّ أنك على حق».

اكتفى بهز كتفيه دون أن يخبرني ما عرفته لاحقًا، بأنه مثلي يتيم. توفي والداه منذ سنوات في حادث سيارة بينما ينتظران له أن يعقل ويصبح مهندسًا.

«تقول زوجة خالي إن بإمكاني الكتابة في وقت الفراغ» قلت، «وأن عليَّ اختيار مهنة مفيدة إن أردت الحصول على دعم مادي منهم للالتحاق بالجامعة. درست التمريض ثم انتقلت إلى السكرتارية ثم التربية. كل ذلك في غضون عامين. أسوأ عامين. لم أفلح في أيٍّ من التخصصات».

«ماذا فعلتِ؟» قال، «توقفت عن حضور الفصول؟».

غصصت بقطعة من شطيرة التفاح. «طبعًا لا. حصلت على

درجات جيدة لكني لم أكترث لأيٍّ من هذه التخصصات. حصلت على وظيفة وانتقلت إلى هنا. أحيانًا أسجل في صفوف مكثفة في جامعة لوس آنجلس، بعدما أكون قد وفرت مبلغًا ما لتغطية رسوم التسجيل».

«وهذا المخزن هو وظيفتك التي انتقلت من أجلها؟».

«لا، كنت أعمل في شركة للفضاء الجوي. مجرد سكرتيرة تعمل على آلة كاتبة طوال اليوم لكني شققت طريقي إلى مكتبهم الإعلامي، أكتب مقالات لجريدة الشركة وبياناتهم الصحفية. كانوا سعيدين بقراءة ما كتبت المرة الأولى، خاصة أني كاتبة صحفية بسعر سكرتيرة!».

«كان بإمكانك البقاء والحصول على راتب أفضل؟».

«هكذا كانت الخطة في البداية، لكن مهام السكرتارية باتت تقتلني، بعدها بعام قرروا التخلي عن القسم بأكمله».

ضحك كيفن ضحكة تعاطف.

عاد باز مرة أخرى بعدما ملأ كوبه بالقهوة ثانية، تمتم «إباحي بالشوكولاتة والفانيلا».

أغمضت عينيَّ بغيظ. لا جديد من باز، يبدأ نكتة سخيفة ثم يظل يضربها من كل صوب حتى الموت. «يا الله، أتمنى لو أنه جاء سكران اليوم كي يخرس».

«هل يخرسه السُّكْر؟».

أومأت. «فقط الخمرة تخرسه».

«سمعت ما قاله هذه المرة».

دق الجرس معلنًا نهاية استراحة النصف ساعة، ابتسم كيفن، ابتسامة تزيح عنه تلك النظرة الغاضبة في عينيه. نهض ومشى.

لكنه عاد. عاد كل يوم من الأسبوع مع استراحة الغداء. كان المبلغ الذي تحصلته من مكتب التوظيف يكفي لشراء غدائي بنفسي -وأعطي صاحبة البيت بضع دولارات- لكني كنت أترقب موعد الغداء حتى ألتقيه وأتحدث معه. أخبرني أنه قد نشر ثلاث روايات وأنه لم يلتقِ أي أحد قد قرأ رواياته سوى أفراد عائلته. لم تبع رواياته كثيرًا فصار يعمل من وظيفة إلى أخرى من نوع وظيفته الآن في المخزن، مستمرًّا في الكتابة رغم نصائح الراشدين. يشبهني هذا الـ«كيفن»، له روح طيبة ومجنونة بما يكفي ليحاول ويغامر. والآن أخيرًا...

«بل إني أكثر جنونًا منك» قال، «فأنا أكبر سنًّا، كبير كفاية لتمييز الفشل والتوقف عن الحلم، على الأقل حسب ما سمعت».

لم يكن شعره الأبيض يدلل على عمره، فهو في الرابعة والثلاثين من عمره. تفاجأ حين أخبرته أني في سن الثانية والعشرين فقط.

«تبدين أكبر من سنك» قال بتهور.

«وأنت!» تمتمت.

ضحك. «أعتذر. تبدين في أبهى صورة بغض النظر».

لم أفهم أي صورة يقصد لكني كنت سعيدة أنها قد أعجبته. فجأة صرت أكترث لما يحب ولا يحب. أخبرتني امرأة من مكتب التوظيف -بفظاظة معتادة في سوق العبيد هذا- أننا الرفيقان الأغرب على الإطلاق!

كررت من بعدها «على الإطلاق!» وأردفت بأن أمرنا لا يخصها. ولكن من وقتها صرت أفكر فيَّ وفي كيفن باعتبارنا رفيقين، وكنت أسعد بالفكرة.

انتهت مهمتي في المخزن في اليوم الأخير من عمله. منحنا الخطّابة باز هذا الأسبوع لنقضيه معًا.

«اسمعي» قال كيفن في اليوم الأخير، «هل تحبين المسرح؟».

«المسرح؟ نعم. كتبت مسرحيات أيام الثانوية. مونودراما. كانت تعيسة».

«كلنا نسلك الطريق ذاتها» أجاب ضاحكًا، ثم أخرج من جيبه ورقة. تذاكر. تذكرتان لحضور مسرحية جديدة في لوس آنجلس. شعرت بعينيَّ تلمعان.

«لا أريد أن نتوقف عن اللقاء فقط لأننا لا نعمل معًا» قال، «مساء الغد؟».

«مساء الغد» قلت موافقة.

كانت أمسية جميلة. عاد معي إلى البيت بعد المسرحية فصارت الليلة أجمل. في الساعات الباكرة من الصباح التالي بينما نستلقي في

سريري، منهكين وسعيدين، أدركت أني لم أعرف عن الوحدة إلا القليل، بل أقل حتى مما تخيلت حين ودعني يومها.

٢

قررت ألا أذهب مع كيفن إلى المكتبة للبحث عن صكوك حرية ممكن تقليدها. خشيت أن يستدعيني روفوس ونحن في السيارة مثلًا. هل سأصل إلى زمنه بينما لا زلت أتحرك بسرعة سيارة بعدما تكون قد اختفت، أو هل سأصل سالمة ثم أفشل في الرجوع إلى بيتي لأن بيتي في هذه الحالة قد يكون الطريق السريع أو شارعًا مزدحمًا بالسيارات؟

لم أود المغامرة. لذا بينما يستعد كيفن للذهاب إلى المكتبة، جلست في السرير، بكامل ملابسي، أجهز حقيبتي. وضعت مشطًا وفرشاة وقطعة صابون. كم أخشى أن أقضي وقتًا أطول هذه المرة في زمان روفوس. رحلتي الأولى استمرت دقائق فقط والثانية لساعات. ماذا بعد؟ أيام؟

دخل كيفن ليخبرني أنه ذاهب. تمنيت لو بقي معي لكن التشكّي طوال الصباح لم ينفع معه. احتفظت بمخاوفي أو هكذا أظن.

«ستكونين بخير؟» قال، «لا تبدين كذلك».

كنت قد رأيت نفسي في المرآة للمرة الأولى منذ حادثة الضرب، لم أبدُ على ما يرام. فتحت فمي أطمئنه لكن قبل خروج الكلمات داهمني شعور غريب. بدأت الغرفة تدور وتظلم من حولي.

«آه، لا» صرخت. أغمضت عيني أجابه شعور الدوار والغثيان ثم حضنت حقيبتي أنتظر.

فجأة وجدت كيفن يتمسك بي، حاولت دفعه عني، خفت عليه لا أعلم لماذا. صرخت أطلب منه أن يُفلتني.

اختفى السرير من تحتي واختفت الجدران. وجدتني مستلقية على الأرض تحت شجرة بجانبي كيفن ممسكًا بي. الحقيبة القماشية بيننا.

«يا إلهي» قلت أَهمُّ بالجلوس. إلى جانبي يعتدل كيفن، عيناه تتسعان بفعل الصدمة. ها نحن بين الأشجار، خلال النهار هذه المرة. لم يتغير المكان عن زيارتي الأولى باستثناء النهر لا ألمحه في الجوار.

«حدث فعلًا!» قال كيفن، «حقيقي!».

أخذت بيده أشد عليها، سعيدة بهذه الألفة، وفي ذات الوقت أتمنى لو أنه بقي في البيت. في هذا المكان، على الأغلب سيوفر لي حماية أفضل من صكوك الحرية لكنني لم أُرد له أن يأتي إلى هنا. لم أرد لهذا المكان أن يلامسه إلا من خلالي. أمنياتي لا معنى لها الآن.

استكشفت المكان بنظرة مطولة بحثًا عن روفوس لأني متأكدة أنه على مقربة. وجدته. بمجرد أن وقع نظري عليه عرفت أني قد وصلت متأخرة هذه المرة.

كان مستلقيًا على الأرض، متكورًا جسده ويداه تتمسكان بساقه. إلى جانبه ولد آخر، أسود، لربما في الثانية عشرة من عمره. روفوس مشغول بساقه لكن الولد انتبه إلى وجودنا. بل إنه قد يكون لمح لحظة ظهورنا المفاجئ لأن تعابير الخوف بانت على وجهه.

نهضت واتجهت نحو روفوس. في البدء لم يلمحني. يتلوى وجهه بفعل الألم، ملطخ بالطين والدموع، لكنه لم يبكِ بصوت مسموع. بدا لي في مثل عمر الصبي الأسود.

«روفوس».

التفت نحوي مصدومًا «دانة؟».

«نعم» استغربت أنه استطاع تمييزي رغم السنين التي مرت عليه.

«رأيتك ثانية» قال، «كنت مستلقية في سرير، رأيتك في اللحظة التي سقطت فيها، رأيتك».

«بل إنك فعلت أكثر مما رأيت» قلت.

«سقطت. وساقي...».

«من أنت؟» قال الصبي الآخر.

«لا تقلق يا نايجل» قال روفوس، «إنها المرأة التي أخبرتك عنها. التي قامت بإطفاء الحريق المرة الماضية».

نظر نايجل إليَّ ثم إلى روفوس. «هل بإمكانها علاج ساقك؟».

التفت نحوي روفوس بنظرة تساؤل.

«أشك في ذلك» قلت، «لكن دعني أرى». أبعدت يديه عن الساق بكل رفق ثم جررت بنطاله إلى الأسفل. بدت ساقه شاحبة ومتورمة. «هل بإمكانك تحريك أصابعك؟» سألته.

حاول وبالكاد استطاع تحريك إصبعين.

«انكسرت» قال كيفن، وتقدم ليتفحصها عن قرب.

«يبدو ذلك» التفت إلى الصبي الآخر، نايجل. «من أين وقع؟».

«هناك» قال الصبي مشيرًا إلى الأعلى باتجاه شجرة شاهقة فوقنا يتفرع منها غصن طويل مكسور.

«هل تعرف بيته؟» سألته.

«أكيد. أعيش هناك».

استوعبت أن الصبي عبدٌ على الأرجح، تملكه عائلة روفوس.

«طريقة كلامك فعلًا غريبة» قال نايجل.

«هذا رأيك» قلت، «اسمع لو يهمك أمر روفوس اذهب وأخبر والده أن يرسل عربة إلى هنا، فلن يكون بإمكانه التحرك».

«أو ليتكئ عليَّ فأعود به إلى هناك».

«لا. الطريقة الأمثل أن يستلقي على ظهره ويتم نقله، هكذا نخفف عنه الألم. أخبر والد روفوس أن روفوس قد كُسرت ساقه. وأن عليه الاتصال بالطبيب. سنبقى معه هنا حتى تأتي العربة».

«أنتِ؟» نظر إليَّ ثم إلى كيفن، لم يُخفِ تعابير الريبة عن وجهه. «لماذا ترتدين ثياب رجل؟» سألني.

«نايجل» قال كيفن بهدوء، «انسَ مظهرها الآن واذهب لجلب المساعدة لصديقك؟».

صديق؟

دُهِش نايجل يحدق إلى كيفن ثم ينظر إلى روفوس.

«اذهب يا نايجل» همس روفوس، «الألم مريع، قل له إني من أرسلك».

انطلق نايجل أخيرًا لكنه لم يكن مطمئنًا لأمرنا.

«ما الذي يخشاه» سألت روفوس، «هل سيكون في ورطة إن تركك وحدك؟».

«ممكن» أغمض روفوس عينيه للحظة من شدة الألم، «أو لأنه تركني أكسر ساقي. أتمنى لا. على حسب، إن كان بابا في مزاج سيئ اليوم».

يبدو أن بابا لم يتغير. لم أكن أتوق إلى رؤيته ثانية. على الأقل لن أضطر إلى لقائه وحيدة هذه المرة. نظرت إلى كيفن. جلس كيفن بالقرب من روفوس محاولًا تفحص ساقه.

«جيد أنه لم يكن يرتدي حذاء» قال، «لاضطروا إلى قطع قدمه».

«من تكون؟» سأله روفوس.

«اسمي كيفن. كيفن فرانكلن».

«هل تملك دانة الآن؟».

«بشكل ما» أجاب كيفن، «زوجتي».

«زوجتك؟» رد روفوس باستنكار.

تنهدت. «كيفن، أظن من الأفضل تغيير تعريفي. في هذا الزمان ...».

«النيجر لا يمكنهم الزواج بالبِيض» قال روفوس.

مددت يدي إلى كتف كيفن في اللحظة المناسبة قبل أن يتلفظ برد يورطنا. عرفت من تعبير وجهه أن أي كلام سيقوله سيضرنا الآن.

«تعلم الولد هذا الكلام من والديه» قلت، «وعلى الأرجح حتى من العبيد أنفسهم».

«أي كلام؟» سأل روفوس.

«عن النيجر» قلت، «أخبرتك أني لا أفضل هذه الكلمة، قل سوداء أو زنجية أو حتى ملونة».

«ما الفارق بين كل تلك الكلمات؟ وكيف لك أن تكوني زوجته؟».

«روف، كيف ستشعر لو لقَّبَك أحدهم بالحثالة البيضاء مثلًا؟».

«ماذا!» فار وجهه بالغضب وانتصب جسده متناسيًا ساقه المكسورة ثم انهار ثانية. «لست بحثالة» قال، «لعنة عليك يا... يا...».

«صه يا روف». وضعت يدي على كتفه أحاول تهدئته. يبدو أني أعرف كيف أستفزه. «لم أقل إنك حثالة. بل سألت كيف ستشعر لو لُقِّبتَ بذلك. واضح أن الكلمة لم تعجبك. وأنا أيضًا لا أحبذ كلمة نيجر».

صمت قليلًا بوجه متجهم وكأني تحدثت معه بلغة أجنبية، على الأرجح أنها كذلك.

«في المكان الذي جئنا منه كلمة نيجر تعد إهانة، وفي ذاك المكان بإمكان السود والبيض أن يتزاوجوا».

«ولكن ذلك مخالف للقانون».

«هنا. ولكن هناك قانوني».

«من أين جئتم؟».

نظرت إلى كيفن.

«يبدو أنك تريد إجابة» أجاب كيفن.

«هل ستحاول معه؟» سألتُ كيفن.

هز رأسه «لا نفعَ من ذلك».

«بالنسبة إليك ربما. ولكن بالنسبة إليَّ» فكرت للحظة أحاول إيجاد الكلمات المناسبة، «بغض النظر أنا وهذا الولد يربطنا تاريخ. أريد له أن يعرف».

«بالتوفيق».

«من أين أنتم؟» كرر روفوس، «بالتأكيد أنتم لا تتحدثون مثلنا».

تجهمت وأنا أفكر وأهز رأسي. «روف، أريد إخبارك بكل شيء لكنك على الأرجح لن تفهم. ولا نحن نستطيع حقًّا أن نفهم ما يجري».

«لا أفهم» قال، «لا أفهم كيف أراكِ وأنتِ في مكان آخر، أو كيف تصلين إلى هنا. أشعر بألم شديد ولا أستطيع التفكير».

«لننتظر إذن حتى تتحسن...».

«قد تختفين ثانية إن انتظرنا حتى أتحسن. أخبريني يا دانة».

«طيب. سأحاول. هل سمعت من قبل بمكان اسمه كاليفورنيا؟».

«نعم. ذهب ابن عم أمي إلى هناك في سفينة».

حالفني الحظ! «جئنا من كاليفورنيا. ولكن كاليفورنيا مختلفة عن التي ذهب إليها ابن عم أمك، نحن من كاليفورنيا لم توجد بعد، من ١٩٧٦».

«١٩٧٦؟».

«أقصد أننا نأتي من زمان آخر ومكان آخر. قلت لك إنك لن تفهم».

«ولكن ما هو الـ١٩٧٦؟».

«العام ١٩٧٦. العام الذي نعيشه حينما نكون في البيت».

«لكننا في العام ١٨١٩. في كل مكانٍ التاريخ لا يتغير، ١٨١٩. هذا جنون!».

«بلا شك. ما يحدث لنا جنون. لكنها الحقيقة. نأتي من مكان وزمان في المستقبل. لا أعرف كيف يحصل ذلك. لا نريد أن نأتي إلى هنا. لا ننتمي إلى هذا الزمان. ولكن في كل مرة تقع أنت فيها في ورطة، بشكل ما تقوم باستدعائي وأجد نفسي هنا. على الرغم من أني لا أستطيع دومًا مساعدتك كما ترى». كان بإمكاني إخباره عن رابط الدم بيننا. ربما سأقوم بذلك لو التقيته ثانية وهو في عمر متقدم. ولكن هذا يكفي الآن، فقد صدمته كفاية.

«هذا جنون!» كرَّر ثانية، نظر إلى كيفن «أخبرني، هل أنت من كاليفورنيا؟».

هز كيفن رأسه «نعم».

«هل أنت إسباني؟ كاليفورنيا إسبانية».

«نعم الآن، ولكنها ستصبح جزءًا من الولايات المتحدة لاحقًا، مثل ميريلاند وبنسلفانيا».

«متى؟».

«١٨٥٠».

«ولكننا في ١٨١٩. كيف لك أن تعرف؟» صمت ينظر إلينا مدهوشًا، «لا أصدق» قال، «هذي تخاريفكم».

«بل حقيقة» رد كيفن بهدوء.

«كيف؟».

«لا نعرف. ولكن هذا ما يحدث».

ظلت عيناه تتأرجح بيننا مدهوشة، «لا أصدق» قال.

ضحك كيفن نصف ضحكة «لا ألومك».

تنهدت «طيب يا روف. على أي حال أردت أن تعرف الحقيقة، لكني لا ألومك، الأمر صعب التصديق».

«١٩٧٦» قال الولد ببطء. يهز رأسه ويغمض عينيه. أتساءل لماذا حاولت إقناعه. بالأخير، هل كنت سأصدق رجلًا يظهر أمامي ويخبرني بأنه من العام ١٨١٩ أو حتى ٢٠١٩. آلة الزمن فكرة خيالية تظهر في ١٩٧٦. ولكنها في ١٨١٩ مجرد جنون. لا أظن أن أحدًا كان ليستمع لشروحاتنا هذي إلا لو كان طفلًا.

«إن كنتم تعرفون أن كاليفورنيا ستصبح ولاية» قال روفوس، «فعلى الأرجح أنكم تعلمون أمورًا أخرى».

«نعم» أجبت، «بعض الأمور، فلسنا بمؤرِّخَيْنِ».

«أليس من المفترض أن تعرفوا كل شيء إن كان ماضيًا في حياتكم؟».

«كم تعرف عن ١٧١٩ يا روف؟».

حدق إليَّ بلا تعبير.

«الناس لا يعرفون كل شيء عن الأزمان التي سبقتهم يا روفوس» قلت، «لِمَ تعتقد ذلك؟».

تنهد. «دانة أخبريني بالمزيد، أريد تصديقك».

بدأت أستدعي ما أعرفه عن التاريخ الأمريكي في المدرسة أو من الكتب. «طيب إذا كنا الآن في العام ١٨١٩ فهو زمن الرئيس مونرو».

«نعم».

«الرئيس القادم سيكون جون كوينسي آدمز».

«متى؟».

حاولت تذكر قائمة الرؤساء التي كنت قد حفظتها بلا داعٍ وأنا طالبة «في العام ١٨٢٥. مونرو حكم -أو سيحكم- لفترتين».

«وماذا أيضًا؟».

التفتُّ إلى كيفن.

هز كتفيه ثم قال: «كل ما أتذكره من تلك الكتب التي قرأناها البارحة أن في العام ١٨٢٠ ستُوقَّع تسوية ميسوري، التي ستجعل ولاية ماين من الولايات الحُرة، بينما تنضم ميسوري باعتبارها الولاية الشمالية الوحيدة إلى ولايات العبودية. هل فهمت؟».

«لا يا سيدي».

«لم أظن ذلك. هل معك نقود؟».

«نقود؟ أنا؟ لا».

«ولكنك رأيت نقودًا من قبل؟».

«نعم يا سيدي».

«والنقود مطبوعة في عام الإصدار صح؟».

«صح».

سحب كيفن محفظته ليخرج منها بعض نقود معدنية. مد بيده إلى روفوس وألتقط روفوس بعضًا منها. بدأ روفوس يقرأ: «١٩٦٥، ١٩٦٧، ١٩٧١، ١٩٧٠. ولكن ١٩٧٦ غير مكتوبة على أيٍّ منها؟».

«هل وجدت واحدة بسنة ١٨١٩؟» قال كيفن، «خذ هذه» التقط قطعة نقدية تذكارية أصدرت في ذكرى مرور قرنين على الاستقلال.

«١٧٧٦ و١٩٧٦» قال الولد، «عليها تاريخان».

«نعم سيبلغ عمر البلد قرنين في العام ١٩٧٦» قال كيفن، «قاموا بتغيير بعض العملات في ذكرى الاستقلال، هل اقتنعت الآن؟».

«ربما صنعتها بنفسك».

سحب كيفن يده. «قد لا تعرف ميسوري» قال منزعجًا، «لكنك بالتأكيد قد تكون ميسوريًّا مثاليًّا!».

«ها؟».

«مجرد مزحة. ليست دارجة بعد».

بدا على روفوس الانزعاج. «أصدقك، لا أفهم كيف كما قالت دانة، ولكني أصدقك».

تنهد كيفن «أخيرًا!».

نظر روفوس إلى كيفن وعلى وجهه ابتسامة «لا تبدو سيئًا كما تخيلتك».

«سيئ؟» نظر كيفن إليَّ بشك.

«لا تنظر إليَّ، لم أتحدث عنك» قلت.

«رأيتك» قال روفوس، «وأنت تصارع دانة قبل أن تصلا إلى هنا... أو هكذا بدا لي. هل تسببت لها بهذه الخدوش على وجهها؟».

«لا» قلت سريعًا، «ولم نكن نتخانق».

«لحظة» قال كيفن، «كيف يعرف ذلك؟».

«كما قال. سبق أن رآنا، لا أعرف كيف، لكنها ليست المرة الأولى» التفتُّ إلى روفوس.

«هل أخبرت أحدًا أنك رأيتنا؟».

«فقط نايجل. فلا أحد غيره سيصدقني».

«جيد. لا تخبر أحدًا عنا. ولا عن كاليفورنيا أو ١٩٧٦». أمسكت بيد كيفن، «علينا أن نتكيف مع الحياة هنا الآن بأي شكل حتى يحين وقت عودتنا. وذلك يعني أننا سنلعب الأدوار التي أعطيتنا إياها».

«بأنك مِلكه؟».

«نعم. هذا كل ما عليك قوله إن سألك أحدهم».

«أحسن من القول إنك زوجته، فلا أحد سيصدق ذلك».

بدا على كيفن شعور القرف «أود لو أعرف كم سنظل عالقين هنا» تمتم، «يبدو أن الحنين يداهمني مبكرًا».

«لا أعرف» قلت، «ولكن ابقَ قريبًا مني فقد جئتَ إلى هنا لأنك أمسكت بي. قد تكون تلك طريقك الوحيدة للعودة إلى البيت».

٣

وصل والد روفوس بعربة مفتوحة حاملًا بندقية الصيد الكلاسيكية الطويلة التي أعرفها. إلى جانبه جلس نايجل ورجل أسود ممشوق القامة. توم وايلن طويل أيضًا لكنه ليس برشاقة عبده الضخم. لم يبدُ على وايلن أنه شرير أو فاسد بالضرورة. كل ما يبدو عليه أنه منزعج. نهضنا عندما توقف بعربته هابطًا منها متوجهًا إلينا.

«ما الذي حدث هنا؟» قال بنبرة استجوابية.

«انكسرت ساق الولد» قال كيفن، «هل أنت والده؟».

«نعم، ومن تكون أنت؟».

«اسمي كيفن فرانكلن». التفت إليَّ ممتنعًا عن تقديمي. «صادفنا الصبيين وقت الحادثة وقررنا أن ننتظر مع ابنك حتى وصولك».

شخر وايلن وجثا على ركبته يتفحص ساق روفوس. «يبدو أنها بالفعل مكسورة. لا أعلم كم ستكلفني».

نظر الرجل الأسود إليه بنظرة احتقار، لو أن وايلن لمحه لثار عليه غضبًا.

«ماذا كنت تفعل فوق الشجرة؟» صرخ وايلن في وجه روفوس.

حدَّق روفوس إليه صامتًا.

تمتم روفوس بكلمات لم أفهمها. نهض وايلن وأشار بحدة إلى الرجل الأسود. تقدم الرجل وحمل روفوس برفق ثم وضعه في العربة. تلوَّى وجه روفوس من الألم في كل حركة، ثم صرخ لحظة وضعه في العربة. تمنيت لو أننا صنعنا جبيرة لساقه. لحقنا بالرجل الأسود إلى العربة.

أمسك روفوس بذراعي ولم يتركها، محاولًا منع نفسه من البكاء. يتضرع إليَّ بصوت مبحوح.

«لا تتركيني يا دانة».

لم أكن أنوي تركه. أستلطف الولد. مما قرأت عن الطب في بدايات القرن التاسع عشر، فإن علاج ساقه لن يتجاوز بعض الويسكي ورفعها بحبل. سيعيش أنواعًا جديدة من الألم. لو أستطيع توفير أي راحة له بوجودي فإني سأظل معه. لكني لا أستطيع.

تمتم والده ببضع كلمات لكيفن ثم تسلق العربة إلى مقعده. كان يستعد للانطلاق، لم يحاول حتى دعوتنا إلى بيته. ونعم الضيافة!

كان للناس في زمانه بحقولهم الواسعة وفنادقهم الكثيرة سمعة في استضافة الغرباء. ولكني لم أستغرب تصرف هذا الرجل وقد رأيت رد فعله على كسر ساق ابنه، فما بالك بالغريب.

«تعالوا معنا» توسل روفوس، «بابا، ليأتوا معنا».

التفت وايلن خلفه منزعجًا بينما أحاول فك قبضة روفوس عني. بعد لحظات، انتبهت إلى أن وايلن يتفحصني. قد يكون انتبه للشبه بيني وبين أم آليس. لا أظنه قادرًا على تذكري من تلك اللحظة الخاطفة قرب النهر عندما أوشك على قتلي. بادلته نظرة ثم أشحت عنه بعدما تذكرت أن عليَّ التصرف كعبدة الآن. يخفض العبد رأسه بداعي الاحترام. قد يعتبر نظرتي تطاولًا عليه، أو هكذا فهمت من الكتب.

«تعالوا معنا وشاركونا العشاء» قال وايلن لكيفن، «لمَ لا؟ أين كنت ستنام الليلة على أي حال؟».

«تحت الأشجار لو لزم الحال» قال كيفن. تسلقنا العربة وجلسنا إلى جانب نايجل الصامت. «الخيارات قليلة كما تعرف».

نظرت إلى نايجل أتساءل إن كان قد أخبر وايلن بكل التفاصيل. تمسكت بالعربة عندما أطلق الرجل الأسود حصانيها للحركة.

«أنتِ يا بنت» قال وايلن، «ما اسمك؟».

«دانة يا سيدي».

التفت ثانية وحدق إليَّ، هذه المرة بنظرة ريبة. «من أين أتيتِ؟».

نظرت إلى كيفن، حتى لا أناقض أجوبته. أومأ برأسه وكأنه يعطيني تصريحًا لأختلق أكاذيبي. «أنا من نيويورك».

صارت نظرته قبيحة الآن. فكرت إن كان قد سمع لكنة نيويوركية من قبل ولم يقتنع بإجابتي. أم أني أخطأت بكلمة؟ لم أقل أكثر من عشر كلمات على بعض. كيف لي أن أخطئ؟

التفت وايلن إلى كيفن يتفحصه بحدة ثم استقام في مقعده متجاهلًا وجودنا حتى وصولنا.

عبرنا بين الأشجار إلى الطريق الرئيسي، تجاوزنا حقلًا من القمح الذهبي. في الحقل يعمل العبيد، أغلبهم من الرجال، يؤرجحون مناجلهم بثبات ليقطعوا عيدان القمح، ثم يكدسونها في أكوام. من خلفهم عبيد آخرون، أغلبهم نساء، يضمون أعواد القمح معًا على شكل حزم. لم يلتفت أحدهم إلينا. حاولت البحث عن مراقب أبيض عليهم لكنني تفاجأت بعدم وجود أحد. وبيت آل وايلن فاجأني أيضًا في ضوء النهار، فلم يكن أبيض كما ظننت ولم يكن ذا أعمدة أو شرفة. وكأن البيت خيَّب ظني. بُني بالطوب الأحمر، من طراز المعمار الجورجي، مكعبًا أكثر مما يجب ولكنه لطيف إلى حد ما، يتكون من طابقين ونصف، بنوافذ بارزة عن سقفه المائل، ذو مدخنة على كل من الجانبين الشرقي والغربي. لم يكن كبيرًا أو مهيبًا بما يكفي ليكون بيت العزبة. حتى في وقتنا في لوس آنجلس، بإمكاننا أنا وكيفن شراء بيت مثله.

وصلت العربة أمام عتبة البيت، لمحت النهر على الجانب الآخر

وجزءًا من الحقل الذي ركضت فيه قبل ساعات قليلة أو سنوات قليلة. رأيت الأشجار المتفرقة، العشب الأخضر متفاوت الطول، صفًّا من الأكواخ بعيدًا بين الأشجار والحقول. لمحت مبانيَ أخرى إلى جانب البيت ومن خلفه على الضفة الأخرى أكواخ العبيد. عندما تتوقف بنا العربة، سيرسلون بي إلى إحداها.

«لوك» قال وايلن للرجل الأسود، «خذ دانة إلى الخلف وأعطها شيئًا لتأكله».

«حاضر يا سيدي» قال الرجل الأسود، «هل أحمل السيد روفوس إلى الطابق الأعلى؟».

«نفذ ما قلته. سآخذه أنا».

رأيت روفوس يكز على أسنانه. «سأراك لاحقًا» همست له، لكنه رفض ترك يدي حتى حدثت والده.

«سيد وايلن لا أمانع البقاء معه. يبدو أنه يريد أن أظل معه».

بدأ وايلن يحنق «طيب هيا، ابق معه حتى يصل الطبيب». حمل روفوس بلا حذر وصعد به إلى البيت بينما يتبعه كيفن.

«الحذرَ» قال الرجل الأسود برفق عندما هممت أن ألحق بهم.

نظرت إليه متفاجئة، لم أكن أعرف إن كان يخاطبني.

«السيد توم بإمكانه أن يُظهر شره في لحظة» قال، «والولد كذلك، خاصة أنه قد كبر الآن. يبدو من وجهك أنك قد شهدت ما يكفي من شر البيض».

هززت رأسي متفهمة «نعم، شكرًا على التحذير».

كان نايجل قد وقف إلى جانب الرجل، وبينما أحدثه لاحظت الشبه الكبير بينهما، وكأن الصبي نسخة مصغرة عن الآخر. شبه أقوى من الشبه بين روفوس ووايلن. وبينما أهرع فوق السلالم، صرت أفكر في روفوس، وأفكر كيف أنه سيصبح أبًا. من المحتم أن ذلك سيحدث يومًا ما بشكل ما. سيمتلك روفوس العزبة يومًا ما وسيصبح سيدًا على العبيد، مسؤولًا عمن يعيشون في هذه الأكواخ. الولد يكبر أمام عيني بل إنه يكبر لأنه تحت حمايتي. كيف لي أن أوفر له الحماية في مجتمع لا يعتبر السود بشرًا، امرأة ترعاه في مجتمع يعتبر النساء أطفالًا معمرين. بالكاد أستطيع حماية نفسي. لكني سأحاول أقصى جهدي. وسأحاول أن أكوِّن صداقة ما معه، عليَّ زرع بعض الأفكار في رأسه فقد تكون عونًا لي ولغيري من العبيد في السنوات القادمة. ومن يعلم فقد أكون سببًا في تسهيل حياة آليس.

التحقت بوايلن في غرفة في الطابق الأعلى مختلفة عن تلك التي كان فيها روفوس المرة الماضية. السرير أكبر، الستائر والشراشف زرقاء على عكس الخضراء القديمة. الغرفة أكبر. ألقى وايلن بروفوس على السرير متجاهلًا صرخات الولد. لم يبدُ عليه أنه يكترث لوجعه، كأنه ليس ابنه.

ولحظة أخذ وايلن كيفن إلى خارج الغرفة، ظهرت امرأة صهباء.

«أين الولد؟ أين هو؟» قالت وهي تلهث، «ما الذي حلَّ به؟».

إنها والدة روفوس. تذكرتها. ركضت إلى الغرفة في اللحظة التي كنت أضع فيها وسادة تحت رأس روفوس.

«ما الذي تفعلينه؟» صرخت، «اتركيه» جرَّتني بعيدًا عن الولد. يبدو أن الهلع هو رد فعلها الوحيد كلما وقع الولد في ورطة. ثابت وخاطئ.

لحسن الحظ أن وايلن تداركها قبل أن أنسى نفسي وأدفعها. أمسك بها يحاول مخاطبتها بهدوء.

«مارغريت، اسمعي، الولد كسر رجله، هذا كل ما في الأمر. ما الذي يمكنك فعله حيال ساق مكسورة. أرسلت إلى الطبيب أطلب منه المجيء فورًا».

بدأت مارغريت تهدأ قليلًا. التفتت نحوي بنظرة شزر «ما الذي جاء بها إلى هنا؟».

«إنها تعود للسيد كيفن فرانكلن» أشار وايلن بيده إلى كيفن الذي فاجأني بانحناءة رأسه تحية لها. «السيد فرانكلن له الفضل في العثور على روفوس بعد إصابته» قال وايلن، ثم أومأ بكتفيه «طلب روفوس أن تظل المرأة معه. لا ضرر من ذلك» ثم التفت وخرج من الغرفة، يتبعه كيفن بتردد.

لربما سمعت المرأة ما قاله زوجها لكن وجهها لا يعكس من كلامه شيئًا. ظلت تحملق إلى وجهي مقطبة جبينها وكأنها تحاول تذكر تلك المرة التي رأتني فيها. لم تغير السنوات الكثير فيها، كما

أنها لم تغير شيئًا فيَّ. لكنني لم أتوقع أنها ستتذكر، فالمرة التي رأتني فيها كانت خاطفة.

«رأيتك من قبل» قالت.

اللعنة! «نعم سيدتي، لربما» نظرت إلى روفوس فوجدته يتابع الحوار.

«ماما؟» نطق روفوس.

تلاشت نظرة الاتهام. التفتت المرأة سريعًا إلى ابنها. «حبيبي صغيري» همهمت وهي تأخذ برأسه بين يديها. «لا أعرف لِمَ تتبعك المخاطر في كل مكان. ها هي ساقك مكسورة الآن». بدت عيناها تترقرق بالدموع. وها هو روفوس يتراوح بين لامبالاة أبيه وهلع أمه. أتساءل إن كان قد اعتاد فرق المعاملة بينهما أم أنه يجده مرهقًا مثلي.

«ماما ممكن تعطيني ماء؟» طلب منها.

نظرت المرأة إليَّ وكأني أهنتها. «ألم تسمعيه؟ اجلبي له الماء!».

«حاضر سيدتي. من أين؟».

همهمت بانزعاج ثم همت تسير نحوي. أو هكذا ظننت للوهلة الأولى، قفزت بعيدًا عنها ثم رأيتها تذهب تجاه الباب الذي كنت أقف بالقرب منه.

تبعتها بنظري أهز رأسي ثم سحبت الكرسي القريب من المدخنة أضعه بجانب سرير روفوس. جلست بينما يتابعني روفوس بعينيه.

«هل كسرت ساقك من قبل؟» سألني.

«لا ولكني كسرت رسغي من قبل».

«وعند علاجه هل شعرت بالألم؟».

أخذت نفسًا عميقًا. «نعم».

«أنا خائف».

«كنت خائفة مثلك» قلت محاولة استدعاء ما حدث، «ولكن ياروف لن يستغرق الأمر الكثير من الوقت. وعندما ينتهي الطبيب ستكون قد انتهيت من المرحلة الأصعب».

«لكن الألم سيستمر؟».

«لفترة ما. لكن الساق ستتعافى. لو صبرت عليها بعض الوقت».

عادت مارغريت وايلن إلى الغرفة مسرعة وبيدها كوب ماء لروفوس والمزيد من العداء لا أعرف له سببًا.

«اذهبي إلى المطبخ ليعطوك بعض العشاء» أمرتني بينما كنت أبتعد عن طريقها. بدا من صوتها وكأنها تأمرني بالانصراف إلى الجحيم. شيء فيَّ يزعج هؤلاء القوم ما عدا روفوس. شيء أكثر من عرقي الأسود، فهم معتادون على السود من حولهم. لربما سيساعدني كيفن على معرفة ذلك.

«ماما هل ممكن أن تبقى؟» طلب روفوس.

نظرت المرأة إليَّ بقرف ثم التفتت بنظرة حانية نحو ابنها.

«ستعود لاحقًا» قالت، «والدك يريدها هناك الآن».

على الأغلب هي مَن أرادت أن أنزل إلى الطابق الأسفل ولا أرى سببًا آخر سوى أن الألفة بيني وبين ابنها قد ضايقتها. رمتني بنظرة أخرى فخرجت من الغرفة. لا أظن أني سأشعر بأي راحة معها حتى وإن استلطفتني. لديها طاقة رهيبة من الارتباك والعصبية مختزنة في جسد واحد ضئيل. لا أود التواجد في محيطها إن انفجرت في لحظة ما. ولكنها على الأقل تحب روفوس. ويبدو أنه اعتاد هلعها فلم يبدُ عليه الانزعاج. وجدت نفسي في ممر واسع. بإمكاني رؤية السلالم على بعد خطوات. سرت نحوها. من باب آخر في نهاية الممر ظهرت فتاة سوداء بفستان أزرق. سارت نحوي تحدق إليَّ بفضول. ترتدي وشاحًا أزرق على رأسها تشد عليه وهي تقترب مني.

«هلَّا أخبرتني عن مكان المطبخ لو سمحت؟» قلت عندما اقتربت مني كفاية. من الأفضل طرح السؤال عليها بدلًا من مارغريت وايلن.

اتسعت عيناها، يبدو أن صوتي بغرابة مظهري. «المطبخ؟» كررتُ.

نظرت إليَّ مرة أخرى ثم نزلت السلالم دون التفوه بكلمة. ترددت ثم لحقت بها. كانت بشرتها فاتحة ولها من العمر أربعة عشر أو خمسة عشر عامًا. عادت تنظر إليَّ باستغراب ثانية. توقفت لحظة تلتفت نحوي، تشد الوشاح إلى شعرها ثم تنزله لتغطي فمها. بدا أن شيئًا يؤرقها فسألتها:

«هل تستطيعين الكلام؟».

تنهدت، هزت رأسها بالنفي.

«لكن بإمكانك سماعي وفهمي».

أومأت برأسها إيجابًا ثم أشارت إلى بلوزتي وبنطالي بامتعاض. هل هذه المشكلة إذن؟ بالنسبة إليها وبالنسبة إلى آل وايلن؟

«ليس معي ملابس أخرى الآن» قلت، «سيشتري لي السيد ملابس أخرى قريبًا» ليكن كيفن سبب مظهري الرجالي. قد يسهل على الناس هنا تقبل فكرة سيد فقير أو بخيل على أن يتخيلوا زمنًا ترتدي فيه النساء البناطيل.

وكما لو أنها تريد لي بعض الهدوء، نظرت إليَّ بإشفاق وأخذت بيدي تقودني نحو المطبخ.

في طريقنا، أخذت أتفحص البيت أكثر، لاحظت الممر الكبير في الطابق السفلي. لون الجدران أخضر باهت ممتد حول البيت. المدخل الأمامي واسع ومشرق بضوء الشمس المشع عبر النوافذ المحيطة بالباب على جانبيه وأعلاه، مفروش بالسجاجيد الشرقية بأحجام مختلفة. قرب الباب الأمامي مقعد خشبي وكرسي وطاولتان صغيرتان. بعد تجاوز السلالم يضيق الممر وفي نهايته باب خلفي عبرنا منه.

في الخارج وجدنا بيت المطبخ، كوخًا مؤطرًا بالأبيض يقف بعيدًا خلف البيت الرئيسي. كنت قد قرأت عن المطابخ الخارجية

والحمامات الخارجية. لم أرد زيارة أيًّا منها. ولكن الآن قد يكون المطبخ الخارجي أكثر الأماكن لطفًا هنا. في الداخل جلس لوك ونايجل يأكلان من طاسات خشبية باستخدام ما تبدو كأنها ملاعق خشبية، على الأرضية يجلس طفلان، ولد وبنت، يأكلان بأصابعهما. أسعدني وجودهما فقد قرأت عن الأطفال في مثل عمريهما في هذه الفترة، وكيف كانوا يطعمونهم من المعالف كالخنازير. ربما لم يحدث ذلك في كل مكان، على الأقل ليس في هذا المكان.

أمام الموقد، وقفت امرأة متوسطة العمر ممتلئة الجسم تدِّور ملعقتها في إناء على النار. يحتل الموقد وحده جدارًا كاملًا. مصنوعًا من الطوب وفوقه لوح ضخم تتدلى منه أدوات طبخ عديدة. على الجانب، تتدلى أدوات أخرى من معاليق على الجدار. استوعبت أني لا أعرف أسماء هذه الأدوات، حتى في أمر بسيط مثل هذا، أخذت أتذكر أني بالفعل من عالم آخر.

انتهت الطباخة من تقليب ما في الإناء والتفتت تنظر إليَّ. كان لون بشرتها فاتحًا مثل دليلتي البكماء، امرأة وسيمة متوسطة العمر طويلة وممتلئة. تجهم وجهها، جانبا فمها متقوسان إلى الأسفل، لكن صوتها ناعم وهادئ.

«كاري» قالت، «من هذه؟».

التفتت دليلتي إليَّ.

«اسمي دانة» قلت، «سيدي في زيارة هنا. السيدة وايلن أخبرتني أن آتي إلى هنا من أجل بعض العشاء».

«السيدة وايلن؟» تجهم وجهها وهي تسألني.

«المرأة ذات الشعر الأحمر، أم روفوس» لم أكن منتبهة كفاية لأشير إليه بالسيد روفوس. لم أفهم لم عليَّ شرح المزيد، فكم سيدة وايلن متواجدة في هذا المكان على أي حال؟

«السيدة مارغريت» قالت المرأة، ثم همست لنفسها «الكلبة!».

تفاجأت بكلمتها ظنًّا أنها قصدتني.

«سارة!» صرخ لوك بنبرة تحذير. كيف له أن يسمع الطباخة من مكانه. إما أنها كثيرًا ما تكرر ذلك وإما أنه قرأ حركة شفاهها. المهم فهمت أن السيدة وايلن أو السيدة مارغريت هي المعنية بنعتة الكلبة.

لم تتفوه الطباخة بكلمة أخرى. أخذت طاسة خشبية ملأتها بما توفر من قدر بجانب إناء الطبخ ثم أعطتني إياها مع ملعقة خشبية.

كان العشاء عبارة عن عصيدة ذرة. لاحظت الطباخة أني أحدق إلى الطاسة فظنت أني أريد المزيد.

«تريدين المزيد؟» قالت.

«آه، لا، كثير!» أمسكت بالطاسة وكأني أتشبث بها، خوفًا من أن تسكب المزيد فيها. «شكرًا».

جلست على طرف طاولة ثقيلة وكبيرة مقابل نايجل ولوك. لاحظت أنهما يأكلان العصيدة نفسها، مضافًا إليها القليل من الحليب. فكرت بطلب بعض الحليب فوق العصيدة، لكني لم أظن بأن ذلك سيحسن من مذاقه.

جعلت أفكر بما يحتويه إناء الطبخ على النار فرائحته ذكرتني بأني لم أفطر اليوم، كما أني لم أتناول أكثر من لقمتين البارحة. شعرت بالجوع يأكلني ويبدو أن سارة تطبخ حساء باللحمة. التهمت لقمة من العصيدة الجالسة أمامي وابتلعتها متفادية تذوقها.

«الطعام الجيد يأتي لاحقًا بعدما ينتهي البِيض من أكلهم» قال لوك، «أي شيء يتبقى من وجبتهم نأكله».

بقايا الطاولة، تذكرت بمرارة. بقايا طعام آخرين. بلا شك لو أني بقيت هنا مطولًا فإني سأسعد لتناول البقايا. الأكيد أن البقايا أفضل من وجبة مغلية. غرفت العصيدة بالملعقة أدسها في فمي في حركة سريعة متواترة، بينما أنش الذباب بعيدًا عني. ذباب. هذا زمن تنتشر فيه الأوبئة والأمراض. تساءلت عن مدى نظافة بقايا الأكل التي ستصلنا.

«قلت إنكِ من نيويورك، صح؟» سأل لوك.

«نعم».

«ولاية حرة؟».

«نعم» أجبت ثانية، «لذلك جاءوا بي إلى هنا». الكلمات، الأسئلة، تذكرني بآليس وأمها. تفحصت وجه لوك الواسع وفكرت لو كان من المخاطرة السؤال عنهما. كيف لي أن أعترف بأني أعرفهما، أو عرفتهما منذ سنوات، إن كنت جديدة هنا؟ يعلم نايجل أني سبق لي المجيء هنا، لكن سارة ولوك لا يعلمان بعد. من الأفضل التريث والاحتفاظ بأسئلتي حتى أنفرد بروفوس ثانية.

«الناس في نيويورك يتحدثون هكذا؟» سأل نايجل.

«البعض منهم».

«ويلبسون هكذا؟» سأل لوك.

«لا، ما يعطيني إياه السيد كيفن أرتديه» تمنيت لو تتوقف أسئلتهما. لم أرد الاسترسال في أكاذيب قد أنساها لاحقًا. عليَّ تبسيط قصتي على قدر الإمكان.

اقتربت الطباخة مني تحدق إليَّ وإلى بنطالي. قرصت قماش البنطال تتلمسه. «أي نوع من القماش هذا؟» سألت.

بولي إستر ثنائي النسيج، فكرت. أومأت بكتفي «لا أعلم».

هزت رأسها وعادت إلى إناء الطبخ.

«على فكرة» قلت، «أتفق معك فيما يخص السيدة مارغريت».

لم ترد. استوعبت أن الحرارة التي شعرت بها عند دخولي المطبخ لم تتجاوز كونها حرارة نار الطبيخ.

«لكنك تتكلمين مثل البيض؟» سألني نايجل.

«لا أعرف» قلت متفاجئة، «هكذا بالفعل أتحدث».

«كأنك مثلهم أكثر منهم».

هززت كتفي باستسلام محاولة البحث عن تفسير أفضل. «كانت أمي تدرِّس في المدرسة» قلت، «و...».

«معلمة نيجر!».

أجفلت للحظة ثم هززت رأسي مؤكدة. «السود الأحرار لديهم مدارس. أمي تتحدث بالطريقة التي أحدثك بها، تعلمت منها».

«مشكلة» قال، «السيد توم لن يحبك. تتكلمين مثل شخص متعلم زيادة وجئت من ولاية حرة».

«ولم يهمه أي من ذلك، أنا لست ملكًا له».

ابتسم الولد. «لا يريد أي نيجر هنا يتحدث أفضل منه، ويزرع أفكار الحرية في رؤوسنا».

«وكأننا بحاجة إلى غريب يجعلنا نفكر في الحرية». تمتم لوك.

هززت رأسي بتفهم، لكني تمنيت أن يكونا على خطأ. لم أظن أني قلت ما يكفي لوايلن ليكوِّن عني انطباعًا. آمل ألا يتكوَّن عنده مثل هذا الانطباع. لم أُجِد تقليد اللكنات. قررت ألا أحاول تقليد لكنة ما أمامهم. ولكن إن كان ذلك يعني أني سأجد نفسي في ورطة في كل مرة أنطق فيها، فإن حياتي حتمًا ستكون أسوأ مما تخيلت.

«وكيف بإمكان السيد روفوس أن يكون قد التقاكِ إن لم تأتِ إلى هنا من قبل؟» سأل نايجل.

غصصت بلقمة من العصيدة. «لا أعلم» قلت، «ولكني بلا شك أتمنى لو لم...!».

٤

لم أترك المطبخ بعد انتهائي من الأكل، فالمطبخ أقرب الأماكن إلى البيت الرئيسي، فكرت أن بإمكاني العودة من المطبخ إلى مدخل البيت إن داهمني الدوار. أينما سيكون كيفن في البيت الرئيسي، فإنه سيسمعني لو ناديته.

انتهى لوك ونايجل من الأكل ثم توجها نحو الموقد لقول كلمة ما لسارة. لحظتها قامت البكماء كاري بدس بعض الخبز ولحم الخنزير المدخن أمامي. وبعدما أخذ نايجل ولوك سارة إلى خارج المطبخ، انقضضت آكل شبه السندويتشة متسائلة ما إذا كانت اللحمة مطبوخة كفاية. حاولت التفكير في شيء آخر، إلا أن عقلي مليء بقصص رعب عن الأوبئة والأمراض في هذه الحقبة التي كان الطب فيها أحسن من الشعوذة بقليل. في هذا الزمن، جاءت الملاريا من الهواء العفن، وكانت العمليات تُجرى على المرضى دون تخديرهم. وحتى الأطباء لم يكونوا قد عرفوا بعد أي شيء عن الجراثيم، بينما يدس الناس في أجسادهم كل أنواع الطعام غير المطبوخ ما يودي بهم إلى المرض أو الموت.

قصص رعب.

إلا أنها قصص حقيقية، وعليَّ الآن التعايش معها ما دمت في هذا المكان. لربما ما كان عليَّ أكل اللحم، لكنني إن لم آكلها، فسيكون البديل بقايا المائدة. عليَّ بالمجازفة قليلًا.

عادت سارة ومعها نايجل. أعطته قدرًا من البازيلاء ليقوم بتقشيرها. تستمر دورة الحياة من حولي وكأني غير موجودة. الناس تجيء وتذهب من المطبخ، كلهم سود، يتحدثون إلى سارة، يجلسون قليلًا، يأكلون ما يجدون حتى تبدأ سارة بنهرهم ليبتعدوا. كنت على وشك سؤالها إن كان بإمكاني مساعدتها حين وصلت صرخة روفوس إلى مسامعي. يبدو أن طب القرن التاسع عشر قد بدأ مفعوله.

جدران البيت الرئيسي سميكة لذا جاء صوته وكأنه على مسافة بعيدة، مثل صرخة حادة مكتومة. كاري، التي كانت قد خرجت من المطبخ، ركضت إلى الداخل وجلست بجانبي مغطية أذنيها.

توقف الصراخ فجأة. أمسكت يديها وأنزلتها عن أذنيها. تفاجأت بحساسيتها. توقعت أن تكون معتادة على مثل هذه الصرخات، صرخات الألم. أصغت لوهلة تتأكد من اختفاء الصراخ ثم التفتت نحوي.

«على الأرجح أنه في حالة إغماء الآن» قلت، «أحسن، لن يشعر بالألم لوهلة».

هزت رأسها موافقة ثم عادت إلى ما كانت تقوم به في الخارج.

«تحبه» قالت سارة بعد صمت، «يدافع عنها عندما يضايقها الصبيان».

تفاجأت. «أليست أكبر منه بعدة سنوات؟».

«وُلدت قبله بعام. لكن الأطفال يطيعونه هنا، فهو أبيض».

«كاري ابنتك؟».

هزت رأسها. «طفلي الرابع. والوحيدة التي سمح لي السيد توم بالاحتفاظ بها». بدأ صوتها يرتجف وكأنه همس.

«تقصدين أنه... باع الآخرين؟».

«باعهم. مات رجلي أولًا بعدما وقعت عليه شجرة حاول قطعها. ثم قام السيد توم بأخذ أطفالي ماعدا كاري. الحمدلله أن كاري لا قيمة لها بما أنها بكماء. يظن الناس أنها بلا عقل».

التفتت بعيدًا بعدما تحول تعبير وجهها من حزن على وشك البكاء إلى الغضب. غضب هادئ لكنه مخيف. مات زوجها، باعوا أطفالها الثلاثة، والرابعة معاقة، تشكر الله على إعاقتها. مذهل كيف أبقى عليها وايلن في المطبخ تجهز له طعامه كل يوم بعدما باع أطفالها. مذهل أنه على قيد الحياة! لكنه لن يعيش طويلًا لو حاول بيع كاري.

وبينما يشرد ذهني، التفتت سارة وألقت بشيء ما في الحساء الذي تحضِّره. لو قررت هذه المرأة الانتقام منه، فلن يكون بوسع وايلن معرفة سبب موته.

حاولت تذكر ما إذا عرضت عليها المساعدة في المطبخ. أخذت سلة البطاطس وسكينًا ووعاءً خشبيًّا وباشرت العمل بصمت، أقشر وأهش الذباب بعيدًا. ثم سمعت كيفن في الخارج ينادي عليَّ. تظاهرت بالهدوء بينما أنهض وأغطي البطاطس بفوطة وضعتها سارة

على الطاولة. توجهت إلى الخارج بلا عجلة محاولة ألا أظهر مدى راحتي بحضوره. قابلته خارج المطبخ وكان ينظر إليَّ باستغراب.

«هل أنتِ بخير؟».

«بخير الآن».

مد يده نحوي لكنني تراجعت خطوة محاولة تنبيهه بنظرتي. أنزل يده، «هيا» قال بنبرة قلق، «لنذهب إلى مكان يمكننا التحدث فيه».

قادني إلى مكان خلف البيت الرئيسي، بعيدًا عن أكواخ العبيد والمباني الأخرى، بعيدًا عن العبيد الصغار الذين راحوا يشاكسون بعضهم بعضًا، لا يعرفون بعد أنهم عبيد.

وجدنا شجرة بلوط ضخمة بأغصان سميكة كأن كلًّا منها شجرة منفصلة تظلل جميعها مساحة كبيرة. شجرة وسيمة عجوز ووحيدة. جلسنا على جانبها تفصلنا عن البيت. جلست قريبة من كيفن أسترخي وأنفض عني القلق الذي لم أكن أعي بثقله عليَّ. في البداية لم ننطق بشيء فهو أيضًا أسند ظهره إلى الشجرة يحاول التقاط أنفاسه.

بعد فترة نطق أخيرًا: «بإمكاني تخيل أزمان أخرى مذهلة أتمنى لو وقعنا فيها!».

ضحكت باقتضاب: «لا يمكنني تخيل أي زمن أود العودة إليه، لكن هذه الحقبة قد تكون أشدها خطرًا، على الأقل بالنسبة إليَّ».

«إلا لو كنت معك».

التفتُّ إليه بنظرة امتنان.

«لم حاولت منعي من المجيء معك هنا؟».

«أخاف عليك».

«عليَّ!».

«في البداية لم أفهم لماذا. سيطر عليَّ شعور ما، أن مجيئك معي قد يشكل خطرًا عليك. ولكن بعد مجيئك هنا، فهمت أنك على الأرجح لن تستطيع العودة من دوني. ما يعني أننا لو انفصلنا، فإنك قد تعلق هنا لسنوات، أو إلى الأبد».

أخذ نفسًا عميقًا وهز رأسه. «أتمنى ألا يحصل ذلك».

«ابقَ قريبًا مني. إن ناديت عليك، تلحقني بسرعة».

هز رأسه إيجابًا ثم بعد لحظات قال: «بإمكاني النجاة هنا، لو اضطررت. أقصد لو...».

«كيفن لا أريد أن أسمع لو، أرجوك».

«أقصد أني لن أكون معرَّضًا لنفس المخاطر التي تهدد حياتك».

«صحيح». لكنه يواجه خطرًا آخر. مكان مثل هذا قد يهدد حياته بطريقة لم أرد التحدث إليه عنها. لو علق هنا لسنوات فإنه سيتأثر بما حوله. لربما إني أبالغ. وإن نجا بالفعل، فذلك لأنه سيكون قد تحمل أسلوب الحياة هنا. لربما لن يضطر لمشاركتهم ما

يفعلون لكنه سيضطر إلى البقاء صامتًا. حرية التعبير والصحافة لم تجدا مكانهما بعدُ في الجنوب الأمريكي ما قبل الحرب الأهلية. حتى كيفن قد لا ينجو في مكان كهذا. المكان والزمان قد يوديان بحياته أو يعيدان تشكيله بشكل ما. لا أريد تخيل هذا المصير أو ذاك.

«دانة».

التفتُّ نحوه.

«لا تقلقي. وصلنا معًا وسنعود معًا».

لا أستطيع التوقف عن القلق لكني أبتسم الآن محاولة تغيير الموضوع. «كيف حال روفوس؟ سمعته يصرخ».

«مسكين، ارتحت لرؤيته وقد فقد وعيه. أعطاه الطبيب بعض الأفيون إلا أن الألم تغلغل إليه من خلال الأفيون. اضطررت إلى تثبيته من أجل الطبيب».

«أفيون... هل سيتحسن؟».

«هكذا قال الطبيب، إلا أني لا أعرف ما قيمة الأطباء في هذا الزمن».

«أتمنى أن يكون محقًّا. أتمنى أن يكون روفوس قد استنفد كل حظه السيء بعدما ورطته الحياة بهذين الأبوين».

رفع كيفن ذراعه يحركها ليريني عدة خدوش دامية.

«مارغريت وايلن» قلت بهدوء.

«لا أعلم ما الذي جاء بها إلى الغرفة» قال، «بعدما انتهت مني، هاجمت الطبيب تصرخ لا تعذبوا ابني».

هززت رأسي «كيفن، ماذا سنفعل؟ حتى وإن كانوا من العقلاء، فلن نستطيع العيش بينهم».

«نعم نستطيع».

حدقت إلى وجهه.

«اختلقت قصة لوايلن محاولًا تفسير وجودنا هنا وسبب فلسنا، فعرض عليَّ وظيفة».

«وظيفة؟».

«أدرس لصديقك الصغير. يبدو أن قدرته على القراءة والكتابة مثل قدرته على تسلق الأشجار».

«ظننته مسجلًا في المدرسة؟».

«ليس بعد أن كسرت ساقه. والده لا يريد له أن يفوِّت المزيد من الدروس أكثر مما فاته».

«هل يعتبر متأخرًا في الدراسة مقارنة بمن في مثل سنه؟».

«هكذا يظن وايلن. لم يقلها صراحة لكن من الواضح أنه يظن أن ابنه غبي».

«من المفاجئ أن يكترث لأمر ابنه، وأظن أنه مخطئ. لربما هذه المرة الوحيدة التي سيكون فيها حظ روفوس السيء سببًا لنجاتنا.

لا أظن أننا سنكون هنا حتى موعد استلامك مرتبك الأول. ولكن على الأقل سيتوفر لدينا المكان والطعام».

«هذا ما خطر لي أيضًا».

«ماذا عني؟».

«عنك؟».

«لم يقل وايلن شيئًا عني؟».

«لا، لم يقل شيئًا، لماذا؟ هو يعرف أني إن بقيتُ هنا، فإنك ستبقين هنا».

«نعم» ابتسمت، «صحيح. إن لم تتذكرني خلال تفاوضك معه، فلِمَ سيتذكرني هو؟ أراهنك أنه سيتذكرني حين يكون لديه عمل ما يلقيه عليَّ».

«لحظة، ليس من المتوقع منك العمل، لستِ ملكه».

«لا ولكني هنا. من المفترض أني عبدة. ماذا يفعل العبد سوى العمل؟ صدقني سيجد شيئًا يشغلني به. أو أنه سيضطر إلى البحث عن مهمة لي إن لم أجد لنفسي دورًا في هذا المكان».

قطب كيفن جبينه «هل تريدين العمل؟».

«أريد... بل عليَّ العمل حتى لا ألفت الأنظار. ومعنى ذلك أني مضطرة إلى العمل. من دون عمل سيكرهني الجميع، البيض والسود معًا. وأنا بحاجة إلى أصدقاء، أي أصدقاء يا كيفن، فقد لا تكون معي في المرة القادمة التي أجد نفسي فيها في هذا المكان».

«وما دام هذا الولد يرتكب حماقاته فإنك ستعاودين زياراتك».

أطلقت تنهيدة «هكذا يبدو».

«أكره أن أتخيلك تعملين لصالح هؤلاء القوم» هز كيفن رأسه، «أكره تصورك تلعبين دور العبد بأي شكل».

«هذا ما توقعناه».

لم يرد.

«كيفن، نادِ عليَّ من وقت إلى آخر. حتى لا ينسون أني حتى وإن كنت عبدة فإني لست ملكًا لهم... بعد».

هز رأسه مرة ثانية بغضب وكأنه يرفض، لكني أعلم أنه سيقوم بما أطلبه منه.

«أي أكاذيب اختلقتها لوايلن عنّا؟» سألته، «الناس هنا لا يتوقفون عن استجوابي، يجب أن تكون روايتنا واحدة».

للحظات لم يرد.

«كيفن؟».

أخذ نفسًا عميقًا «قلت إنني كاتب من نيويورك» نطق أخيرًا. «ستكون ورطة كبيرة لو التقينا بأحد من نيويورك خلال وقتنا هنا. أخبرته أني أرتحل في الجنوب بهدف إنجاز مشروع كتاب عن المنطقة. وأني مفلس لأني سكرت مع قُطاع طرق وسرقوا كل ما معي وأنك كل ما تبقى لديَّ وأني قد اشتريتك قبل أن يسرقوني لأنك تعرفين القراءة والكتابة وهكذا تساعديني في مشروعي».

«هل تراه اقتنع بما قلت؟».

«أظن ذلك. كان متأكدًا أنك متعلمة. هذا سبب أكيد لشكه وريبته، فلا أحد هنا يحب المتعلمين من العبيد».

«هذا ما أخبرني به نايجل».

«وايلن منزعج من طريقة كلامك. يبدو أنه لم يكن موفقًا في دراسته، شعرت بنبرة الحقد عنده. لا أظن أنه سيزعجك وإلا لما بقيت هنا، لكن عليك أن تتفاديه».

«سأكون سعيدة لو استطعت تفاديه كليًّا. أريد أن أجد مكانًا لي لأعمل في المطبخ إن أمكن. سأخبر سارة أنك تريدني أن أتعلم الطبخ».

أطلق ضحكة قصيرة «يجب أن أخبرك ببقية القصة التي حكيتها لوايلن. لو سمعتها سارة فقد تعلمك كيف تضعين السُّم في طعامي».

استمعت إليه بتوجس.

«كان وايلن يحذرني بأن إبقاء عبدة متعلمة مثلك أمر خطر، على الأرجح قد خطفك أحدهم من ولاية حرة، من أقصى الشمال. نصحني أن أبيعك لأحد متوجه نحو جورجيا أو لويزيانا قبل أن تهربي فأخسر استثماري. طمأنته بقولي إن الخطة أن أقوم ببيعك في جورجيا حيث تنتهي رحلتي لأني سمعت أن أسعار العبيد هناك أعلى.

بدا مسرورًا لسماع خطتي، مؤكدًا على صحة معلوماتي بأن

الأسعار بالفعل أعلى في لويزيانا إن استطعت الإبقاء عليك حتى الوصول هناك. بغض النظر متعلمة أم لا، أخبرته بأني قد وعدتك أني أعيدك معي إلى نيويورك حرة وبذلك لن تخططي للهرب مني».

«يبدو أنك تقمصت الدور».

«أعرف. تعمدت ذلك خاصة في النهاية، لأنه يريد التأكد من نوع الشخص الذي سيقوم بتدريس ابنه. بدت الراحة على وجهه حينما أخبرته أني قد وعدتك بالحرية، لكنه لم يعلق».

«لمَ قلت ذلك؟ هل تريد أن تخسر الوظيفة التي حصلت عليها حالًا؟».

«لا ولكن طوال الحديث معه كنت أفكر كيف أنك قد تعودين إلى هذا المكان من دوني. حاولت لمس أي حس إنساني عنده عليّ أن أطمئن أنك ستنجين من دوني».

«أظن أنه إنساني كفاية! إن كان من طبقة اجتماعية أعلى فلربما تقزز من قصة الكاتب المتفاخر وتخلص منك. ولكن بخصوص نقض وعدك لي بتحريري، فإنه لن يحاول منعك من ذلك فأنا في النهاية ملكك الخاص. وهذا شيء يحترمه».

«تعتبرين ذلك إنسانيًّا؟ يجب أن أتأكد أنك لن تعودي إلى هنا وحدك».

عدت بظهري أستند إلى الشجرة أتابعه «في تلك الحالة يا كيفن يجب أن أحصِّن نفسي».

«كيف؟».

«دعني أساعدك في تعليم روفوس بقدر الإمكان. دعنا نحاول قدر الإمكان منعه من أن يصبح النسخة الصهباء من والده».

٥

مرت ثلاثة أيام لم أرَ خلالها روفوس، كما لم يقع حدث يعيد إليَّ الدوار الذي يبشرني بالعودة أخيرًا إلى بيتي. بذلت كل جهدي في مساعدة سارة ويبدو أنها صارت تألفني، تقابل فشلي في المطبخ بكل صبر. تعلمني الطبخ وتحرص على تغذيتي. لم تعد تلقي لي بعصيدة الذرة بعدما عرفت أني لا أستسيغها. («لمَ لمْ تقولي شيئًا؟» سألتني). تحت إشرافها، أقضي الوقت كله أعجن عجين البسكويت باستخدام بلطة فوق جذع شجرة مهترئ. (على مهلك، هذه عجينة وليست مسامير. هكذا...) نظفت دجاجة ونتفت الريش عنها، أحضر الخضار، عجين الخبز، وعندما تمل سارة مني أذهب لمساعدة كاري وباقي الخدم في مهامهم. أنظف غرفة كيفن كل يوم. أحضر له الماء الساخن كي يستحم ويحلق ذقنه، وأستحم في غرفته. باتت غرفته المكان الوحيد الذي قد أجد فيه بعض الخصوصية. هناك أترك حقيبتي القماشية وهناك أختبئ لتفادي مارغريت وايلن، كلما جاءت تمرر أصابعها على المفروشات النظيفة أو تحت السجاجيد على الأرضية اللامعة بحثًا عن سبب لافتعال مشكلة. بغض النظر عن الاختلافات، مؤكد أني أعرف الكنس والمسح في أي مكان

وزمان. لكن مارغريت وايلن تظل تشتكي من عدم وجود شيء تشتكي منه! فهذه المرأة بينت لي أمرها منذ اليوم الأول حين ألقت بالقهوة الساخنة عليَّ مدعية أن القهوة باردة.

لذا رحت أختبئ منها في غرفة كيفن. ملجئي. لكني لم أستطِع النوم فيها.

كانوا قد خصصوا لي مساحة للنوم في العِلِّية حيث ينام خدم البيت جميعًا. لسبب ما لم يفكر أحد أني من المفترض أن أنام في غرفة كيفن. يعلم وايلن بنوع العلاقة بيني وبين كيفن، وكان من الواضح أنه لا يكترث لأمرها. لكن مكان نومي المقرر قد يشي بأنه يتوقع منّا الحذر، أو هكذا فهمنا. تعاونّا لثلاث أيام. وفي اليوم الرابع، استوقفني كيفن في طريقي إلى المطبخ وأخذني ثانية إلى شجرة البلوط ذاتها.

«هل تواجهين مصاعب مع مارغريت وايلن؟» سألني.

«حتى الآن لا بأس» قلت متفاجئة، «لماذا؟».

«سمعت بعض الخدم يتكلمون عن مشكلة بينك وبينها فجئت أتأكد منك».

هززت كتفي باستسلام وقلت «أظن أنها تكرهني فقط لأن روفوس يستلطفني. لا تريد لأحد أن يشاركها ابنها. ليكن الله في عونه حين يكبر ويحاول التمرد عليها. كما أني لا أظن أن مارغريت تختلف عن زوجها في توجسهم من العبد المتعلم».

«همم. كان انطباعي عن زوجها صحيح، بالكاد يعرف القراءة

والكتابة، ويبدو أن زوجته مثله» تلفت من حوله ثم أردف «هل صحيح أنها ألقت عليكِ قهوة ساخنة؟».

أشحت بنظري عنه «لا يهم، لأن أغلبها اندلق على الأرضية».

«لماذا لم تخبريني؟ كان بإمكانها أن تؤذيك».

«لكنها فشلت».

«لا أريد أن أعطيها فرصة أخرى للمحاولة».

التفتُّ إليه «ما الذي بوسعك فعله؟».

«نترك المكان. لسنا بحاجة إلى المال بحيث أتركك عُرضة لأي أذًى قادم منها».

«لا يا كيفن. هنالك ما منعني من إخبارك بحادثة القهوة».

«أتساءل إن كنت قد خبَّأت عني تفاصيل أخرى؟».

«كلها غير مهمة» بدأت أستدعي الشتائم التي تلقيبها مارغريت كل يوم. «لا شيء مهم كفاية ليدفعنا إلى الرحيل».

«ولكن لماذا؟ لا يوجد سبب لـ...».

«نعم هناك سبب. لقد فكرت في كل ما يحدث لي يا كيفن. لا أكترث للمال ولا حتى لسقفٍ أنام تحته. أظن أننا سننجو هنا معًا مهما حدث. لكني لا أعتقد أن بإمكاني النجاة هنا وحدي. سبق وأخبرتك بذلك».

«لن تكوني وحدك. أعدك بذلك».

«ستحاول. قد يكون ذلك كافيًا. آمل ذلك. ولكن إن فشلت، إن عدت هنا من دونك، فستكون فرصة نجاتي أفضل إذا بقيت هنا وعملت على الضمان الوحيد الذي تحدثنا عنه. أقصد روفوس. على الأغلب أنه سيكون أكبر سنًّا حين أعود في المرة القادمة وستكون لديه بعض السلطة لمساعدتي. أريده أن يشكِّل ذكريات حسنة عني بقدر الإمكان».

«قد ينساك بمجرد رحيلك».

«سيتذكر».

«لكن الاحتمال ضئيل، انظري إلى البيئة المحيطة به، التي ستؤثر فيه وتشكله في كل يوم في أثناء غيابك. ما أعرفه عن هذا الزمن أن أطفال السادة على علاقات حسنة بالعبيد لكنهم بعدما يكبرون تتحول طبيعة العلاقة إلى التسلط».

«قد تختلف الأمور معه. حتى هنا، لا يستسلم كل طفل لتأثير أسرته عليه».

«إنك تقامرين معه! بل إنك تقامرين ضد التاريخ!».

«ليس أمامي خيار آخر. عليَّ المحاولة يا كيفن. وإن كانت المحاولة تعني المجازفة قليلًا وتحمل بعض الإهانات كي أنجو لاحقًا، فعليَّ على الأقل أن أحاول».

أخذ نفسًا عميقًا ثم أطلقه في زفرة واحدة أقرب إلى الصفير. «لا ألومك. لا يعجبني الوضع ولكني أتفهَّم».

تركت رأسي تتكئ على كتفه «ولا أنا يعجبني. يا الله كم أكره هذا المكان. أشعر بهذه المرأة تنجر نحو انهيار عصبي. كل ما أتمناه ألا أكون هنا حين يحدث ذلك».

تحرك كيفن فاستقمت بظهري «دعينا ننسى أمر مارغريت لوهلة» قال، «أردت أن أحدثك أيضًا عن ذاك... ذاك المكان الذي تنامين فيه».

«آه».

«نعم آه. أخيراً وجدته. مجرد قماشة على الأرض! دانة!».

«هل رأيت شيئًا آخر في العلية؟».

«ماذا؟ هل هنالك أي شيء لأراه؟».

«قطع قماش متوزعة في كل مكان. وفراشان مصنوعان من قش الذرة. لا يعاملونني أسوأ مما يعاملون بقية الخدم يا كيفن. بل إن وضعي أفضل من العاملين في الحقل. ينامون على الأرض، أكواخهم بلا أرضيات تغزوها البراغيث».

امتد صمت طويل بيننا قبل أن يتنهد كيفن ثانية «ليس بمقدوري مساعدة الآخرين. لا أريد لك أن تنامي في العلية ثانية. أريدك معي».

عدلت من جلستي أحدق إلى يديَّ. «لا تعلم كم أريد أن أكون معك. أحيانًا أتخيل نفسي أستيقظ في سريرنا في البيت ولكن وحيدة».

«لن يحدث. إلا لو تعرضت لخطر ما خلال الليل».

«لا شيء مؤكد يا كيفن. نظريتك قد تكون خاطئة. قد يكون هنالك حد ما للوقت الذي أقضيه هنا. قد يتسبب كابوس بإعادتي إلى البيت. كل شيء وارد».

«ربما حان الوقت لأضع نظريتي رَهن التجربة».

استوقفني كلامه. فهمت أنه يقصد تعريضي للخطر أو دفعي إلى تخيل أني مهددة بشكل ما. محاولة لإخافتي وربما العودة بي إلى البيت.

بلعت ريقي. «قد تكون فكرة جيدة ولكن من المفترض أن تفاجئني. كما أني لا أظن أنك قادر على إخافتي كفاية لأني أثق بك».

مد كفَّه يغطي فمي وقال «استمري في ثقتك. لن أؤذيك».

«لكن...».

«لست مضطرًا إلى إيذائك. سأخطط لشيء يدب في نفسك الرعب دون أن تنتبهي».

بدأت أتقبل الفكرة، أتساءل إن كان بإمكانه فعلًا العودة بنا. «كيفن، انتظر حتى يتشافى روفوس».

«شفاؤه سيستغرق وقتًا» قال معترضًا، «ربما ٦ أسابيع أو أكثر. اللعنة! في هذا الزمان المتخلف من يعلم قد لا تُشفى ساق الولد أبدًا!».

«بغض النظر فإن الولد سيعيش. وسيصبح أبًا. معنى ذلك

أنه سيستدعيني ثانية، سواء معك أو من دونك. امنحني الفرصة التي أحتاجها يا كيفن، أريد أن أتواصل معه ليكون حليفًا لي في المستقبل».

«طيب» قال متنهدًا، «سننتظر فترة لكن لن أسمح بنومك في العلية ثانية. ستنتقلين للنوم معي الليلة».

فكرت «طيب. العودة بك إلى البيت أهم عندي من روفوس. سأجازف حتى وإن يعني ذلك نفيي من العزبة».

«لا تقلقي. وايلن لا يهتم لأمرنا».

«ولكن مارغريت مهتمة جدًّا. رأيتها تحاول قراءة الإنجيل بتهجئتها البدائية. أعتقد أنها شخص متدين بشكل ما!».

«تريدين معرفة مدى تدينها؟».

نبرته دفعتني إلى الشك «ماذا تقصد؟».

«أقصد أنها لو حاولت معي أكثر فإني قد أجد نفسي في مشهد من مشاهد الإنجيل، كمشهد يوسف وامرأة العزيز مثلًا».

بلعت ريقي. الملعونة! ظهر وجهها أمامي، شعرها الأحمر الطويل مرفوعًا على رأسها وبشرتها البيضاء الصافية. بغض النظر عن اضطرابها العاطفي فإنها ليست قبيحة.

«طيب، سأنتقل إلى غرفتك الليلة» قلت.

ابتسم «لو أنجزنا الأمر بهدوء فقد لا نستدعي انتباههم. تعرفين؟

في طريقي إلى هنا رأيت ثلاثة أطفال صغار يلعبون في الرمل هناك وكل منهم يشبه وايلن أكثر من روفوس حتى. يبدو أن مارغريت تفتقر إلى قوة الملاحظة!».

عرفت أي أطفال يقصد، كل منهم له أم، هناك شبه ما يجمع بينهم. رأيت مارغريت تصفع أحدهم بشدة على وجهه. خطؤه الوحيد أنه كان في طريقها لا أكثر. إن كانت تعاقب طفلًا على خطأ زوجها فهل ستتردد في معاقبتي إن عرفت أني سأنام في المكان الذي تريد أن تكون فيه بجانب كيفن؟ حاولت تغيير الموضوع.

«قد نضطر إلى الرحيل» قلت، «فمهما يحدث بين هؤلاء القوم هنا فقد لا يتحملون خطأ كهذا إذا بدر منا».

هز كتفيه «إذا تحتم علينا الرحيل فلنرحل. هنالك حد لما يمكنك تحمله هنا حتى وإن احتجت إلى التعرف على الولد. سنجد طريقنا إلى بالتيمور وهناك أجد وظيفة ما».

«إن كنا سنذهب إلى مدينة فدعنا نتجه إلى فيلادلفيا».

«فيلادلفيا؟».

«لأنها في بنسلفانيا. إن تركنا هذا المكان فلتكن وجهتنا ولاية حرة».

«آه، صح لم أفكر في ذلك. اسمعي... دانة. قد نضطر إلى الذهاب إلى ولاية حرة في كل الأحوال» تردد لحظة ثم أردف «أقصد إن بقينا عالقين هنا. على الأغلب سأصبح عالة على وايلن

إن شُفي روفوس، وفي تلك الحالة سيكون علينا بدء حياة في مكان آخر. لا أظن أن ذلك مرجح ولكنه احتمال موجود».

هززت رأسي موافقة.

«دعينا نقوم الآن لنجلب ما لديك من أغراض من العِلِّية» وقف «دانة، روفوس أخبرني بأن أمه في زيارة خارج البيت فطلب أن تذهبي لرؤيته».

«لماذا لم تخبرني؟ البداية أخيرًا!».

لاحقًا ذاك اليوم، كنت مشغولة بتجهيز عجينة خبز الذرة لسارة، حين جاءت كاري تأخذني. أومأت بيديها لسارة مسرورة تخبرها أني صرت أفهمها. مسحت العرق عن طرف وجهها وكأنها تحك شيئًا. ثم أشارت نحوي.

«دانة» قالت سارة تطل عليَّ من فوق كتفها. «أحد البِيض يطلبك، اذهبي مع كاري».

قادتني كاري إلى غرفة روفوس، دقت على الباب وتركتني أمامه. دخلت لأجد روفوس في السرير وساقه عالقة بين لوحين من الخشب مربوطة بحبل إلى آلة في نهايتها ثقل حديدي أظن أنهم أخذوه من مطبخ سارة. رأيتها تستخدمه لتعليق اللحم خلال الشواء. يبدو أنها قطعة متعددة الوظائف!

«هل تشعر بتحسن الآن؟» سألته بينما أجلس على الكرسي بجانبه.

«ما عادت تؤلمني كالسابق» قال، «أظن أنها تتحسن. كيفن قال... هل يزعجك لو قلت اسمه هكذا؟».

«أعتقد أنه يفضل ذلك».

«عليّ مخاطبته بالسيد فرانكلن في حضور ماما. على العموم، أخبرني بأنك تعملين مع العمة سارة».

العمة سارة؟ طيب، أهون من أن يلقبها بالماما سارة كما كان يفعل أطفال الأسياد في زمنه. «نعم أتعلم منها الطبخ».

«إنها طباخة ماهرة ولكن... هل تضربك؟».

«طبعاً لا» ضحكت.

«عملت لديها فتاة قبل فترة وكانت تضربها. حتى أن الفتاة طلبت من بابا أن يسمح لها بالعمل في الحقل. كان ذلك بعدما قام بابا ببيع أطفال العمة سارة. كانت غاضبة على الجميع وقتها».

«لا ألومها» قلت.

ألقى روفوس نظرة على الباب وأردف بصوت هامس «ولا أنا. ابنها جيم كان صديقي. علمني ركوب الحصان. لكن أبي باعه في النهاية» نظر ثانية إلى الباب وسأل «دانة، هل تجيدين القراءة؟».

«نعم».

«أخبرني كيفن بذلك فأخبرت أمي لكنها لم تصدقني».

هززت كتفي «هل تصدقها؟».

سحب كتابًا بغلاف جلدي من تحت وسادته «كيفن جلب هذا الكتاب من الطابق الأسفل. هلَّا قرأتيه لي؟».

شعرت بحب كيفن يحيطني، فقد وجد طريقة تسمح لي بقضاء الوقت مع الصبي. كان الكتاب «روبنسون كروزو» الذي سبق أن قرأته خلال سنوات الطفولة، وأتذكر أنه لم يعجبني لكني لم أتوقف عن قراءته حتى انتهيت منه. كان كروزو في رحلة تجارة بالعبيد حين عصفت الرياح بسفينته.

فتحت الكتاب متسائلة عن نوع التهجئة والترقيم التي تنتظرني. لاحظت السين بدل الفاء[1] وهو أمر توقعته بالإضافة إلى تفاصيل أخرى لم تتكرر كثيرًا لكني وجدت طريقي لفهمها بسهولة. رحت أتعمق في روبنسون كروزو. وكوني طريدة هنا، وجدت راحة ما عبر الانغماس في العالم المتخيل لشخص غيري يصارع ويغامر.

تابعت القراءة، أتوقف فقط لشرب الماء الذي تركته مارغريت لابنها، ثم أعود فأكمل القراءة. بدا روفوس مستمتعًا بالقصة. لم أتوقف حتى رأيته غافيًا. ولكن بمجرد أن وضعت الكتاب، فتح عينيه مبتسمًا.

«أخبرني نايجل بأن أمك معلمة».

«صحيح».

---

(١) في الكتب المطبوعة قديماً، استخدم حرف يشبه f عوضًا عن حرف s، مع الوقت تغير الأمر وتم توحيد استخدام حرف s. (المترجمة)

«أحب طريقتك في القراءة. أشعر كأني أعيش القصة بكل تفاصيلها».

«شكرًا».

«هنالك الكثير من الكتب في الطابق السفلي».

«نعم، لاحظت ذلك» كنت قد تساءلت عن مصدرها فالواحد لا يتخيل أن وايلن وزوجته من أصحاب الكتب.

«إنها كتب الآنسة هانا» قال روفوس مفسرًا. «كان والدي قد تزوجها قبل أمي لكنها توفيت. وهذا المكان كان ملكها. يقول إنها كانت تقرأ طوال الوقت لذا حين تزوج أمي تأكد أولًا من أنها لا تحب القراءة».

«ماذا عنك، هل تحب القراءة؟».

عدل من وضعيته بصعوبة «القراءة أمر شاقٌّ. السيد جينينغز يقول إني غبي».

«من يكون السيد جينينغز؟».

«مدير المدرسة».

«فعلاً؟» أهز رأسي باستنكار. «هذا خطؤه. اسمع، هل تظن أنك غبي؟».

«لا» قال بتردد، «وصلت إلى مستوى القراءة ذاته عند بابا. لا أعلم لمَ أحتاج إلى أكثر من ذلك».

«لست مضطرًّا إلى الاستمرار في الدراسة. بإمكانك أن تظل بذات المستوى. وبالطبع سيسعد السيد جينينغز بذلك لأنك ستثبت صحة كلامه. هل تحب السيد جينينغز؟».

«لا أحد يحبه».

«طيب إذن لا تستعجل وتستسلم لحكمه. ماذا عن الصبيان معك في المدرسة؟ هل كلهم صبيان؟».

«نعم».

«سيتطور مستواهم عنك ويعرفون أكثر منك وحين تكبرون قد يستطيع الواحد منهم أن يغشك في لحظة ما. كما أنك -لوَّحت بالكتاب- ستفوت عليك هذه المتعة».

ابتسم «إلا لو بقيت هنا. لنقرأ المزيد».

«الوقت تأخر وأمك ستعود في أي لحظة».

«لا، لن تعود. اقرئي».

تنهدتُ «روفوس، أمك لا تحبني. أظن أنك تعرف ذلك».

أشاح عني وقال «لدينا بعض الوقت، قد يكون من الأفضل أن نتوقف لأني لن أنتبه إلى مجيئها بينما تقرئين».

أعطيته الكتاب، «اقرأ لي بعض السطور» قلت.

تناول الكتاب ونظر إليه وكأنه عدوه. بعد لحظات بدأ يقرأ بتردد وتأتأة. بعض الكلمات تستعصي عليه فأبادر لمساعدته. بعد

فقرتين مؤلمتين، توقف ووضع الكتاب جانبًا بقرف. «وكأنه كتاب آخر حين أقرؤه» قال.

«تعلم من كيفن» قلت، «كلانا لا يعتقد أنك غبي. ستتعلم جيدًا» إلا لو كان يعاني من مشكلة ما مثل ضعف نظر أو صعوبة ما في التعلم يعتبرونها في هذا الزمن نوعًا من التخلف أو العناد. على أي حال، ما الذي أعرفه أنا عن تدريس الأطفال؟ أملي الوحيد أن يكون عند الولد قابلية للتعلم.

نهضت عن الكرسي ثم عاودت الجلوس بعدما تذكرت سؤالًا آخر «روف، ماذا حل بآليس؟».

«لا شيء» بدا متفاجئًا.

«أقصد... المرة الماضية حين التقيتها رأيت رجالًا يضربون والدها لأنه ذهب لرؤيتها ووالدتها».

«آه صحيح. خاف والدي أن يحاول الرجل الهرب فباعه لتاجر».

«باعه... هل يعيش قريبًا من هنا؟».

«لا كان التاجر متجهًا نحو الجنوب. إلى جورجيا أظن».

«يا إلهي» تنهدت، «وهل مازالت آليس تعيش هنا مع أمها؟».

«بالطبع، أزورهم دومًا، على الأقل حين كنت قادرًا على المشي».

«هل تعرضتا لأي مشاكل لأني كنت معهما تلك الليلة؟» بهذا

السؤال أحاول معرفة ما قد حل بالرجل الذي كان على وشك أن يجعلني عبدة عنده.

«لا أظن. أخبرتني آليس أنك جئت ورحلت سريعًا».

«صحيح، عدت إلى البيت. لا يمكنني توقع النقلة، تحدث في أي لحظة».

«إلى كاليفورنيا؟».

«نعم».

«لم تشهد آليس لحظة اختفائك. تقول إنكِ ذهبتِ نحو الأشجار ولم تظهري ثانية».

«جيد. أظن أن مشاهدة النقلة قد ترعب أي شخص» يبدو أن آليس تحتفظ بالسر، وأمها كذلك. أو أنها لا تعي ما حدث. واضح أن هنالك أمور لا يمكن للواحد أن يُسِّرها حتى لولد أبيض لطيف. ومن ناحية أخرى، إن لم يقُم رجل الدورية بنشر خبري في المكان بهدف الانتقام فمعنى ذلك أنه ميت. ربما قتلته بلكمتي أو أن أحدًا آخر تخلص منه من بعدي. وإن حصل بالفعل، فإني لا أريد معرفة التفاصيل.

نهضت ثانية. «عليَّ الذهاب يا روف. سأراك ثانية حينما تسنح لي الفرصة».

«دانة؟».

التفتُّ إليه.

«أخبرت أمي من تكونين. أنك الشخص الذي أنقذني المرة الماضية في النهر. أنكرت لكني أظن أنها تصدقني. أخبرتها لأني ظننت أن ذلك سيجعلها تودك».

«لا أظن أنك قد نجحت».

«أعرف» قال متجهمًا، «لما لا تحبك؟ هل فعلت شيئًا ما أزعجها؟».

«لا أظن. في النهاية ماذا سيحل بي لو ارتكبت خطأ ما؟».

«صحيح، ولكن لا أفهم سبب مشاعرها؟».

«عليك أن تسألها».

«لن تجيب». قال وعلى وجهه الحيرة، «أخاف أنك ستعودين إلى بيتك، أن أحدًا سيأتي ويخبرني بأنك وكيفن قد اختفيتما. لا أريد لكِ أن ترحلي. كما أخشى عليك من الأذى إن بقيت هنا».

لم أرد.

«كُوني حذرة» قال بلطف.

هززت رأسي إيجابًا وخرجت من الغرفة. وبينما كنت أوشك على نزول السلالم، خرج توم وايلن من غرفته.

«ماذا تفعلين هنا؟» سألني بنبرة استجوابية.

«أزور السيد روفوس» قلت، «طلب رؤيتي».

«كنت تقرئين له!».

الآن فهمت كيف ظهر فجأة في ذات اللحظة التي تركت فيها

الغرفة. كان يتلصص علينا. يا إلهي. ماذا كان تراه قد سمع؟ أو ما الذي سمعه وما كان من المفترض أن يعرفه؟ عن آليس مثلًا؟ كيف سيستغل ذلك؟ للحظات راحت الأفكار تتصارع في عقلي، تبحث عن أعذار وتفسيرات. ثم تذكرت أني لن أحتاجها. لو سمع حوارنا عن آليس لوجدته أمام الباب مباشرة. ربما انتبه إلى التآلف بيني وبين روفوس. لا شيء أسوأ. كنت حريصة ألّا أنطق بأي سوء عن مارغريت لأن لا شيء يدمر صورتها عند ابنها أكثر من تصرفاتها. وجدتني أواجه وايلن بثقة.

«نعم كنت أقرأ له» اعترفت، «طلب مني ذلك. أظنه متململًا من جلسة السرير طوال الوقت».

«لم أطلب رأيك» قال.

لم أرد.

أخذني بعيدًا عن باب روفوس ثم توقف وحملق إليَّ بشدة. عيناه تتفحصاني مثل رجل يقيِّم امرأة بهدف ممارسة الجنس، لكني لم أشعر بالشبق من جانبه. عيناه، لاحظت للمرة الأولى، أنها تشبه عيني كيفن. لروفوس وأمه عيون بلون أخضر فاتح. لسبب ما أفضل الأخضر.

«كم عمرك؟» سأل.

«٢٦ سيدي».

«تبدين متأكدة؟».

«نعم سيدي».

«في أي عام ولدت؟».

«١٧٩٣» كنت قد قمت بالحسبة قبل أيام تحسبًا لمثل هذا السؤال. خفت أن أظهر مترددة في الإجابة. على الأقل في زمني التردد يعني الكذب. ولكن فور أن نطقت بالإجابة تذكرت أنهم في هذا الزمن قد يترددون في الإجابة على هكذا سؤال ببساطة لأنهم قد لا يعرفون. سارة مثلًا لم تعرف كم من العمر تبلغ.

«٢٦ إذن» قال وايلن، «كم من الأطفال أنجبت؟».

«لم أنجب أطفالًا» حاولت الحفاظ على وجهي بلا تعبير لكني كنت حائرة من الاتجاه الذي ستأخذني إليه هذه الأسئلة.

«لا أطفال في هذا السن!» تجهم وقال «لا بد أنك عقيمة إذن».

لم أجب. لم أُرِد تفسير أي شيء له. خصوبتي لا تخصه في شيء.

استمر يحدق إليَّ لوهلة أطول ما جعل مشاعر القلق والغضب تتسرب إليَّ لكني قمعتها قدر الإمكان.

«لكنك تحبين الأطفال؟» سأل «تحبين ابني؟».

«نعم سيدي».

«هل بإمكانك الحساب أيضًا، بجانب القراءة والكتابة؟».

«نعم سيدي».

«ما رأيك لو قمت أنتِ بتعليمه؟».

«أنا؟» تجهم وجهي. سيطرتُ على نفسي قبل أن تخرج مني ضحكة. يبدو أن توم وايلن يريد شرائي، على الرغم من كل تحذيراته لكيفن من العبيد المتعلمين أبناء الشمال. تظاهرت وكأني لم أفهم قصده. «لكن تعليم روفوس مهمة السيد فرانكلن؟».

«بإمكانها أن تكون وظيفتك».

«فعلًا؟».

«بإمكاني شراؤك فتعيشين هنا بدلًا من الترحال دون مأكل ومسكن».

خفضت بصري «هذا أمر يرجع إلى السيد فرانكلن».

«أعلم، ولكن ما رأيك؟».

«يعني... لا أقصد أي إهانة يا سيد وايلن، سعيدة بأننا توقفنا هنا في طريقنا، وكما ذكرت فأنا أحب ابنك. لكني أفضل البقاء مع السيد فرانكلن».

أجابني بنظرة شفقة «إن كان هذا ما تفضلين فإنك ستندمين على قرارك» ثم التفت وعاد إلى غرفته.

وقفت في مكاني أنظر إليه مدهوشة كيف أنه بالفعل يشفق عليَّ.

ليلتها أخبرت كيفن عمَّا حدث ودُهش مثلي.

«احذري يا دانة» قال وكأنه يردد كلام روفوس. «كوني حذرة قدر الإمكان».

٦

تصرفت بحذر، فمع مرور الأيام اعتدت أن أكون حذرة. لعبت دور العبد، غيرت من أسلوبي وتصرفاتي، إلى أقصى حد، لأني لم أعرف إلى متى سأظل أفلت من غضب السادة. ويبدو أن حظي بدأ ينفد.

استدعوني مرة إلى أكواخ العبيد (الساحة) كي أشاهد وايلن يجلد رجلًا من العاملين في الحقل لأنه تجرأ على الرد عليه. قام بتنفيذ العقوبة رجلان من العبيد بينما وقف وايلن خلفهما يلعب بسوطه ويعض على شفتيه. فجأة، راح يضرب بسوطه يشق ظهر العبد الذي انتفض جسده المقيد بالحبال. أخذت أحدق إلى السوط متسائلة إن كان ذاته الذي جلد به روفوس منذ سنوات. إن كان ذاته، فإني بالتأكيد أتفهم فعل مارغريت عندما حاولت الهرب بابنها. هذا السوط ثقيل وطوله على الأقل ستة أقدام، لم أكن لأستخدمه لجلد أي كائن حي. شاهدت وسمعت وكلي توق للهرب بعيدًا عن الحدث. لكن وايلن يريدنا أن نأخذ العبرة مما يحدث للرجل. أصدر أمرًا بجمع كل العبيد لمشاهدة حلقة الجلد هذه. بينما يجلس كيفن في مكان ما في البيت الرئيسي على الأغلب، لا يدري بما يحدث هنا.

الأكيد أن العقاب حقق أثر الرعب، على الأقل بالنسبة إليَّ. شعرت بالخوف يسيطر عليَّ وصرت أتساءل إن كنت الضحية القادمة لسوط أحدهم حين أرتكب خطأً ما، أو ربما أني ارتكبت الخطأ هذا ولا رجعة منه.

كنت قد انتقلت إلى غرفة كيفن. وعلى الرغم من أنه قرار كيفن، فإن العقاب سيقع عليَّ. حقيقة أن وايلن وزوجته لم يلاحظا بعدَ انتقالي إلى غرفة كيفن لم تسعدني. حياتي وحياتهما منفصلة بحيث قد يأخذ الأمر عدة أيام قبل أن يلاحظا غيابي عن العلية. حرصت على الاستيقاظ قبلهما لجلب الماء والفحم المشتعل من المطبخ إلى غرفة كيفن، فقد اكتشفت أن أعواد الثقاب لم توجد بعد، حتى أني سألت روفوس وسارة وأخبراني أنهما لم يسمعا باختراع كهذا من قبل.

حتى الآن، الخادم الذي عيَّنه وايلن للاهتمام بكيفن لم يكترث به، وبذا صار كيفن وغرفته من مسؤوليتي. بالطبع لم يكن سهلًا علينا إشعال الموقد، كما أن جلب الماء من المطبخ وعبر السلالم يستغرق وقتًا أطول لكن كل هذا لا يهم. المهم أن هذه المهام المتعلقة بكيفن سهَّلت دخولي وخروجي من غرفته وأعفتني من تحمل مهام أخرى عصيبة. والأهم من كل هذا، أن الغرفة صارت بمثابة قطعة من العام ١٩٧٦ نعيش فيها وسط عالم العبيد والأسياد.

بعدما أغسل وجه كيفن، الذي يجرح وجهه مرارًا بالشفرة التي أعطاها إياه وايلن، أذهب إلى المطبخ لمساعدة سارة في تحضير الإفطار. صباحات كاملة تنقضي دون أن أرى وايلن وزوجته. في الليل، أساعد في التنظيف بعد العشاء وأقوم بالتحضير لليوم التالي. وهكذا، مثل سارة وكاري، أستيقظ كل يوم قبل آل وايلن وأذهب إلى النوم بعدهم. هكذا مضت الأيام دون لقائهم، حتى وجدَت مارغريت وايلن سببًا آخر لتكرهني.

حاصرتني يومًا وأنا أكنس المكتبة. لو دخلت قبلها بثوانٍ لوجدتني أقرأ من كتاب. «أين نمتِ ليلة البارحة؟» قالت بنبرة اتهام لا تظهرها إلا مع العبيد.

عدَّلتُ من وضعيتي لأواجهها، يداي تمسكان بالمكنسة. تخيلت لو أني أجيبها «الأمر لا يخصك يا بنت الكلب» ولكن بدلًا عن ذلك وجدتني أرد بصوت لطيف محترم: «في غرفة السيد فرانكلن، سيدتي». لم أحاول الكذب لأن كل خدم البيت يعرفون. على الأرجح أن أحدهم قام بإبلاغها. طيب الآن لنرَ ما سيحدث.

صفعتني مارغريت على وجهي.

وقفت جامدة، أحدق إليها ببرود حاد. كانت أقصر مني بثلاث أو أربع إنشات وأصغر مني حجمًا. لم تؤلمني صفعتها كثيرًا، لكنها أشعلت فيَّ رغبة إيذائها، إلا أن مشهد الجلد منعني من التهور.

«سوداء قحبة!» صرخت، «هذا بيت مسيحي!».

لم أرد.

«سأجرجرك إلى الساحة حيث مكانك!».

لم أجب. أنظر إليها.

«لن أسمح لك بالبقاء في بيتي!» تراجعت خطوة عني، «لا تنظري إليَّ هكذا!» ثم تراجعت خطوة أخرى.

استوعبت أنها تخافني قليلًا، في النهاية أنا عبدة جديدة هنا

والعبد الجديد لا يمكن توقع تصرفاته. أو أن صمتي قد أرهبها. ببطء وتعمد، أدرت ظهري إليها وعدت إلى كنس الغرفة.

بطرف عيني تابعتها سرًّا، فهي أيضًا لا يمكن توقع تصرفاتها. قد تلتقط شمعدانًا أو مزهرية وتضربني بها. وبغض النظر عن الجلد، فلن أقف خاضعة أمامها وأتركها تضربني.

لكنها لم تتحرك تجاهي. بل إنها خرجت من الغرفة مسرعة. كان يومًا حارًّا لزجًا ومزعجًا. لم ألمح أحدًا يتحرك بسرعة إلا لهش الذباب. لكن مارغريت وايلن تتحرك بسرعة في كل مكان. ليس لديها ما تقوم به. ينظف العبيد بيتها، يخيطون وينسجون لها، يحضرون الأكل ويغسلون الملابس. حتى أن كاري تساعدها في تبديل ملابسها. لم يكن لديها ما تفعله سوى المراقبة وإعطاء أوامر كانوا قد أنجزوها، فتنقض عليهم بالشتيمة والعقاب، تتهمهم بالكسل والبطء حتى وإن عملوا بهمة وسرعة. باختصار، مهمتها التنكيد عليهم. يبدو أن وايلن تزوج امرأة فقيرة غير متعلمة عصبية، شابة جميلة تسعى إلى تحقيق صورة السيدة كما تعرفها. معنى ذلك أنها لم تقم بأي عمل صعب، أو أي عمل على الإطلاق، حقيقة. لم يكن أمامي أحد أقارنها به من هذا الزمن، سوى ضيوفها الذين بدوا مثلها تمامًا لكن أقل عصبية. وأشك أن النساء في وقتها وجدوا طريقًا للانشغال، بغض النظر إن كن سيدات أم لا. تدور مارغريت حول البيت تحاول قتل الملل بمضايقة الآخرين.

أكملت تنظيف المكتبة متسائلة إن كانت مارغريت قد ذهبت

إلى زوجها. زوجها هو من أخشى. تذكرت وجهه في الساحة وهو يجلد الرجل العامل في الحقل. لم يبدُ عليه الغضب أو المرح أو حتى الاكتراث. وكأنه يحطب شجرة. لم يكن ساديًّا إلا أنه لم يتوانَ عن «واجباته» كسيد. لن يتردد في جلدي حتى أنزف إن منحته سببًا، وقد لا يكون كيفن متواجدًا في المكان لمنعه.

ذهبت إلى غرفة كيفن لكني لم أجده. سمعت صوته حين مررت بغرفة روفوس ولكن قبل أن أفتح الباب سمعت صوت مارغريت. مرتعدة نزلت إلى الطابق السفلي وتوجهت نحو المطبخ.

ارتحت عند رؤية سارة وكاري وحدهما في المطبخ. كثيرًا ما يكتظ المطبخ بالعابرين، الكبار سنًّا والأطفال، أو الخدم وعمال الحقل يسرقون لحظات من الراحة. أحب أحيانًا متابعة أحاديثهم محاولة تفكيك لكناتهم لأعرف ما اضطروا إلى تحمله للعيش والنجاة في ظل العبودية. دون أن أعي ذلك، أشعر بأنهم يحضرونني لعيش حياة كهذه. لكني الآن أريد فقط سارة وكاري. لأن بإمكاني الحديث معهما عن أي شيء دون أن يصل خبري إلى آل وايلن.

«دانة» رحبت بي سارة، «كوني حذرة. اليوم شهدت لصالحك فلا تجعليني كاذبة».

تجهمت. «شهدتي؟ للسيدة مارغريت؟».

ردت عليَّ سارة بضحكة مقتضبة. «لا! تعرفين أني لا أتحدث معها عن أي شيء إن استطعت. ذاك بيتها وهذا مطبخي».

ابتسمت وشعرت بالقلق يتراجع قليلًا عني. صحيح ما تقوله،

فمارغريت وايلن لا تتعامل معها. كل الحديث بينهما موجز ومقتصر على تخطيط المائدة.

«لمَ تكرهينها إن كانت لا تقوم بإزعاجك؟» سألت.

رمقتني بنظرة الغضب الصامت التي لم يسبق لي رؤيتها منذ وصولي إلى العزبة. «مَن غيرها جاء بفكرة بيع أطفالي؟».

«آه» هذه المرة الثانية التي تذكر فيها سارة أطفالها المفقودين.

«أرادت شراء عفش جديد للبيت، والأطباق والزينة التي ترينها الآن في البيت. الموجود كان كافيًا للسيدة هانا، والسيدة هانا كانت سيدة بالفعل. ممتازة. لكن الموجود لم يكن كافيًا لهذي الزبالة البيضاء مارغريت. لذا دفعت بالسيد توم إلى بيع صبياني الثلاثة كي تجدد بيتها».

«آه» لم أستطع التفكير في رد آخر على ما قالته. شعرت بمشكلتي تنكمش وتتضاءل أمامها حتى أني لم أعد أريد مناقشتها في شيء. صمتت سارة لوهلة، تنشغل يداها بعجين الخبز، تضغط عليه بقوة أكثر. ثم أخيرًا نطقت.

«السيد توم جاء يسألني عنك».

قفزت في مكاني «أنا في ورطة؟».

«سألني عن عملك وإن كنتِ كسولة. أخبرته أنكِ لست كسولة وأنك قد تجهلين بعض الأمور لا أكثر. بالطبع حين جئتِ كنت تجهلين كل شيء لكني لم أخبره بذلك. وقلت إنكِ إن لم تعرفي

شيئًا قمتِ بتعلمه. وأنك مجتهدة، فإن طلبت منك شيئًا أعلم أنك ستنجزينه. يبدو أن السيد توم يريد شراءك».

«السيد فرانكلن لن يبيعني».

رفعت رأسها قليلًا ترميني بنظرة ازدراء. «لا. قد لا يبيعك. على العموم السيدة مارغريت لا تستلطفك».

هززت كتفي باستسلام.

«بنت الكلب» همست سارة كعادتها، ثم «رغم طمعها وطبعها الشرير فإنها على الأقل لا تزعج كاري».

نظرت إلى الفتاة البكماء تأكل الحساء وخبز الذرة مما تبقى من طاولة البيض «هل ضايقتك يا كاري؟».

هزت كاري رأسها وهي تأكل.

«طبعًا» قالت سارة بعدما انتهت من العجين، «فكاري لا تفيدها في شيء».

لم أجد ما أعلق به.

«أنت عالقة بين الاثنين» قالت، «تعرفين ذلك، صح؟».

«يكفيها رجل واحد».

«لا يهم ماذا يكفيها. المهم ما سيحدث. اجعليه يعيدك إلى العلية».

«أجعله!».

«يا بنتي...» ابتسمت قليلًا، «تظنين أني لم ألمحك معه وقت

تظنان أن لا أحد يراقبكما. أعرف أن بإمكانك جعله يفعل أي شيء تريدين».

فاجأتني بابتسامتها. كنت أظن أنها ستشعر بتقزز مني أو من كيفن.

«والمفترض» أردفت، «أن تستغلي شبابك وجمالك كي تدفعيه إلى منحك صك الحرية قبل أن تفوتك الفرصة».

رحت أدقق في ملامح وجهها، عينان سوداوان كبيرتان بوجه خالٍ من التجاعيد وبشرة أفتح عني بكم درجة. الأكيد أنها كانت جميلة. بل إنها مازالت تبدو جذابة. أجبتها بصوت هادئ: «وهل فكرت في ذلك يا سارة؟ حينما كنتِ شابة؟».

نظرت إليَّ بشزر، عيناها الواسعتان تضيق. ثم ابتعدت عني بلا رد.

٧

تجنبت مصير الساحة. أخذت بنصيحة المطبخ التي سمعت لوك يعطيها لنايجل. «لا تحاول مجادلة البِيض» قال لا تقل لا، لا تسمح لهم برؤيتك تغضب. فقط قل نعم سيدي ثم اذهب ونفذ ما أُمرت به. قد يأتيك السوط لاحقًا ولكن لا يهم ما دمت تلتزم بالحذر معهم».

قد رأيت أثر السوط على ظهر لوك ومرتين سمعت توم وايلن

يتوعده بالمزيد. لكنه لم يفعل. استمر لوك في عمله، يفعل ما يشاء. مهمته الإشراف على العاملين في الحقل. يسمونه «السائق» بمعنى المراقب الأسود. بشكل ما استطاع الحفاظ على هذا الدور على الرغم من تصرفاته. قررت أن أتبع أسلوبه دون المخاطرة بنفسي. لم أرد التعرض بأي شكل لسوط وايلن. كما أني أعلم أن كيفن سيأتي لنجدتي إن تواجد في الوقت المناسب.

على العموم، تجاهلت أمر مارغريت واستمررت في تدنيس بيتها المسيحي.

ولم يحدث شيء.

يومًا ما، استيقظ توم وايلن مبكرًا فوجدني أترنح نصف نائمة خارجة من غرفة كيفن. تجمدتُ في مكاني، ثم سيطرت على أعصابي. «صباح الخير سيدي».

كان على وشك الابتسام، لربما المرة الوحيدة التي رأيته يبتسم. ثم غمز لي.

هذا كل ما جرى! حينها فهمت أن مارغريت لو طردتني فلن يكون ذلك بسبب أمر عادي مثل النوم في سرير سيدي. ولسبب ما، بُعث فيَّ القلق من جديد. شعرت وكأني بالفعل أرتكب خطيئة مستمتعة بلعب دور العاهرة عند مالكي. عدت إلى الغرفة بقلقي هذا وبمشاعر من الخزي.

مرَّ الوقت. صرنا أنا وكيفن جزءًا من البيت، مألوفين، مقبولين،

متقبلين. حتى هذا يبث فيَّ مشاعر القلق. كيف يمكن لنا تقبُّل هذا الوضع. لا لأني أفتش عن المتاعب لكن تأقلُمنا في هذا الجزء من التاريخ من المفترض أن يكون صعبًا، التأقلم على العيش في بيت العبودية. بالنسبة إليَّ، قد يكون العمل شاقًّا، لكنه ممل أكثر من كونه منهكًا. سبق لكيفن أن اشتكى من الملل مثلي، ومن الاضطرار إلى مجالسة الضيوف المتفذلكين من زوار بيت وايلن. لكننا في نهاية الأمر، بالنسبة إلى عابرين من قرن آخر، أمورنا تجري بسهولة. وهذه السهولة تزعجني.

«العيش في هذا الزمن ممكن أن يكون تجربة عظيمة» قال كيفن مرة، «أتخيل التجربة لو عشنا هنا لفترة أطول، مع الاتجاه غربًا لنشهد بناء البلد. لنكتشف مدى صحة أسطورة الغرب القديم».

«الغرب» قلت بمرارة، «تقصد حيث المجازر ضد القبائل الأصلية بدلًا من السود!».

نظر إليَّ باستغراب. صارت نظرته هذه تتكرر أخيرًا.

مرة وجدني وايلن في المكتبة أقرأ كتابًا. كان من المفترض أن تقتصر مهمتي في المكتبة على الكنس والنفض. لمحته واقفًا، أغلقت الكتاب، وأعدته إلى مكانه ثم عدت لتنظيف الرفوف. ارتعشت يداي.

«تقرئين لابني» قال، «هذا أسمح به، لكنك لست بحاجة إلى القراءة لغير ذلك».

حل الصمت للحظة طويلة ثم قلت بتلعثم «نعم سيدي».

«بل من الآن فصاعدًا لن تنظفي هذه الغرفة، ستكون من مسؤولية كاري».

«حاضر سيدي».

«ولا تقتربي من الكتب».

«حاضر سيدي».

بعد ساعات في المطبخ، طلب مني نايجل أن أعلمه القراءة.

فاجأني الطلب، ثم خجلت من تفاجئي. إنه طلب طبيعي جدًّا. قبل سنوات، اختير نايجل ليصبح مرافقًا لروفوس. لو كان روفوس طالبًا جيدًا لتعلم نايجل منه بعض الأمور. ولكن الوضع الآن أن نايجل اضطر إلى تعلم مهارات أخرى. في الثالثة عشرة من العمر، يستطيع حدأ الفرس وبناء دولاب والتخطيط للهرب إلى بنسلفانيا يومًا ما. كان من المفترض أن أعرض عليه تعليمه القراءة منذ البداية.

«تعرف ماذا سيحل بنا نحن الاثنين إن عرفوا أني أعلمك القراءة، صح؟» سألته.

«خائفة؟» سألني.

«نعم. ولكن لا يهم. سأعلمك. أردت التأكد فقط من أنك تعي عاقبة الأمر».

أدار إليَّ ظهره ورفع قميصه يريني الندبات. ثم عاد وواجهني «أعرف».

في اليوم نفسه، سرقت كتابًا وبدأنا الدروس.

صرت أستوعب لماذا اندمجنا أنا وكيفن بسهولة في هذا الزمن. لأننا لم نندمج، بل كنا كمن يشاهد فيلمًا لا أكثر. نشاهد التاريخ يحدث من حولنا. بينما نلعب دور الممثلين. وحتى نعود إلى بيتنا، نقضي الوقت متظاهرين بأننا كبقية الموجودين. إلا أننا فاشلون في لعب أدوارنا. لم نتقن أدوارنا لأننا لم ننسَ كوننا مجرد ممثلين.

هذا أمر حاولت تفسيره لكيفن في اليوم الذي اتضح فيه أن الأطفال يفهمون ما يجري. فجأة صار مهمًّا عندي أن يفهم مقصدي.

كان يومًا حارًّا جدًّا حد الغثيان، الذباب والبعوض في كل مكان، والرائحة المقيتة الناتجة عن صنع الصابون، البيوت الخارجية والسمك الذي اصطادته الأجساد المتعرقة. الجميع رائحته سيئة، البِيض والسود سواء. لا أحد يغتسل كفاية أو يغسل ملابسه كفاية. يتعرق العبيد من العمل ويتعرق البِيض بلا عمل. لم نأتِ أنا وكيفن بما يكفي من الملابس أو مزيل العرق، فكثيرًا ما كانت رائحتنا نتنة مثلهم. ولكن المفاجأة أننا بتنا نعتاد ذلك أيضًا.

تمشيتُ وكيفن من البيت نحو الساحة. لم نتوجه إلى شجرة البلوط إياها فإن لمحتنا مارغريت وايلن فسترسل أحدًا ليكلفني بمهمة ما. قد يكون زوجها قد منعها من طردي لكنه لن يستطيع إيقافها عن مضايقتي أكثر من السابق. أحيانًا يحاول كيفن مناقضة أوامرها لي متحججًا بأنه قد كلفني بأمر ما. حينها أستغل الفرصة

لأخذ قسطًا من الراحة أو تعليم نايجل. ولكننا الآن متجهانِ إلى الغابة لنقضي بعض الوقت معًا.

ولكن قبل أن نبتعد كفاية عن المباني، رأينا أطفالًا مجتمعين حول جذع شجرة. على الأغلب أنهم أطفال العاملين في الحقل، لا يمكن تشغيلهم بعد. اثنان منهم يقفان عند الشجرة بينما يحيط بهم الآخرون متفرجين.

«ماذا يفعلون يا ترى؟» قلت.

«يلعبون على الأرجح» رد كيفن.

«لكن يبدو...».

«ماذا؟».

«لنقترب. أريد أن أسمع حديثهم».

اقتربنا نحوهم من جانب بحيث لا يلاحظوننا. استمروا في لعبتهم بينما نستمع ونتفرج عليهم.

«هذه أمامكم يا سادة خادمة» قال الولد الواقف مشيرًا إلى الفتاة الواقفة خلفه بقليل. «تجيد الطبخ والغسيل والكي. اقتربي يا فتاة كي يتفحصك الحضور». جرَّ الفتاة بالقرب منه. «شابة وقوية» قال، «سعرها باهظ. مئتا دولار. من منكم سيبدأ المزاد؟».

التفتت إليه الفتاة الصغيرة متجهمة «قيمتي أعلى من مئتين يا سامي!» تعترض، «بعت مارثا قبلي بخمسمئة دولار!».

«اخرسي» قال الولد، «المفروض لا تتكلمين. لمَّا السيد توم اشتراني وماما، ما قلنا كلمة».

التفتُّ مبتعدة عن الأطفال المتجمعين، تغلب عليَّ مشاعر القرف والإرهاق. لم أنتبه إلى أن كيفن يلحقني حتى تكلم.

«توقعت أنهم يلعبون هذه اللعبة» قال، «فقد رأيتهم يلعبونها من قبل. كما رأيتهم يلعبون لعبة الحقل».

هززت رأسي باستنكار «يا ربي، لماذا لم نرجع إلى البيت بعد؟ هذا المكان موبوء».

أخذ بيدي. «الأطفال يقلدون الكبار» قال، «لا يفهمون معنى أن...».

«ليس عليهم فهم أي شيء، فحتى هذه الألعاب تجهزهم للمستقبل وهذا المستقبل سيأتي سواء فهموا اللعبة أم لا».

«بلا شك».

التفتُّ أحدق إليه، بادلني النظرات بهدوء. كانت نظرته تقول لي «ما باليد حيلة». ولم أقل شيئًا لأنه بالطبع محق، لا يمكننا فعل شيء.

هززت رأسي باستسلام وفركت حاجبي بطرف إصبعي. «حتى معرفة ما سيحدث في المستقبل لا يغير من الأمر شيئًا» قلت، «أعرف أن بعض هؤلاء الأطفال في عمر متقدم سيشهدون الحرية، ولكن بعدما تضيع سنوات حياتهم في العبودية. وحتى تصلهم

الحرية، سيكون ميعادها قد فات. حتى في هذه اللحظة، لربما الميعاد قد فات».

«دانة، أنت تعطين لعبة الأطفال هذي أكبر من حجمها».

«وأنت تعطيها أقل من حجمها. وهذه اللعبة... هذه اللعبة ليست لعبتهم أصلًا».

«لا» نظر إليَّ ثم قال «اسمعي، لن أدَّعي أني أفهم شعورك الآن فربما هذا شعور يصعب تخيله. ولكن كما ذكرت، فإنك تعرفين مسبقًا ما سيحدث. كل شيء حدث بالفعل، وكل ما في الأمر أننا وجدنا أنفسنا الآن في منتصف التاريخ. بالتأكيد أننا لا نستطيع تغييره. وإن وقعت أي مشكلة، فقد لا يكون أمامنا سوى أن نبذل كل جهدنا كي ننجو بأنفسنا لا أكثر. حتى الآن نحن محظوظان».

«ربما» أخذت نفسًا عميقًا وأطلقته ببطء «لكني لا أستطيع أن أتجاهل ما يحدث من أمامي».

تجهم وجه كيفن وهو يفكر «عن نفسي، متفاجئ أن القليل يحدث هنا لنشاهده. لا يبدو أن وايلن يكترث لما يحدث هنا لكن العمل مستمر كما يريد».

«تظن أنه لا يراقبهم؟ هذا لأن لا أحد يستدعيك إلى حضور حلقات الجلد في الساحة».

«كم مرة؟».

«حضرت مرة واحدة، ولا أظن أني أحتاج إلى حضور غيرها!».

«صحيح، مرة واحدة أكثر من اللازم. ولكن هذا المكان ليس بالسوء الذي تخيلته فلا يوجد مراقب، كما أن العمل لا يفوق طاقة ما يتحمله الناس...».

«وظروف العيش لا ترقى لأي انسان» قاطعته، «ينامون على أرض قذرة، يأكلون أسوأ الطعام، لولا أنهم يسرقون من المطبخ ويزرعون بعض الخضار سرًا لماتوا جميعهم من الأمراض والتعب. ليست لهم أي حقوق، يعيشون كل يوم يخشون العقاب في أي لحظة أو احتمال بيعهم بعيدًا عن عائلاتهم، بسبب أو من دون سبب. كيفن، القسوة لا تقتصر على الضرب والجلد».

«لحظة» قال، «لا أحاول تصغير ما يحدث هنا أنا أردت فقط...».

«بل إنك تقلل من شأن معاناتهم. قد لا تعني ذلك لكن هذا ما قلته حالًا». جلست مسترخية على شجرة صنوبر طويلة. صرنا وسط الأشجار الآن. على مسافة ما، تعمل مجموعة من عبيد وايلن على قطع وحطب الأشجار. بإمكاننا سماعهم لكنهم ليسوا بمرأى منا. اعتقدت أنهم أيضًا غير قادرين على رؤيتنا، أو سماعنا عبر المسافة والضجة. عدت إلى حديثي مع كيفن ثانية.

«قد يكون بإمكانك أن تعبر هذه التجربة كمشاهد» قلت، «أتفهم ذلك، حتى أني أجد نفسي في محل المشاهد. ودور المشاهد يعطينا شعورًا بالحماية. وكأن ١٩٧٦ تحميني وتحتويني من ١٨١٩.

ولكن من وقت إلى آخر، كما مع لعبة الأطفال، أفشل في الحفاظ على هذه المسافة المفترضة. أجد نفسي أنجرف نحو ١٨١٩ ولا أعرف ماذا أفعل. أعلم أن عليَّ فعل شيء ما، هذا ما أعرفه».

«لا يمكنك فعل شيء دون تعريض حياتك للخطر، للجلد أو الموت».

لم أرد.

«هل... هل فعلت شيئًا قد يورطك؟».

«بدأت بتعليم نايجل الكتابة والقراءة» قلت، «لا أظن أن هنالك جريمة أكبر».

«ماذا لو عرف وايلن ولم أكن موجودًا بالجوار...».

«أعرف. لذا ابقَ في الجوار. الولد يريد أن يتعلم وأنا سأعلمه».

قرَّب ساقة من صدره وانحنى إلى الأمام ينظر إليَّ. «تتخيلينه في يوم ما يكتب صك حريته ويهرب شمالًا، صح؟».

«على الأقل سيكون له الخيار إن أراد».

«يبدو أن وايلن محق بكلامه عن المتعلمين من العبيد».

التفتُّ أنظر إليه.

«افعلي ما بوسعك مع نايجل» قال بهدوء، «ربما بعدما تختفين سيقوم بتعليم البقية».

هززت رأسي موافقة.

«كنت لأضعه مع روفوس ليتعلما معًا لكن لجدران هذا البيت آذان كبيرة. ومارغريت تتجول طوال الوقت».

«أعرف. لذلك لم أطلب منك ذلك» أغمضت عيني فرأيت الأطفال يلعبون اللعبة ثانية «أظن أن سهولة الأمور أرعبتني» قلت، «فهمت الآن».

«كيف؟».

«وكأن كل ما يحدث هنا طبيعي وسلس وعادي. الأطفال، نحن. لم أدرك أبدًا مدى سهولة تمرين البشر على تعود العبودية».

٨

ودَّعت روفوس في اليوم الذي وجدت نفسي في ورطة بسبب التدريس.

لم أكن أعي بالطبع أني أودعه ولكني لم أتخيل أي ورطة تنتظرني في المطبخ حيث ينتظرني نايجل. ظننت أن غرفة روفوس وحدها ورطة كافية.

كنت هناك أقرأ له. كنت قد انتظمت على القراءة له منذ تلك المرة التي اصطادني فيها والده. لم يرد لي توم وايلن القراءة لنفسي، لكنه أمرني بالقراءة لابنه. مرة أخبر روفوس في حضوري: «ألا تشعر بالخزي أن نيجر تعرف القراءة أحسن منك!».

«وأحسن منك كذلك!» رد روفوس.

حدق إليه والده ببرود، ثم أمرني بترك الغرفة. للحظة قلقت لأمر روفوس، لكن وايلن لحقني خارج الغرفة.

«لست بمدير مدرسة» قال، «ولكني أستطيع تعليمك الاحترام».

لم يجب روفوس.

«هل تريد أن تقرأ لك؟».

«نعم سيدي».

«معنى ذلك أن لديك ما تقوله لي بالأول».

«أنا... أنا آسف بابا».

«اقرئي» قال وايلن. ثم التفت وترك الغرفة.

«ما الذي تعتذر عنه بالضبط؟» سألت روفوس بعدما تأكدت من ابتعاد وايلن. بصوت هامس.

«لأني رددت عليه» قال روفوس، «أي رد مني قلة احترام، لذا لا أتكلم معه».

«فهمت» قلت ثم فتحت الكتاب أعاود القراءة جهرًا.

كنا قد انتهينا من روبنسون كروزو منذ فترة طويلة. اختار كيفن كتابين آخرين من المكتبة سبق واطلعت عليهما. انتهينا من كتاب «رحلة الحاج» والآن نقرأ «مغامرات جليفر». تحسن مستوى القراءة عند روفوس قليلًا تحت إشراف كيفن، لكنه لا يزال يستمتع بقراءتي له.

في يومي الأخير معه، قررت مارغريت، كما حدث في أيام أخرى أيضًا، أن تجلس وتستمع، تقوم بتمسيد شعره وتمسك بيده بينما أقرأ. كالعادة، استلقى روفوس برأسه في حجرها صامتًا. لكن اليوم، لسبب ما، لم يكفِها ذلك.

«هل أنت مرتاح؟» سألت روفوس بعدما بدأت بالقراءة بلحظات. «هل تؤلك ساقك؟» لم تكن ساقه قد تحسنت. مر شهران لم يتمكن خلالهما من المشي.

«بخير يا ماما» قال.

فجأة، أدارت مارغريت وجهها إليَّ، «طيب؟» قالت تأمرني بالقراءة.

كنت قد توقفت خلال قراءتي لأتركها تسأل أسئلتها. خفضت رأسي وعاودت القراءة. بعد ٦٠ ثانية، قاطعتني ثانية «حبيبي، هل تشعر بالحر؟ هل تريد أن أنادي على فيرجي كي يأتي بالمروحة ويرِّوح عنك الحر؟» كان فيرجي في العاشرة، من أصغر الخدم في البيت ممن مهمتهم الترويح على البيض، يرسلونهم في مشاوير، يحملون الأطباق المغطاة من المطبخ إلى البيت الرئيسي، يقفون على مقربة بانتظار أي أوامر خلال الموائد.

«أنا بخير يا ماما» أجاب روفوس.

«لماذا لا تكملين؟» نهرتني مارغريت، «أنت موجودة هنا كي تقرئي له فأكملي مهمتك!».

باشرت القراءة ثانية، أبتلع بعض الكلمات.

«هل أنت جائع يا حبيبي؟» سألته بعد لحظة، «العمة سارة خبزت كيكة. هل تريد قطعة؟».

لم أتوقف هذه المرة. فقط خفضت صوتي وقرأت بنبرة آلية.

«لا أفهم لماذا تريد الاستماع لها» قالت مارغريت لروفوس، «صوتها كما أزيز الذبابة».

«لا أريد كيكة».

«أكيد؟ لو ترى الكريمة التي وضعتها سارة فوق الكيكة».

«أريد أن أسمع دانة تقرأ، هذا كل ما أريد».

«طيب ها هي تقرأ. لو تعتبر هذه قراءة».

تركت صوتي ينخفض تدريجيًّا بينما يتحدثان.

«لا أسمعها وأنت تتكلمين» قال روفوس.

«حبيبي، كلُّ ما قلته...».

«لا تقولي شيئًا!» رفع روفوس رأسه عنها. «اتركي الغرفة ولا تزعجيني».

«روفوس!» بدا على صوتها الحزن لا الغضب. وبعيدًا عن مشاعري نحوها، لم يكن تصرفه لائقًا. توقفت عن القراءة وانتظرت الانفجار يحدث. بدأه روفوس.

«اخرجي يا ماما» صرخ، «اتركيني وحدي».

«اهدأ» همست، «حبيبي، لا ترهق نفسك أكثر».

التفت روفوس ينظر إليَّ. أرعبني تعبير وجهه. هذه المرة الوحيدة التي ألمح فيها شبهًا بينه وبين أبيه. يزم شفتيه في خط رفيع مستقيم، عيناه باردتان متوحشتان. صار يتحدث بهدوء الآن كما يفعل وايلن وهو غاضب. «أنت التي ترهقيني يا ماما. ابتعدي عني!».

نهضت مارغريت بعينين دامعتين. «لا أفهم لماذا تخاطبني بهذه الطريقة» قالت، «فقط لأن هذه النيجر...».

نظر إليها روفوس ثانية فالتفتت وتركت الغرفة.

استرخى على الوسادة مغمضًا عينيه «أتعب منها أحيانًا» قال.

«روف...؟».

فتح عينيه بقلق، نظرته الأليفة عادت وهو ينظر إليَّ. اختفى الغضب.

«من الأفضل أن تحذر» قلت، «ماذا لو اشتكتك لوالدك؟».

«لن تفعل» ابتسم، «وستعود ثانية بقطعة من الكيكة مغطاة بالكريمة».

«كانت تبكي».

«تبكي دائمًا. اقرئي يا دانة».

«هل تخاطبها بهذه الطريقة كثيرًا؟».

«مضطر. وإلا فلن تتركني لحالي. حتى بابا يكلمها هكذا».

أخذت نفسًا عميقًا أهز رأسي قبل أن أفتح الكتاب ثانية.

لاحقًا، بعدما تركت غرفة روفوس، صادفت مارغريت في طريقها إليه. وكما قال، كانت تحمل معها قطعة كبيرة من الكيكة.

نزلت إلى الطابق الأسفل وتوجهت إلى المطبخ كي أبدأ درس نايجل.

كان نايجل يترقب وصولي. أخرج الكتابَ وقرأ منه بصوت عالٍ كي تسمعه كاري. تفاجأت بها لأني قد عرضت على كاري تعليمها معه لكنها رفضت. ولكن الآن، ها هما وحدهما في المطبخ مندمجينِ في التهجئة إلى درجة أنهما لم يشعرا بوجودي حتى أغلقت الباب من ورائي. التفتا بنظرة رعب ثم استرخيا عند رؤيتي. اقتربت منهما.

«ترغبين بالتعلم؟» سألت كاري.

عاد الخوف يظهر على وجهها وعيناها على الباب.

«العمة سارة تخاف عليها» قال نايجل، «تخاف إن تعلمت فسيراها أحدهم ثم سيجلدونها أو سيبيعونها».

طأطأت رأسي متنهدة. الفتاة غير قادرة على النطق، لا تعرف طريقًا للتواصل فيما عدا لغة الإشارة التي اخترعتها بنفسها، لغة حتى أمها لا تفهمها دائمًا. لو كنا في مجتمع عقلاني، لكان من المهم لشخص مثلها تعلم القراءة والكتابة. ولكن هنا، العلم مسموح فقط لمن سيعاقبها على التعلم. ونايجل. نايجل.

أتنقل بنظراتي بين الولد والبنت. «هل تودين التعلم يا كاري؟»

لو قمت بذلك وعرفت أمها فإني قد أقع في ورطة أكبر من ورطة وايلن. كنت خائفة عليها وعلى نفسي. كما أني لا أريد أن أضايق سارة بأي شكل، لكن ضميري لن يرتاح إن أرادت كاري التعلم ورفضت طلبها.

هزت كاري رأسها موافقة. تريد أن تتعلم إذن. التفتت تعطينا ظهرها للحظات، تحرك فستانها قليلًا، ثم عادت إلى الطاولة وبيدها كتاب. هي أيضًا سرقت كتابًا من المكتبة. كان كتابها جزءًا من موسوعة التاريخ الإنجليزي فيه بعض الرسومات فتحتها أمامي تريني إياها.

هززت رأسي. «خبئيه أو أعيديه إلى المكتبة» قلت، «هذا الكتاب صعب عليك الآن. الكتاب الذي نستخدمه أنا ونايجل مناسب للمبتدئين». كتاب تهجئة قديم، على الأرجح كانت تستخدمه زوجة وايلن الأولى.

بأصابعها مسَّدت كاري على الرسومات ثم أغلقت الكتاب ووضعته تحت فستانها.

«الآن» قلت، «انشغلي بشيء ما قبل أن تعود أمك. لن نستطيع متابعة الدروس هنا، يجب أن نجد مكانًا آخر».

هزت رأسها، استرخى وجهها، نهضت تكنس الطرف الآخر من المكان.

«نايجل» قلت بهمس بعد أن ابتعدت «فاجأتك بدخولي هنا، صح؟»..

«لم أكن أعلم أنك من دخل».

«صح توقعت أني سارة؟».

لم يجب.

«أعطيك الدروس هنا لأن سارة سمحت لنا بذلك ولأن وايلن وزوجته لا يتواجدان هنا».

«صحيح، يرسلوننا لإبلاغ سارة بأوامرهم أو لاستدعائها».

«معنى ذلك أن بإمكاني تعليمك هنا ولكن لا أستطيع تعليم كاري هنا. أعلم أننا معرضانِ للخطر على أي حال، ولكن دعنا لا نجازف».

أومأ برأسه يوافقني.

«صحيح، كيف كان رد فعل والدك حين أخبرته عن الدروس؟».

«لا أعرف، لم أخبره أنك تعلميني».

يا ربي. أخذت نفسًا مرتعدًا. «ولكنه يعلم أنك تتعلم صح؟».

«على الأرجح أن العمة سارة قد أخبرته. لكنه لم يقل شيئًا».

لو ارتكبنا خطأ ما، فقد ينتقم السود مني قبل البِيض. متى سأعود إلى بيتي؟ هل سأعود إلى البيت؟ وإن اضطررت إلى البقاء هنا لم لا أرفض تعليم هذين الطفلين، أتجاهل ضميري، أصير جبانة، على الأقل قد أشعر بالأمن والراحة؟

أخذت الكتاب من نايجل وأعطيته قلمي وورقة. «امتحان تهجئة» قلت بهدوء.

اجتاز الامتحان. كل إجاباته صحيحة. تفاجأت بنفسي أحتضنه. ابتسم خجلًا وسعيدًا. ثم نهضت وألقيت بالورقة في نار الموقد. احترقت سريعًا بلهب الجمر. أحرص كل يوم على إخفاء أي دليل، ثم أشعر بالقرف من حرصي هذا. لم أستطِع منع نفسي من مقارنة دروس نايجل بدروس روفوس، فشعرت بالمرارة من الفارق.

التفت وعدت إلى الطاولة حيث جلس نايجل ينتظرني. لحظتها فتح وايلن الباب علينا ودخل.

ما كان المفترض أن يحدث هذا! بل إني منذ وصولي إلى هذا المكان لم يسبق لي رؤيته في المطبخ، أو أي أبيض آخر. حتى كيفن. سألت نايجل إن كانت ملاحظتي في هذا الشأن صحيحة.

ولكن ها هو توم وايلن ينظر إليَّ. خفض عينيه قليلًا متجهمًا. انتبهت إلى أني أحمل كتاب التهجئة في يدي، فقد حملته معي حين نهضت بل إني وضعت إصبعًا في الصفحة التي كنا سنبدأ الدرس منها.

سحبت إصبعي من الكتاب وتركته ينغلق. واضح أن السوط ينتظرني. أين كيفن؟ في مكان ما في البيت على الأرجح. قد يسمعني إن صرخت، ولن تدوم صرختي طويلًا على أي حال. الأفضل أن أتجاوز وايلن وأركض نحو البيت.

وقف وايلن عند الباب: «ألم أمنعك من القراءة؟».

لم أجب. لا شيء أقوله سيغير من الأمر شيئًا. شعرت بنفسي أرتعش. حاولت تهدئة نفسي. كل أملي ألا يلحظ وايلن. كلي أمل أن يكون نايجل قد التقط قلم الرصاص عن الطاولة. حتى الآن، قد أقع ضحية العقاب وحدي.

«أحسنت معاملتك» قال وايلن بهدوء، «وبالمقابل تسرقين مني! تسرقين من كتبي! تقرئين!».

التقط الكتاب من يدي وألقى به على الأرض. ثم أمسك ذراعي وجرني نحو الباب. التفت إلى نايجل أهمس له «كيفن!» فنهض نايجل من مكانه.

أخرجني من المطبخ، جرني مسافة عدة أقدام، ثم دفعني بقوة. سقطت على الأرض وقد انقطعت أنفاسي. لم ألمح السوط ولا الجلدة الأولى. لكنها جاءت مثل حديد حار على ظهري، تحرق قميصي الخفيف وتنطبع على جلدي.

صرخت، أتلوى. استمر وايلن يجلدني جلدة تلو الأخرى.

حاولت الزحف بعيدًا عن السوط، لكني فقدت كل القوة والتركيز اللازمين لفعل ذلك. لربما بقيت أصرخ أو أني صرت أنشج، لا أعلم. كل ما أعرفه أني أشعر بالألم. شعرت أنه ينوي قتلي، أني سأموت هكذا: وجهي على الأرض، فمي ملطخ بالدماء والتراب، رجل أبيض ينهال عليَّ باللعنات وهو يجلدني. حينها وددت فعلًا لو أموت. أي شيء أحسن لي من هذا الألم.

تقيأت. ثم تقيأت ثانية لأن وجهي تلطخ بالقيء.

رأيت كيفن، صورته مشوشة، لكني عرفته. رأيته يركض نحوي، بإيقاع متباطئ. رأيت ذراعيه وساقيه، لكنه لسبب لم يلمسني بعد.

فجأة استوعبت ما يحدث وصرت أصرخ، أو هكذا أظن. عليه أن يمسك بي، عليه أن يمسك بي أولًا!

فقدت الوعي.

الصراع

١

فعليًّا لم ننتقل للعيش معًا، أنا وكيفن. كانت شقتي بحجم علبة السردين على طريق كرينشو، بينما شقة كيفن -على شارع أولمبيك- أكبر وليست بعيدة عني. في شقة كل منا تزاحمنا الكتب، تحيط كل قطع الأثاث. لن يستطيع أحدنا الانتقال إلى شقة الآخر بكل هذه الكتب. ذات مرة اقترح كيفن أن أتخلص من بعض الكتب حتى يتسنى لي الانتقال إلى شقته.

«هل جننت!» قلت محتجة.

«كتب نادي القراءة فحسب، تلك التي لن تقرئي أيًّا منها».

كنا لحظتها في شقتي، أجبته «ماذا لو نذهب إلى شقتك الآن فأساعدك في انتقاء الكتب التي لن تقرأها؟بل إني سأحملها معك إلى الحاوية».

طالعني للحظة ثم تنهد دون إضافة كلمة أخرى. كنا نتنقل

بين شقتينا ذهابًا وإيابًا دون خطة. لاحظت أن ساعات نومي قلَّت عن أي وقت سابق. لكن ذلك لم يزعجني. بل إن لا شيء بات يزعجني. لا أقصد أني وقعت في حب وكالة التوظيف ولكني على الأقل لم أعد أركل الكرسي في الصباح.

«استقيلي» قال كيفن، «سأعاونك إلى أن تجدي وظيفة أفضل».

لو لم أكن أحبه لتسببت تلك اللحظة في نهاية علاقتنا. لم أقدم استقالتي. قد تكون الاستقلالية التي أتحصلها عبر الوكالة غير مستقرة، لكنها مهمة. أردت الاستمرار في العمل حتى أنتهي من كتابة روايتي، ثم أتفرغ للبحث عن وظيفة أفضل قد تتطلب مني ساعات عمل أكثر. وقتها سأترك الوكالة بلا رجعة. تعلمت من تجربتي مع خالي وزوجته أن حتى أقرب الناس إليك قد يتوقعون منك ما هو فوق طاقتك، فقط لأنك مدين لهم.

أعلم أن كيفن مختلف، لكن الموقف مختلف أيضًا. لم أتوقف عن العمل للوكالة.

وبعد مرور أربعة شهور على علاقتنا، سألني كيفن «ما رأيك لو نتزوج؟».

لا أعلم لمَ تفاجأت بسؤاله. «تريد أن تتزوجني؟».

«نعم، ألا تريديني زوجًا؟» قال بابتسامة عريضة. «ثم تطبعين مسوَّداتي على الآلة الكاتبة».

كنت منشغلة بتجفيف أطباق الأكل بعد العشاء. ألقيت المنشفة

في وجهه. سبق وطلب مني ثلاث مرات أن أطبع له كتاباته. في المرة الأولى، أنجزت المهمة بتأفف، لم أخبره كم أكره الطباعة على الآلة الكاتبة وكيف أني أكتب كل مسوداتي بخط اليد فيما عدا النسخ النهائية. لو كنت أريد الطباعة لذهبت إلى وكالة توظيف ترسلني إلى العمل في المكاتب بدلًا من المخازن. ولكن في المرة الثانية، شرحت له ورفضت. انزعج. ثم في المرة الثالثة عندما رفضت استشاط غضبًا. قال إن كنت لا أريد أن أقوم بخدمة صغيرة عندما يطلبها، فبإمكاني أن أرحل. فذهبت إلى البيت.

عندما قرعت جرس بيته في اليوم التالي بعد العمل، بدا متفاجئًا. «عدتِ؟».

«ألا تريد مني أن أعود؟».

«نعم... طبعًا. هلَّا طبعتِ هذه الصفحات لي الآن؟».

«لا».

«اللعنة يا دانة...!».

وقفت أنتظر منه أن يغلق الباب في وجهي أو يسمح لي بالدخول. تركني أدخل.

والآن يريد الزواج بيَ.

نظرت إليه. حدقت للحظات طويلة إلى وجهه. ثم التفت بعيدًا لأني لم أستطع التفكير وأنا أتابعه. «أنت... ليس لك أقارب يعترضون على زواجك بيَ، صح؟» استوعبت من خلال سؤاله

أني لم أكن مستعدة لموضوع الزواج، لأننا لم يسبق لنا الحديث كثيرًا عن عائلاتنا، وكيف سيتلقون خبر الزواج. لم أعِ أننا كنا نتفادى الحديث عنهم ولكن بشكل ما هذا ما حدث. حتى الآن، تبدو عليه المفاجأة.

«أختي هي من تبقَّى لي من عائلتي» قال، «لطالما حاولت تزويجي، تُردِّد أني بحاجة إلى الاستقرار. متأكد أنها ستحبك، صدقيني».

لم أصدقه. «أتمنى ذلك» قلت، «لكني أخشى أن خالي وزوجته سيكون لهما رأي آخر عنك».

التفت نحوي «فعلًا؟».

هززت كتفي. «أنت تعرف، هم من جيل مختلف. أحيانًا لا تعكس أفكارهم وقتنا هذا. أظن أنهم مازالوا يأملون أن أتعقل فأنتقل إلى بيتهم وأستكمل شهادة السكرتارية».

«هل سنتزوج؟».

اقتربت منه. «تعرف جيدًا أننا سنتزوج».

«هل أذهب معك لزيارة خالك وزوجته حين تفاتحينهما في الموضوع؟».

«لا، كلم أختك لو تريد. ولكن استعد، فقد يفاجئك ردها».

وبالفعل حدث. لم يجهزه تحذيري لرد فعلها.

«ظننت أني أعرفها جيدًا» أخبرني لاحقًا «أو هكذا ظننت. يبدو أن الوضع تغير بيننا أكثر مما توقعت».

«ماذا قالت؟».

«إنها لا تريد مقابلتك ولن تستقبلك في بيتها كما لن تستقبلني لو تزوجتك». عاد بظهره على الكنبة البنفسجية التي انتقلت بها إلى هنا. «وقالت كلاما لا أظن أنك تريدين سماعه».

«أصدق ذلك».

أومأ برأسه. «الغريب أني أحسست أنها تتفوه بكلام لا تؤمن به. وكأنها تقتبس أحدًا آخر، على الأرجح زوجها الوغد، لطالما تحملته من أجلها».

«زوجها عنصري؟».

«زوجها قد يكون نازيًّا. بل إنها أخبرتني ذلك على سبيل المزاح ولكن ليس في حضوره».

«لكنها تزوجته».

«تهور وإحباط. كانت ستتزوج أي أحد» ابتسم قليلًا، «أيام الثانوية، كانت تقضي كل وقتها مع صديقة لها لأن أيًّا منهما لم تجد ولدًا تصاحبه. كانت صديقتها سوداء وسمينة وبيتوتية، وكارول مثلها، بيضاء وسمينة وبيتوتية. لم نكن نعرف إن كانت تعيش في بيت الفتاة أم أن الفتاة تعيش في بيتنا. كان أصدقائي يعرفونها وصديقتها لكنها أكبر سنًّا لتصاحب أحدًا منهم، فأنا أصغرُها بثلاث سنوات. المهم أن صديقتها كانت تبعث فيها الراحة، سمنتا معًا وقررتا الذهاب إلى الكلية ذاتها حتى لا تفقدان صداقتهما.

ذهبت صديقتها إلى الكلية ذاتها فعلًا ولكن كارول غيرت رأيها وحصلت على شهادة مهنية كمساعد طبيب أسنان. ثم تزوجت بأول طبيب أسنان عملت لصالحه، رجل رجعي متعجرف يكبرها بعشرين سنة. والآن تعيش في بيت كبير في حي لاكانادا، وتردد عليَّ الكليشيهات العنصرية لأني أريد الزواج بك».

هززت كتفي لا أعرف كيف أعلق. هل أقول «ألم أحذرك؟» غيرت الموضوع «مرة تعطلت سيارة أمي في حي لاكانادا» قلت، «فاتصل سكان الحي بالشرطة ثلاث مرات وهي تنتظر خالي يأتي لمساعدتها. قالوا إنها شخص مشبوه. طولها ١٦١ سم ووزنها ٤٥ كيلو. خطرة فعلًا!».

«يبدو أن الرجل الرجعي اختار الحي المناسب».

«لا أعلم. حدث ذلك في بداية الستينيات قبل وفاة أمي، لربما تغيرت الأمور الآن».

«دانة، ماذا قال خالك وزوجته؟».

حدقت إلى يدي أستدعي حديثي معهم، تتشابك أصابعي من القلق. «أعتقد أن زوجة خالي تقبلت فكرة زواجي بك. تقول إن بشرة أطفالي ستكون أفتح. أو أفتح من بشرتي على الأقل. كانت تقول لي دومًا إن لوني لافت للنظر زيادة».

ظل كيفن يحدق إليَّ.

«ألم أخبرك أن تفكيرهم مختلف. لا تكترث زوجة خالي للبيض

ولكنها بالتأكيد تفضل السود ذوي البشرة الفاتحة. تناقض عجيب. في النهاية قالت إنها تسامحني على زواجي بك. ولكن خالي لم يقبل. ويبدو أنه أخذ الأمر بشكل شخصي».

«شخصي كيف؟».

«هو... هو الأخ الأكبر لأمي وكان بمثابة أب لي حتى قبل وفاة أمي لأن والدي تُوفي قبل أن أعرفه. والآن يظن أن زواجي بك بمثابة رفض له. أو هكذا يشعر. أزعجني ذلك، حقًّا. لم يبدُ عليه الغضب، وكأني كسرت قلبه. حتى أني قررت أن أنصرف وأتركه».

«ولكنه يعلم مسبقًا أنك ستتزوجين يومًا ما، كيف يرفض لك ذلك؟».

«لأني أتزوجك أنت» مددت يدي ألامس خصلات من شعره الرمادي، «يريد لي أن أتزوج واحدًا مثله، يشبهه. رجل أسود».

«آه».

«لطالما كنت قريبة منه. كان يتمنى لو تنجب زوجته لكنهما لم ينجحا في ذلك، فكنت بمثابة ابنة لهم».

«والآن؟».

«الآن... يمتلكون كم شقة في باسادينا، شقق صغيرة ولكن لطيفة. آخر ما قاله لي خالي أنه يفضل ترك ميراثه للكنيسة بدلًا من تركها لي فتقع بين أيادي البِيض. يبدو أن هذا أقسى ما خطر له فعله. أو هكذا يظن».

«اللعنة» تمتم كيفن، «اسمعي، هل ما زلت تريدين الزواج بي؟».

«نعم، تمنيت فقط لو.. تعرف.. لا يهم. الجواب نعم بالتأكيد».

«تعالي نذهب إلى فيغاس وننسى أن لنا أي أقارب».

وهكذا وجدنا أنفسنا في الطريق إلى فيغاس، تزوجنا هناك، ولعبنا القمار بحفنة الدولارات التي معنا. حين عدنا إلى شقتنا الجديدة الأوسع، وجدنا هدية من صديقتي المقربة، خلَّاطًا، وشِيكًا من جريدة الآتلانتك. أخيرًا بعت إحدى قصصي!

٢

استيقظت.

كنت مستلقية على بطني، وجهي منضغط إلى شيء بارد وقاسٍ. جسدي من العنق وأسفل يستلقي فوق شيء أقل صلابة. ببطء بدأت أنتبه إلى ضوء الشمس والظلال.

رفعت رأسي كي أجلس لكن ظهري يحترق بالألم. سقطت بوجهي على الأرضية، أرضية الحمام، حمامي. أنا في البيت.

«كيفن؟».

انتظرت الرد. بإمكاني النظر إلى المكان لكنني لم أُرِد.

«يا كيفن؟».

نهضت أشعر بالدموع الملوثة بالتراب تنزل على وجهي، شعوري

بالألم يتضاعف. يا إلهي، الألم! للحظات، لم يكن بيدي سوى الاستناد بظهري إلى الجدار وتحمله.

ببطء، استوعبت أني لست بالضعف الذي تصورته. بل إني حتى وقت استيقاظي كنت قد استجمعت قواي. كل ما في الأمر أن الألم يبطئ من حركتي، وكأني بلغت ثلاثة أضعاف عمري. لاحظت أني ملقاة هنا، جسدي في غرفة النوم ووجهي في الحمام. اقتربت من البانيو لأملأه بالماء الدافئ، لا أظن أن بإمكاني تحمل الماء الساخن أو البارد. التصق قميصي بظهري. وكأنه قُص إلى قطع ألصقت بي. أشعر بالجروح في ظهري. سبق أن رأيت صورًا توضح ظهور الناس الذين كانوا عبيدًا، أتذكر الندوب عميقة وقبيحة. أتذكر كيفن يخبرني كم أن بشرتي ناعمة.

نزعت البنطال والحذاء ودخلت البانيو بقميصي. أردت للماء أن يقلل من التصاق القطع بجلدي، حتى أستطيع رفعها من على ظهري.

في البانيو، جلست مطولًا دون حركة، تفكير، استماع لمن كنت أعرف أنه غير موجود في الشقة. الألم وحده يصاحبني. لم يكن الألم يومًا صديقًا لي، ولكنه الآن يثبتني في مكاني. يذكرني بواقع الأمور ويمنعني من الجنون.

ولكن كيفن...

انحنيت إلى الأمام أبكي على الماء الوردي الوسخ. جلد ظهري يتمدد بحركتي المؤلمة، والماء يزداد وردية.

كل ما قمت به انتهى بالفشل. لم أستطع التأثير على سير الأمور بأي شكل. قد يكون كيفن ميتًا. تائهًا في ١٨١٩، بل إنه ميت، على بعد عقود، بل ربما على بعد قرن مني.

قد أجد نفسي هناك ثانية، وقد أجده ينتظرني هناك، قد تمر عليه بضع سنوات هناك، وربما يكون على ما يرام. ماذا قال تلك المرة؟ عن التوجه غربًا ليرى التاريخ يحدث؟

وحتى رطبت جروحي وزال عنها القميص، كانت قواي قد خارت. شعرت بوهن لم أجربه من قبل. خرجت من البانيو وحاولت تجفيف جسدي قدر الإمكان. ثم جررت نفسي إلى الغرفة وألقيت بنفسي على السرير. بالرغم من كل هذا الألم، وجدت نفسي أقع في النوم.

كان البيت مظلمًا حين استيقظت، والسرير فارغ إلا مني. اضطررت إلى استدعاء كل شيء مرة أخرى. نهضت بصعوبة وألم لأحاول إيجاد ما يعود بي إلى النوم ثانية. لا أريد أن أبقى يقظة. بل إني لا أريد العيش حتى. أذكر أن كيفن حصل على حبوب منومة مرة حين كان يعاني من الأرق.

وجدت ما تبقَّى منها. كنت على وشك ابتلاع اثنتين منها حين وقعت عيني على المرآة. رأيت وجهي متورمًا ومنتفخًا وأكبر سنًّا. شعري متجعد على هيئة عقد، بني وملطخ بالتراب والدم. يبدو أني في حالتي الهستيرية السابقة نسيت غسله.

تركت الحبوب ودخلت إلى البانيو ثانية. هذه المرة فتحت الحنفية

لأغسل شعري. داهمني الألم كلما رفعت يدي. حتى الانحناء كان مؤلمًا. ملامسة الشامبو للجروح جعلتني أصرخ. حاولت الاغتسال ببطء، أكبت صرخاتي. فجأة شعرت بالغضب يغلبني فتحركت دون أن أكترث بالألم.

بعدما استعدت بعضًا من هيئتي الطبيعية، أخذت بعض المسكنات. لم تشكل فرقًا، ولكني على الأقل فهمت أن هنالك ما عليَّ فعله قبل العودة إلى النوم ثانية.

أحتاج إلى حقيبة بدلًا من الحقيبة القماشية تلك. حقيبة تناسب «نيجر». اخترت حقيبة من قماش الدينم كنت قد خيطتها أيام الثانوية لحصص الرياضة. حجمها مناسب وشكلها باهت كفاية.

كنت سأضع فستانًا في الحقيبة، لكني لا أملك سوى فساتين سهرة، لو ارتديت إحداها فالأكيد أنها ستجعل مني محط انتباه وعلى الأغلب مادة للسخرية. الأفضل أن أستمر في دور المرأة التي ترتدي ملابس الرجال.

أخذت بنطالي جينز ووضعتها في الحقيبة. ثم حذاءً وقمصان وسترة صوفية، مشطًا وفرشاة ومعجونًا، كم كنا نشتاق إلى هذه الأشياء أنا وكيفن، وقطعتين من الصابون، إسفنجة، وعلبة أسبرين، إن استدعاني روفوس وأنا على هذا الحال فسأحتاج إلى المسكنات، ووضعت أيضًا المطواة. عادت المطواة معي إلى هنا لأني كنت أحملها في غمد جلدي يحول كاحلي. لا أعلم هل كنت محظوظة لأني لم أضطر إلى استخدامها ضد وايلن. لكنت قتلته. كنت غاضبة ومرعوبة

ومهانة كفاية لأحاول قتله. لو استدعاني روفوس فسأضطر لمواجهة العاقبة. أو سيضطر كيفن إلى تحمل ذلك. فجأة وجدتني سعيدة لأني لم أقتل وايلن. ما يعيشه كيفن ورطة كافية. كما أني حين أرى روفوس ثانية -لو رأيته- فسأكون بحاجة إليه. ولا أظنه سيساعدني لو كنت قد قتلت والده، حتى وإن كان لا يحبه.

وضعت في الحقيبة قلم رصاص وقلم حبر ودفترًا. وكأني أفرغ درج كيفن تدريجيًّا. مازالت أغراضي في الصناديق. كما أني وجدت كتاب تاريخ العبودية في أمريكا. قد يفيدني. فيه كل الأحداث المهمة ويتضمن خريطة لميريلاند.

صارت الحقيبة مليئة فوق الإمكان ولكني أغلقتها وربطتها بحبل ثم لففت الحبل حول ذراعي. لا أستطيع تحمل ملمس الحبل حول وسطي.

فجأة شعرت بمعدتي خاوية. دخلت المطبخ فوجدت نصف علبة من الزبيب وأخرى من المكسرات. أكلت كل ما فيهما ثم عدت إلى النوم بسهولة.

استيقظت في الصباح فوجدت أني ما زلت في البيت. ظهري يؤلمني كلما تحركت. دهنته بمرهم يستخدمه كيفن حين يحترق من ضربة شمس. آثار السوط تحرقني كالنار. ساعد المرهم في تهدئتها قليلًا. لكني بحاجة إلى شيء أقوى. لا أريد تخيل نوع الالتهابات التي قد تنتج من ندوب مغطاة بالدماء والزيت. أذكر أن وايلن قد أمر بسكب محلول ملحي على ظهر عامل الحقل بعد جلده. مازالت

صرخات الرجل تطن في أذني وهم يسكبون المحلول على جلده. لكن الندوب تعافت بلا التهابات.

وبينما أستدعي حادثة عامل الحقل شعرت بالدوار. ظننت للحظة أن روفوس يستدعيني ثانية. لكني أدركت أنه ليس دوارًا، بل حالة من الاضطراب، فذكرى رجل الحقل تبدو غريبة في عالمي هنا.

خرجت من الحمام إلى الغرفة. تجولت في الشقة وتفقدت كل زواياها. بيتي. السرير بلا غطاء، الأدراج، الخزانة، الضوء الكهربائي، التليفزيون، الراديو، الساعة الإلكترونية، الكتب. بيتي. لا علاقة له بالمكان الذي كنت فيه. هنا مكاني الحقيقي. إلى هذا المكان أنتمي.

ارتديت ثوبًا فضفاضًا وخرجت إلى الشرفة. من الشرفة المجاورة، لمحتني جارتي ذات الشعر الأزرق وألقت عليَّ تحية الصباح. جلست على ركبتيها ويديها تحفر في حديقتها الصغيرة تستمتع بوقتها. ذكرتني بمارغريت وايلن فهي الأخرى تحب زرع الزهور. كنت قد سمعت ضيوفها يمتدحون الزهور في بيتها ولكن في النهاية لم تكن هي من زرعتها ورعتها.

لا أعرف كيف أجعل الأمس يتسق مع يومي هذا. ظننت أن عودتي للبيت هذه المرة لن تكون بنفس غرابة المرة الأولى، عالقة بين بيت روفوس وبيتي.

على الجانب الآخر من الشارع هنالك سيارة فولفو مركونة قرب عواميد الكهرباء. وها هي أشجار النخيل والشوارع المعبدة.

ومن خلفي الحمام الذي خرجت منه، لا الحفرة التي يعتبرونها حمامًا في ذاك البيت، تحبس أنفاسك بينما تحاول الوقوف فوقها.

رجعت إلى داخل البيت وشغلت الراديو على محطة أخبار. علمت أن التاريخ الجمعة ١١ يونيو ١٩٧٦. معنى ذلك أني اختفيت شهرين في ذلك الزمن، وعدت البارحة إلى هذا الزمن، عدت في اليوم نفسه، كل ذلك في يوم واحد. كل ما يحدث لا يبدو حقيقة.

لربما قضى كيفن سنوات من دوني حتى إن وصلت إليه اليوم وعدت به إلى هنا الليلة.

غيرت المحطة إلى إذاعة الموسيقى ورفعت الصوت إلى أعلاه علَّ أفكاري تخرس.

قضيت الوقت أكمل فتح الصناديق ووضع الأشياء في أماكنها، أتوقف مرات كثيرة لابتلاع المزيد من المسكنات. بدأ مكتبي يتشكل تدريجيًا. جلست وحاولت الكتابة عمّا أمر به، انتهت بست محاولات فاشلة مزقتها جميعًا. ربما يومًا ما حين ينتهي كل هذا، لو انتهى، قد يمكنني الكتابة عمّا جرى.

اتصلت بابنة عمتي المفضلة في باسادينا أطلب منها التبضع لي. أخبرتها أني مريضة وأن كيفن مسافر. يبدو أن نبرة صوتي وشت بشيء ما لأنها لم تحاول استجوابي.

ما زلت أخشى ترك البيت، سواء مشيًا أو بالسيارة. إن قدت السيارة فقد أتسبب بموتي أو موت أحدهم إن استدعاني روفوس

فجأة في الوقت الخطأ. ولو مشيت فقد يصيبني الدوار فأسقط خلال عبوري الشارع، أو على الرصيف فيحاول أحدهم مساعدتي، رجل شرطة مثلًا، ثم أأخذه معي إلى ذاك الزمن فيعلق هناك.

كانت ابنة عمتي صديقة مخلصة. ألقت نظرة على ظهري وأوصتني بالاتصال بطبيب تعرفه. كما أنها أوصتني بإبلاغ الشرطة عن كيفن. ظنَّت أنه من تسبب لي بالجروح. ولكن حين طلبت منها ألَّا تخبر أحدًا، كنت أعرف أنها ستفي بوعدها، فقد كبرنا معًا، تحتفظ الواحدة بأسرار الأخرى.

«لم أتخيل يومًا ما أن تكوني من الحماقة بحيث تسمحين لرجل ما أن يضربك» قالت وهي تهم بالخروج من شقتي. فهمت أني خيبت آمالها.

«ولا أنا» همست لنفسي بعدما رحلت.

جلست في البيت أنتظر إلى جانب حقيبة الدينم. مرت الأيام ببطء، أحيانًا شعرت أني أنتظر شيئًا لن يحدث. لكني ظللت أترقب.

قرأت كتبًا عن العبودية، أدبية وتوثيقية. قرأت كل كتاب متاح في البيت إن كانت له أي صلة بموضوع العبودية، حتى «ذهب مع الريح» أو على الأقل جزءًا منها، إلا أن تصويرها للسود في حالة من الرومانسية المختلقة استفزني.

ثم بشكل ما وجدتني منغمسة في أحد كتب كيفن عن الحرب العالمية الثانية. كتاب يحتوي شهادات للناجين من المخيمات النازية

وما تعرضوا له من ضرب وتجويع وقذارة وأمراض وتعذيب وغيرها من أساليب التحقير والانحطاط الممكنة. وكأن الألمان يحاولون في سنوات قليلة تقليد كل ما فعله الأمريكيون خلال قرنين من الزمن.

وجدتني محبطة بعد قراءة هذه الكتب، خائفة، أخذت حبوب كيفن المنومة ووضعتها في حقيبتي. كأمثالهم النازيين، عرف البيض هنا الكثير عن التعذيب، أكثر مما تحتمل طاقتي معرفته.

٣

قضيت في البيت ثمانية أيام قبل أن يعود الدوار ليداهمني مرة أخرى. هل أرحب بالنقلة حتى أتمكن من إنقاذ كيفن أم أقاومها من أجلي؟ لكن ذلك لم يغير من الأمر شيئًا.

انتقلت إلى زمن روفوس بكامل ملابسي ومعي حقيبتي والمطواة. وصلت على ركبتي أشعر بالغثيان والدوار، لكنني تداركت نفسي سريعًا وصرت متيقظة وحذرة.

وجدتني بين الأشجار، قد تكون بداية اليوم أو نهايته. كانت الشمس منخفضة ومحاطة بالأشجار مثلي، كيف لي أن أعرف إن كانت على وشك الشروق أم الغروب؟ لمحت النهر قريبًا مني يجري بين أشجار طويلة. على الجانب الآخر، هنالك امرأة سوداء شابة، بل فتاة، فستانها ممزق من الأمام، تحاول تغطية نفسها بينما يتشاجر رجلان أمامها، أبيض وأسود.

من شعره الأحمر تعرفت على الرجل الأبيض. خدوش وجهه علامة أخرى. يبدو أنه يخسر العراك أو قد انهزم بالفعل. كان الرجل الذي يصارعه بذات حجمه وبنيته الضئيلة، إلا أنه رغم ضآلته بدا قويًا. قد تكون سنوات العمل الشاق سبب صلابته. لم يتأثر بالضربات التي حطت على وجهه وجسده، بينما ضرباته تكاد تجهز على روفوس.

انتبهت أنه قد يحاول بالفعل قتل روفوس، قتل الشخص الوحيد الذي سيدلني على كيفن. يقتل جدي الأكبر. ما يحدث هنا واضح. الفتاة، ثوبها الممزق. إن كانت الأمور كما تبدو عليه فإن روفوس قد ارتكب ما يستحق عليه هذه الضربات وأكثر. لربما صار روفوس أسوأ مما خشيت. ولكن بغض النظر عن أي شيء ارتكبه، أنا بحاجة إليه من أجل كيفن ومن أجلي.

شاهدته يسقط، ينهض، ثم يسقط ثانية إلى الأرض. هذه المرة ينهض ببطء. يبدو أنه سقط ونهض كثيرًا، لكنه لن يصمد أكثر.

اقتربت منهم فلمحتني المرأة. صرخت بكلام لم أفهمه لكن الرجل استدار إليها، ثم تابع نظرتها تجاهي. وفي تلك اللحظة، وجه روفوس ضربة إلى فكه.

المفاجأة أن الرجل الأسود ترنح إلى الخلف وكاد أن يسقط. لكن روفوس كان من الوجع والإنهاك بحيث لم يستطِع توجيه ضربة أخرى تنهي على خصمه. رد الرجل الأسود بلكمة قوية أخرى انهار بعدها روفوس. لن ينهض هذه المرة، واضح أنه فقد وعيه.

وبينما أقترب منهم، راح الرجل الأسود يجر روفوس من شعره ليوجه لكمة أخرى إليه. وقفت أمام الرجل بسرعة: «ماذا سيفعلون بك إن قتلته؟» قلت.

رفع الرجل بصره لينظر إليَّ بغضب.

«وماذا سيفعلون بها إن قتلته؟» سألته.

يبدو أن سؤالي هذا نجح في إيقافه. فك قبضته عن روفوس ووقف يواجهني. «ومن سيخبرهم بما فعلت؟» كان صوته منخفضًا يحمل نبرة تهديد. قد ينتهي بي الأمر إلى جانب روفوس بعد لحظات.

هززت كتفي «ستخبرهم أنت بما فعلت إن سألوك. هي أيضًا ستعترف».

«وماذا عنك؟».

«لو استطعت فلن أنطق بكلمة، لكني أطلب منك ألا تقتله».

«هل يملكك؟».

«لا، كل ما في الأمر أنه يعرف مكان زوجي وقد أستطيع الحصول على معلومات منه».

«زوجك؟» تفحصني بنظرة من رأسي إلى قدمي. «ولمَ ترتدين ملابس الرجال؟».

لم أرد. جزعت من هذا السؤال إلى درجة أني تمنيت لو خرجت لشراء فستان. التفت إلى وجه روفوس المدمى وقلت «لو تركته

هنا الآن فستفوته فرصة إرسال أحد لمطاردتك. وقد تتمكن من الهرب».

«هل كنت ستريدين له العيش إن كنتِ في مكانها؟» أشار بيده نحو المرأة.

«زوجتك؟».

«نعم».

ذكرني الرجل بسارة، يحاول السيطرة على غضبه، بدلًا من قتله. لا يمكنني تخيل ما يمر به. قضى حياته يحاول السيطرة على غضبه وثورته، ثم يتردد في لحظة مثل هذه. «ألن تريدي لزوجك قتل هذا الرجل؟».

هزت المرأة رأسها وانتبهت أن وجهها متورم من الجانب الآخر. «كانت لديَّ فرصة لقتله مسبقًا» قالت، «الآن.. إسحاق دعنا نهرب أرجوك».

«نهرب ونتركها هنا؟» رمقني بنظرة ريبة عدائية. «حتى طريقة كلامها لا تشبه أي نيجر عرفته. واضح أنها عاشت مع البِيض طويلًا».

«تتكلم هكذا لأنها جاءت من مكان بعيد» قالت الفتاة.

التفت إليها متفاجئة. طويلة ونحيلة وغامقة اللون. تشبهني قليلًا. أو كثيرًا.

«أنتِ دانة صح؟» سألتني.

«نعم... كيف عرفت؟».

«أخبرني عنك» قالت بينما تلكز روفوس بقدمها «لم يتوقف عن الحديث عنك. رأيتك مرة عندما كنت صغيرة».

أومأت برأسي «أنتِ آليس إذن. ظننت ذلك».

هزت رأسها تمد يدها إلى وجهها المتورم «أنا آليس» ثم نظرت إلى الرجل الأسود وقالت بفخر «آليس جاكسون الآن».

حاولت استدعاء شكلها كما رأيتها المرة الأولى، طفلة صغيرة مرتعدة، قبل شهرين فقط. أمر مستحيل. المفروض أني اعتدت المستحيل الآن، والمفروض أيضًا أني اعتدت الرجال البِيض ومطارداتهم لنساء السود. أولهم وايلن نفسه. لسبب ما، ظننت أن روفوس سيختلف عنه. تساءلت في نفسي إن كانت الآن حبلى بهاجر.

«كان لقبي جرين - وود حين التقينا تلك المرة» أردفت آليس، «تزوجت إسحاق العام الماضي... قبل وفاة ماما».

«ماتت؟» وجدتني أتخيل امرأة في سني ميتة على الرغم من أنه تخيل خاطئ. قد تكون أكبر سنًّا عند موتها لكنها لم تكن مسنة بعد. «يؤسفني سماع ذلك» قلت، «لقد حاولت مساعدتي».

«ساعدت الكثير من الناس» قال إسحاق، «كانت تعامل هذا الوغد أفضل من معاملة أهله له» ثم ركل روفوس في خصره.

اهتز جسدي فجأة وتمنيت لو أجر روفوس بعيدًا عنه، «آليس»

قلت، «ألم يكن روفوس صديقك؟ هل انتهت صداقتكما بعدما كبرتما؟».

«أراد أن نكون أكثر من صديقين» قالت، «بل إنه طلب من القاضي هولمن إرسال إسحاق إلى الجنوب حتى يتخلص منه قبل زواجنا».

«عبد؟» قلت لإسحاق متفاجئة، «يا إلهي يجب أن تختفي سريعًا من هنا».

نظر إسحاق إلى آليس بنظرة تلومها على ثرثرتها. وردت آليس على نظرته.

«إسحاق لا تخف منها. لقد جلدوها مرة لأنها حاولت تعليم القراءة لأحد العبيد. بل إن توم وايلن جلدها بنفسه».

«أريد أن أعرف ماذا ستفعل بعد رحيلنا» قال إسحاق.

«سأبقى مع روفوس» قلت، «سأنتظر أن يستيقظ ثم آأخذه إلى البيت ببطء. ولن أخبره إلى أين ذهبت لأني لن أعرف ذلك».

نظر إسحاق إلى آليس وضغطت هي على ذراعه «هيا لنذهب» قالت.

«لكن...».

«لن تستطيع قتل الجميع! هيا!».

وبينما يوشك على الرحيل استوقفته بقولي «إسحاق، لو تريد،

بإمكاني كتابة ورقة إذن. لن نحتاج لذكر وجهتك النهائية لكنها قد تساعدك إن أوقفكم أحدهم».

أجابني بنظرة ريبة ثم سار مبتعدًا عني دون تعليق.

ترددت آليس للحظات ثم قالت بصوت منخفض «لقد رحل رجلك» قالت، «انتظر عودتك مطولًا ثم رحل».

«إلى أين؟».

«مكان ما شمالًا. لا أعلم. لكن روفوس يعرف. عليك بالحذر. مستر روفوس يتصرف بجنون أحيانًا».

«شكرًا».

استدارت تلحق بإسحاق. تركاني هنا مع روفوس فاقدًا وعيه، أتخيل إلى أين سينتهي بهما الطريق. شمالًا إلى بنسلفانيا؟ آمل ذلك. وإلى أين ذهب كيفن؟ ولمَ ترك المكان؟ وماذا لو لم يساعدني روفوس في إيجاده؟ ماذا لو عدت إلى بيتي قبل أن أجد كيفن؟ لمَ لم يبقَ هنا؟

٤

ركعت بجانب روفوس وقلبته على ظهره. أنفه ينزف. شفته تنزف. أعتقد أنه فقد بعض أسنانه لكني لم أتفحصها عن قرب. وجهه محفور بالجروح ويبدو أنه سيضطر إلى النظر إلى العالم بعيون متورمة لفترة ما. لا أظن أن جسده تأذّى كما قد توحي هيئته، بالتأكيد أن هنالك جروحًا أخرى لا أستطيع رؤيتها دون شلح

ملابسه، لكنه بخير. قد يشعر ببعض الألم عند الحركة، وكم يستحق هذا الألم!

جلست على ركبتي أحدق إليه بانتظار أن يستعيد وعيه، ثم تمنيت لو يبقى في حالة الإغماء أطول حتى يتسنى لآليس وزوجها الهرب. انتبهت إلى مجرى النهر قربي وفكرت أن أرش بعض الماء على وجهه. لكني بقيت في مكاني فحياة إسحاق في خطر. قد يكون روفوس انتقاميًّا ويصل به الأمر إلى قتل الرجل، فالعبد لا حقوق له والأكيد أن لا شيء سيبرر اعتداءه على رجل أبيض.

لو بإمكاني، لو كان روفوس الصبي الذي عرفته، لمنعته من ملاحقة إسحاق. أظن أنه في سن ١٨ أو ١٩ الآن. لم يعد طفلًا، سأضغط عليه وأستفزه. سيعي أخيرًا أنه يحتاجني كما أحتاجه. على كلٍّ منا أن يتناوب على مساعدة الآخر. ليس من صالحنا أن نتردد في ذلك. علينا أن نتعاون، على كلٍّ منا أن يضحي من أجل الآخر.

«مَن هنا؟» قال روفوس فجأة. بصوت ضعيف بالكاد أسمعه.

«أنا دانة يا روف».

«دانة؟» فتح عينيه المتورمتين قليلًا «عدتِ!».

«ما دمت تستمر في تعريض حياتك للخطر، مضطرة».

«أين أليس؟».

«لا أعرف. لا أعرف حتى أين نحن. سأساعدك على العودة إلى البيت إن أرشدتني إلى الطريق».

«أين ذهبت؟».

«لا أعرف يا روف».

حاول الجلوس، لكنه سقط ثانية يتأوه. «أين إسحاق؟» تمتم. «يجب أن ألحق بابن الكلب هذا».

«استرح قليلًا» قلت، «استعد قواك أولًا. حتى لو كان هنا الآن فلن تتمكن من لمسه».

أخذ يتأوه بينما يحاول تلمس أوجاعه ببطء. «سيدفع الثمن!».

نهضت متجهة نحو النهر.

«إلى أين؟» قال يناديني.

لم أجبه.

«دانة؟ تعالي! دانة!».

شعرت بنبرة الاستجداء في صوته. يتلوى وحيدًا لا أمل له غيري. لم يستطع النهوض حتى، يظن أني سأتركه هنا. والحقيقة أني أردت أن أبث فيه بعض الخوف.

«دانة!».

سحبت منشفة من حقيبتي وبللتها بماء النهر ثم عدت إليه. جلست بجانبه أمسح الدم عن وجهه.

«ظننت أنكِ ستتركيني!» قال وهو يلهث واضعًا يده على خصره حيث ركله إسحاق.

نظرت إليه أفكر، هل كبر هذا الطفل بالفعل؟

«دانة، تكلمي!».

«بل تكلم أنت».

طالعني وقال «ماذا؟» شممت رائحة خمرة عند اقترابي منه. لم يبدُ عليه أنه سكران لكنها بالتأكيد رائحة خمرة. بدأت أقلق لكن ما بيدي حيلة. لن أجرؤ على الانتظار حتى يستعيد كامل وعيه.

«أخبرني عن الرجال الذين هاجموك» قلت.

«أي رجال؟ إسحاق...».

«الرجال الذين كنت تشرب معهم» ارتجلت، «كانوا غرباء، رجالًا بيضًا. دعوك إلى الشرب معهم ثم سرقوا ما عندك». استخدمت قصة كيفن.

«اللعنة، هذه تخاريف، تعلمين أن إسحاق جاكسون هو من هاجمني!» قال بصوت هامس غاضب.

«طيب، إذا كان إسحاق قد ضربك» قلت، «فلأي سبب؟».

حدق إليَّ دون أن يجيب.

«اغتصبت امرأة، أو حاولت اغتصابها فقام زوجها بضربك» قلت، «أنت محظوظ أنه لم يقتلك. كان على وشك قتلك لو لم نتدخل أنا وآليس. والآن ماذا ستفعل لرد هذا المعروف؟».

اختفت تعابير الغضب والصدمة عن وجهه، يطالعني بلا رد. ثم

بعد لحظات، أغمض عينيه ونهضت إلى النهر كي أبلل المنشفة ثانية. ثم وجدته يحاول النهوض أكثر من مرة ويفشل. أخيرًا، سقط على ظهره يتأوه ممسكًا بخصره.

تساءلت إن كان قد تأذّى فعلًا كما يبدو عليه، ربما يعاني من كسر في أضلاعه.

اقتربت منه ثانية أمسح ما تبقى من الدم والتراب عن وجهه. «روف، هل اغتصبت البنت؟».

بدا شعور الذنب عليه وهو يشيح بوجهه عني.

«لماذا؟ ألم تكن صديقتك؟».

«في الصغر» قال بصوت ناعم، «كبرنا الآن. ويبدو أنها كبرت عليَّ أيضًا لتفضل نيجرًا وضيعًا بدلًا مني!».

«تقصد زوجها؟» سألته محاولة السيطرة على نبرة صوتي.

«ومن غيره الملعون!».

«نعم» طالعته بمرارة. يبدو أن كيفن محق. يا لحماقتي عندما تخيلت أن بإمكاني التأثير عليه. «نعم» كررت، «كيف تتجرأ على اختيار زوجها بنفسها. يبدو أنها جنت لتتصرف كامرأة حرة».

«وما علاقة ذلك بالموضوع؟» سأل، ثم عاد صوته إلى الهمس ثانية «كنت سأعتني بها أفضل من أي رجل من عمال الحقل. ما كنت سأؤذيها لولا أنها استمرت برفضي».

«من حقها أن ترفض من تشاء».

«طيب سنرى أين ستذهب بحقوقها».

«وماذا؟ هل تخطط لإيذائها ثانية؟ حالًا ساعدتني في إنقاذك من الموت، هل نسيت؟».

«سيقع عليها العقاب، سواء مني أو من غيري» قال مبتسمًا، «وإذا حاولت الهرب مع إسحاق فسيكون العقاب أضعافه».

«لماذا؟ ماذا تقصد؟».

«أفهم من ذلك أنها هربت معه؟».

«لا أعلم. استنتج إسحاق أني حليفتك هنا فلم يثق بي ليخبرني بأي شيء».

«ليس عليه قول شيء. اعتدى إسحاق على رجل أبيض. لن يضطر إلى مقابلة القاضي هولمن. لربما لو كان نيجرًا آخر لاختلف الأمر، سيُعدُّ هاربًا وآليس ساعدته على الهرب. هكذا سيرى القاضي الأمر».

«وماذا سيحدث لها؟».

«السجن مع حصة جيدة من الجلد، ثم يبيعونها».

«فتصبح عبدة؟».

«الذنب ذنبها».

يا إلهي أرجوك أن تخلص إسحاق وآليس. أن تخلصني أنا. لو استطاع روفوس خيانة صديقة طفولته فإنه لن يتردد معي.

«لا أريد لها أن تُباع في الجنوب» استدرك، «بغض النظر أنها أخطأت، لا أريد لها أن تموت في مستنقع ما هناك».

«لمَ لا؟» سألت بمرارة، «لمَ يهمك مصيرها؟».

«أتمنى لو لم أكترث لأمرها».

تجهمت بينما أنظر إليه. تغيرت نبرة صوته فجأة. هل سيُظهر بعض الرحمة الآن؟ هل تبقت عنده ذرة من الإنسانية؟

«حكيت لها عنك» قال.

«أعرف فقد تعرفت عليَّ حين ظهرت».

«أخبرتها بكل شيء. حتى عن زواجك بكيفن. أو بالأخص ذلك».

«وماذا ستفعل بها يا روف؟ حينما يأتون بها؟».

«أشتريها. لديَّ بعض المال».

«ماذا عن إسحاق؟».

«إلى الجحيم» رد بانفعال حتى أنه توجع من خصره وتلوى وجهه.

«تقصد أنك ستتخلص من الرجل وتحظى بالمرأة كما أردت» قلت باشمئزاز، «مكافأة الاغتصاب».

التفت نحوي يحاول فتح عينيه المتورمتين. «توسلت إليها ألَّا تذهب معه» أجاب بهدوء، «هل تفهمين صعوبة التوسل؟».

لم أعلق. فهمت أنه متيم بها لسوء حظها. فاغتصاب امرأة سوداء ليس بعار ولكن الوقوع في حبها عار. «لم أرد جرجرتها وسط الأشجار هكذا» قال روفوس، «لم أرد للأمر أن يحدث هكذا لكنها أصرت على الرفض. كان بإمكاني مسبقًا أن آأخذها بين الأشجار لكني لم أفعل».

«أعرف» قلت.

«لو عشت في وقتك، فلربما كنا قد تزوجنا. أو حاولنا» قال وهو يحاول النهوض ثانية. استعاد بعض قوته لكنه مازال يتألم. جلست أتابعه بنظراتي دون تقديم المساعدة. لم أرد له العودة إلى البيت. على الأقل أريد أن أتأكد مما سيقوله عن إسحاق وآليس.

أخيرًا، انتصر الألم عليه فعاد يستلقي مرة أخرى. «ما الذي فعله بي الوغد؟» تمتم.

«بإمكاني أن أذهب لطلب المساعدة» قلت، «لو ترشدني إلى الطريق».

«انتظري» وصار يكح بقوة ويتوجع من الكحة، «يا ربي» تأوه.

«أظن أنك تعاني من كسر في الأضلاع» قلت.

«ربما. الأحسن أن تذهبي» قال.

«طيب، لكن يا روف، لا تنسَ، رجال بِيض هاجموك، صح؟».

لم يجبني.

«ألم تقل إنهم سيلاحقون إسحاق في كل الأحوال. طيب اترك الأمر لهم. امنحه وآليس هذه الفرصة كما منحاك فرصة للعيش».

«إن بلغتهم فلن يتغير الأمر، فإسحاق عبد هارب وسيلاحقونه في كل الأحوال».

«طيب معنى ذلك أن صمتك أيضًا لن يفرق».

«الفرق أنهما سيتقدمان في الطريق كما تريدين لهما».

هززت رأسي موافقة «نعم أريد ذلك لهما».

«طيب، ستثقين بي؟» قال وهو يراقبني عن قرب، «إن أخبرتك أني لن أبلغ عنهم؟».

«نعم» توقفت للحظة «لا أريد لأحدنا أن يكذب على الآخر. أريد أن نتشارك الثقة. وإلا فإن الأمور ستتعقد لأن لكل منا سلطة كبيرة على حياة الآخر».

أشاح بوجهه عني وقال «تتكلمين وكأنك تقرئين من كتاب».

«معنى ذلك أن دروس كيفن علمتك قراءة الكتب».

«أنت...!» أمسك بذراعي بقبضة كان بإمكاني التخلص منها، لكني تركته يتمسك بي. «بإمكاني تبادل التهديدات معك، بإمكاني أن أمنعك من الوصول إلى كيفن».

«أعرف».

«فلا تهدديني!».

«قلت إن كلينا يشكل خطرًا على الآخر. تذكير أكثر منه تهديد» بل إنه تهديد متخفٍّ.

«لا أحتاج إلى تهديد ولا تذكير منك».

لم أعلّق.

«طيب؟ ماذا تنتظرين، اذهبي الآن».

بقيت صامتة بلا حراك.

«ستمرين عبر هذه الأشجار» قال مشيرًا، «ثم تجدين طريقًا هناك ليس بعيدًا. خذيه يسارًا واتبعيه حتى تصلي إلى بيتنا».

استمعت لتوجيهاته وفكرت أني سأحتاجها عاجلًا أم آجلًا. لكن علينا أولًا أن نتفق. لا أتوقع منه أن يعترف بأننا اتفقنا على شيء، سأدعه يحتفظ بغروره، ولكن المهم أن يكون اقتنع بما قلت. لو رفض فسأتركه يتألم لفترة أطول. ولاحقًا بعدما أتأكد أن كيفن بخير وهاجر قد وضعت -وهو ما قد لا يتسنى لي معرفته- لن أضطر إلى إنقاذ روفوس ثانية.

«دانة!».

التفتُّ إليه فيبدو أني سرحت بعيدًا.

«قلت إنها، إنهما سيحظيان بفرصة الهرب... هاجمني رجال بيض».

«جيد يا روف» ربتُّ على كتفه، «اسمع، هل سيصدقني أبوك؟ لا أعرف ما شاهده في المرة الماضية».

«لم يفهم ما الذي حدث في المرة الماضية. وبغض النظر عما رآه فسبق أن رآه وقت حادثة النهر لكنه لم يصدق. في كل الأحوال سيصدقك، بل قد يخافك».

«أفضل أن يخافني على أن أخافه. سأعود بأسرع وقت ممكن».

٥

كانت الطريق أبعد مما تخيلت. وبينما يحل الظلام -أدركتُ أن الشمس لم تكن تشرق بل تغرب- اقتطعت صفحات من دفتري أعلقها على الأشجار في حال أضعت الطريق، لكني رغم ذلك لم أشعر براحة بال، فقد كنت قلقة من فقدان سبيل العودة إلى روفوس.

عندما وجدت الطريق، قطعت بعض الأغصان وكومتها مع الورق الأبيض على شكل حاجز. هكذا سأعرف النقطة التي تربط الطريق بمكان روفوس لو لم يقم أحد بتحريكها.

تبعت الطريق حتى حل الظلام، عبرت الغابة، عبرت الحقول، بل إني مررت ببيت أكبر بكثير من بيت آل ويلن. لم يستوقفني أحد. اختبأت خلف شجرة حينما مر رجلان أبيضان على حصانيهما. لا أظن أن أحدهما انتبه إلى وجودي لكني لم أرد المجازفة. ثم مرت ثلاث نساء سوداوات يحملن حزمًا كبيرة فوق رؤوسهن.

«مساء الخير» ألقين التحية.

أومأت برأسي أجيب التحية ثم أسرعت من مشيتي أفكر في التغيرات التي مرت بها سارة أو لوك ونايجل وكاري منذ رأيتهم المرة الماضية. وماذا عن الأطفال الذي كانوا يلعبون لعبة سوق العبيد؟ لابد أنهم يعملون الآن في الحقول. وماذا يا ترى حل بمارغريت وايلن؟ لا أظن أنها أصبحت ألطف مع مرور الزمن.

أخيرًا، بعد العبور بالمزيد من الأشجار والحقول، وجدت البيت المربع الباهت أمامي، ولمحت نوافذ الطابق السفلي تشع بالضوء الأصفر. صُعقت حين سمعتني أقول «عدت أخيرًا».

وقفت للحظات بين الأشجار والبيت أذكِّر نفسي أني على وشك الدخول إلى بيت العنف. لم يعد البيت غريبًا لكن في ذلك ما يدعوني إلى القلق، فقد أرخي حبالي وأرتكب خطأ يهدد حياتي.

مرَّرت أصابعي على ندوب ظهري أذكِّر نفسي بتكلفة ارتكاب الأخطاء هنا. بل إن الندوب ذكرتني بأني لم أغب عن هذا البيت سوى أيام. لم أكن قد نسيت تمامًا. ولكني خلال رحلة السير إلى هنا استسلمت لحقيقة أن سنوات قد مرت على هؤلاء منذ زيارتي السابقة. فأصبحت أشعر -شعور وليس اعتقاد- وكأني أنا أيضًا قد مرت عليَّ سنوات. شعور غير واضح لكنه بدا حقيقيًّا. بل إني استشعرت بعض الراحة التي لا تتناسب مع واقعي هنا. يبدو أن جزءًا مني قد اعتاد هذه التحولات الزمنية العجيبة. لا بأس، المهم أني استدركت هذه التحولات قبل فوات الأوان.

أكملت طريقي نحو البيت بينما أستعد، أو هكذا أتمنى، لمقابلة

توم وايلن. فجأة صادفت في طريقي شبح رجل أبيض يقترب مني من جانب الساحة.

«أنتَ هناك» قال يخاطبني، «ماذا تفعل عندك؟» خطواته الكبيرة قلصت المساحة بيننا سريعًا وخلال لحظة وجدته قريبًا مني يحملق إلى وجهي «لست من هنا» قال، «من يكون سيدك؟».

«جئت لمساعدة السيد روفوس» قلت. شعرت بالشك يداهمني لأني لم يسبق لي رؤيته، سألته: «هذا بيته، أليس كذلك؟».

لم يجب الرجل. استمر في التحديق. هل يشعر بصدمة لأنه اكتشف أني امرأة أم أنها لكنتي الغريبة؟ أو لأني لم أخاطبه بـ«السيد». إن عليَّ معاودة ذاك اللغط المهين ثانية. ولكن من يكون هذا الرجل؟

«هذا بيته» قال أخيرًا، «ما الذي حلَّ به؟».

«ضربه بعض الرجال ولا يستطيع الوقوف».

«سكران؟».

«أممم، لا يا سيدي، لا أظن».

«هذا الوغد الحقير».

صدمت بإجابته. جاء صوته هادئًا لكن كلماته كانت واضحة. لم أقل شيئًا.

«هيا» التفت يقودني إلى البيت. تركني عند العتبة وذهب إلى المكتبة، ربما يجلس توم وايلن هناك. لمحت المقعد الخشبي على

خطوات مني وبالرغم من التعب لم أجلس. مرة وجدتني مارغريت وايلن أستريح عليه بينما أربط رباط حذائي، فاستشاطت غضبًا وكأني سرقت مجوهراتها. لم أرِد استعادة تلك العلاقة معها مرة أخرى، وكم أتمنى لو أستطيع تفادي لقاءها ولكن القدر يخالفني.

شعرت بصوت من خلفي فالتفت سريعًا. وجدت عبدة شابة واقفة تنظر إليَّ. لون بشرتها فاتح ومنديلها أزرق وحبلى في شهورها الأخيرة.

«كاري؟» سألت.

ركضت نحوي، أمسكت بكتفي للحظة أولًا، تتفحص وجهي، ثم عانقتني.

لسوء الحظ قرر الغريب الأبيض الخروج مع توم وايلن في تلك اللحظة.

«ماذا يجري هنا؟» قال الغريب بصوت آمر.

ابتعدت عني كاري سريعًا مطأطئة رأسها. قلت «أصدقاء قدامى يا سيدي».

بدا توم وايلن أنحل وأكبر سنًّا وأكثر تجهمًا عمَّا كان عليه. تقدم نحوي يحدق إليَّ ثم التفت إلى الغريب: «جيك، متى عاد حصانه قلت؟».

«قبل ساعة».

«كل ذلك... كان عليك إبلاغي».

«سبق أن اختفى لوقت أطول».

تنهد وايلن وهو ينظر إليَّ «صحيح ولكن يبدو أنه في ورطة هذه المرة. كاري!».

كانت البكماء قد ابتعدت عنا تسير نحو الباب الخلفي. الآن استدارت تنظر إلى وايلن.

«قولي لنايجل أن يجلب العربة هنا».

أومأت إليه بتلك الطريقة المهذبة التي تجيب بها على أوامر البيض.

خطرت لي فكرة، فقررت النطق «أظن أن السيد روفوس يعاني من كسر في الأضلاع. لم يكن في سعاله آثار دماء، لذا لا خطر على الرئتين ولكن قد يكون من الأفضل لو أضمده قليلًا قبل أن تقوموا بحمله». لم يسبق لي تضميد أي أحد فيما عدا خدشًا في إصبعي، لكني أتذكر الإسعافات الأولية من أيام المدرسة. لم أتذكر ذلك حين كسر ساقه لكني قد أساعده في ذلك هذه المرة.

«ضمديه حين نعود به إلى هنا» قال وايلن. ثم وجه كلامه إلى الغريب «أرسل أحدًا لجلب الطبيب».

نظر إليَّ جيك بريبة مرة أخرى ثم توجه إلى الباب الخلفي من بعد كاري.

خرج وايلن من الباب الأمامي دون توجيه كلمة أخرى إليَّ. تبعته أحاول تذكر أهمية التضميد في حالة كسر الأضلاع،

أفكر إن كان عليَّ تكبد عناء محاججته ثانية. لم أرد لروفوس أن يعاني من ألم عصيب حتى وإن كان قد استحقه. أي إصابة قد تكون بليغة. ما أتذكره أن تضميد الضلوع هدفه تخفيف الألم. لا أعلم إن كنت قد تذكرت ذلك لأنه حقيقة أم لأني أفضل تفادي مناقشة وايلن. لم أحتج لحظتها إلى لمس الندوب على ظهري كي أعي وجودها.

جاء عبد طويل بالعربة، صعدت وجلست في الخلف بينما جلس وايلن في المقدمة بجانب السائق. استدار السائق نحوي وقال بصوت لطيف: «كيف حالك يا دانة؟».

«نايجل؟».

«إنه أنا» أجاب بابتسامة كبيرة، «كبرت منذ آخر مرة التقينا».

أصبح كما لوك الآن، رجلًا ضخمًا وسيمًا لا يشبه الطفل الذي عرفته.

«اخرس وركز على الطريق» قال وايلن، ثم خاطبني «صفي لنا الطريق».

كنت أود لو أصف الطريق، حاولت أقصى جهدي الرد عليه بألطف نبرة «المكان بعيد» قلت، «مررت ببيت أحدهم والكثير من الحقول».

«بيت القاضي. كان بإمكانك طلب المساعدة منهم».

«لم أعرف ذلك» ولا أظن أني كنت سأحاول. ولكني تساءلت

إن كان هو القاضي هولمن الذي سيقوم قريبًا بإرسال رجال لمطاردة إسحاق. على الأرجح.

«هل تركت روفوس على جانب الطريق؟» سأل وايلن.

«لا يا سيدي بل في الغابة».

«هل أنتِ متأكدة من مكانه في الغابة؟».

«نعم يا سيدي».

«يستحسن بك أن تعرفي!».

ثم سكت بعد ذلك.

لم يصعب عليَّ العثور على روفوس. رفعه نايجل بنفس اللطف والخفة التي رفع بها لوك روفوس المرة الماضية. في العربة استلقى يمسك بخصره متألمًا وبيده الأخرى يشد على يدي. قال «سأفي بوعدي».

هززت رأسي ولمست جبينه في حال لم يرني. كان العرق يتصبب من جبينه.

«أي وعد؟».

استدار وايلن ينظر، فأظهرت التجهم على وجهي، «أظن أنه يعاني من الحمى بالإضافة إلى كسر في الأضلاع يا سيدي».

أجاب وايلن بنبرة تقزز «كان مريضًا البارحة، يتقيأ في كل مكان ثم ينهض ليخرج اليوم. أحمق ملعون».

صمت ثانية حتى بلغنا البيت. وبينما يصعد نايجل بروفوس إلى غرفته في الطابق الأعلى، سحبني وايلن إلى غرفة المكتبة. دفعني بالقرب من مصباح شمعي وهناك في الضوء الأصفر أخذ يتفحصني بصمت حتى صرت أنظر إلى الباب.

«أنت ثانية» قال أخيرًا، «لم أرد تصديق ذلك».

لم أجبه.

«من أنتِ؟» قال مطالبًا، «بل ما أنتِ؟».

ترددت في الإجابة لأني لا أعرف ما الذي سمعه عني في غيابي. قد تصدمه الحقيقة فيقرر أني مجنونة، كما أني لا أريد أن أكذب.

«انطقي».

«لا أعرف ما الذي عليَّ قوله» قلت، «أنا دانة. تعرفني».

وقفت في مكاني صامتة محتارة ومرعوبة. لم يكن كيفن معي هذه المرة. لا أحد سيسعفني لو طلبت النجدة.

«أنا من قام بإنقاذ حياة ابنك» قلت بصوت هادئ، «وإلا لمات هناك مصابًا ومتألمًا وحده».

«وتظنين أن عليَّ مقابلتك بالامتنان؟».

لم أفهم نبرة الغضب؟ ولمَ لا يشعر بالامتنان؟ «ليس بإمكاني اختيار شعورك لك يا سيد وايلن».

«طبعًا».

حلت لحظة صمت توقع مني كسرها. بارتباك حاولت تغيير الموضوع. «سيد وايلن، هل تعرف إلى أين ذهب سيد فرانكلن؟».

تفاجأت بتجاوبه. هدأت ملامح وجهه «ذاك الأحمق» قال.

«إلى أين ذهب؟».

«مكان ما في الشمال. لا أعرف. لدى روفوس بعض الرسائل منه».

ألقى بنظرة مطولة أخرى «يبدو أنك تريدين البقاء هنا».

بدا وكأنه يقدم إليَّ الخيار على الرغم من أنه غير مجبر على ذلك! لربما يعرف وايلن معنى الامتنان.

«أود لو أبقى هنا لفترة» قلت. الأفضل أن أحاول الوصول إلى كيفن من هنا بدلًا من الضياع في منطقة ما في الشمال. خاصة أني لا أملك أي مال ولا أعرف شيئًا عن هذا الزمن.

«ستعودين إلى العمل» قال وايلن، «مثل السابق».

«نعم يا سيدي».

«لو عاد فرانكلن فإنه سيتوقف هنا. سبق وأن عاد مرة، أظنه يبحث عنك».

«متى؟».

«في وقت ما من السنة الماضية. اصعدي الآن إلى روفوس حتى يصل الطبيب. اعتني به».

«نعم يا سيدي» وانطلقت أبتعد عنه.

«يبدو أن هذي هي مُهمتك في نهاية الأمر» تمتم.

أكملت السير سعيدة بفراقه. يبدو أنه يعرف أكثر مما أراد لي معرفته. هكذا فهمت من الأسئلة التي امتنع عن طرحها. سبق وأن رآني أختفي مرتين. والأكيد أن روفوس وكيفن أخبراه بشيء ما. تساءلت إلى أي حد يعرف القصة، وما الذي قام به كيفن ليصفه وايلن بالأحمق.

سأعرف من روفوس كل التفاصيل. وايلن أخطر من طرح أي أسئلة عليه.

٦

نظفت جروح روفوس قدر الإمكان ثم ضمدت أضلاعه بقطع قماشية جلبها لي نايجل. شعرت بضلوعه على الجانب الأيسر أكثر هشاشة. قال روفوس إن الضمادة سهَّلت عليه التنفس. سعدت بمعرفة ذلك. إلا أنه مازال متعبًا، يعاني من الحمى، والطبيب لم يأتِ بعد. أحيانًا يشتد سعاله فيتسبب في ألم مضاعف بسبب الكسر في ضلوعه. جاءت سارة للاطمئنان عليه -ولمعانقتي- ويبدو أن آثار الضرب قد أفزعتها أكثر من إصابة ضلوعه أو الحمى. وجهه متورم بالأزرق والأسود.

«سيقاوم» قالت بغضب. فتح روفوس عينيه المتورمتين بالكاد

ينظر إليها لكنها لم تتوقف «سبق ورأيته يختلق عراكًا من لا شيء» قالت، «يبدو أنه مصمم على قتل نفسه».

كأنها أمًّا لروفوس تصارع الغضب والقلق عاجزة عن التعبير. أخذت الحوض الذي كان نايجل قد جلبه وعادت وقد ملأته بماء نظيف بارد.

«أين أمه؟» سألتها بصوت منخفض وهي على وشك الخروج.

تراجعت قليلًا بظهرها «راحت».

«ماتت؟».

«ليس بعد» التفتت إلى روفوس تتأكد إن كان قد سمعها. لم يكن وجهه ناحيتنا. «إلى بالتيمور» همست «سأخبرك بالحكاية غدًا».

تركتها تخرج دون أسئلة أخرى. تكفيني معرفة أن أحدًا لن يهاجمني فجأة. أخيرًا، لن تحاول مارغريت وايلن حماية روفوس مني.

كان يتلوى من الألم حين عدت إليه. يلعن الألم، يلعنني قبل أن يستدرك نفسه ويعتذر. حالته يرثى لها.

«روف؟».

وجهه يتقلب من جانب إلى آخر، لا يسمعني. أخرجت من حقيبتي علبة أسبرين من الحجم الكبير لم أكن قد استعملتها بعد. فيها ما يكفي لنتشارك.

«يا روف!».

نظر إليَّ بشزر.

«اسمع، لديَّ دواء جئت به من زمني». ملأت كوب الماء الذي بجانبه مع حبتين أسبرين. «قد يساعد في تخفيف الحمى» قلت، «ومن الألم أيضًا. هل تريده؟».

«ما هذه؟».

«حبوب أسبرين. في زمني نستخدمها للصداع والحمى وأنواع أخرى من الألم».

نظر إلى الحبتين ثم إليَّ «هاتي».

لم يستطع ابتلاعها بسهولة فصار يمضغها قليلًا بأسنانه.

«يا إلهي» قال، «أي شيء بهذا الطعم السيئ يجب أن يأتي بالعافية».

ضحكتُ وبللتُ قطعة القماش في الحوض لأمسح على وجهه. جاء نايجل ببطانية وأخبرني أن الطبيب سيتأخر لأنه عالق في عملية ولادة عصيبة. أمروني بقضاء الليلة بجانب روفوس.

لا أمانع. لا أظن أن لروفوس نوايا أخرى تجاهي. ظننت أنهم سيطلبون من نايجل أن يبقى معه. فقررت سؤاله.

«السيد توم يعرف عنك» قال نايجل، «فالسيد روف والسيد كيفن قد أخبراه. يتوقع أنك تعرفين عن التطبيب شيئًا. فقد سبق ورآك تختفين».

«أعلم».

«وأنا أيضًا رأيتك».

رفعت رأسي أنظر إليه، صار أطول مني الآن ولم أجد في عينيه سوى الفضول. لو كان اختفائي قد أرعبه فلابد أن الخوف قد اختفى مع مرور الوقت. وهذا أمر يسعدني لأني أريد صداقته.

«يقول السيد توم عليكِ الاعتناء به، وحري بك ألا تفشلي في المهمة. والعمة سارة موجودة إن احتجت شيئًا».

«شكرًا. اشكرها عني».

هز رأسه وابتسم قليلًا. «محظوظ بعودتك. أريد أن أكون مع كاري الآن فهي على وشك الإنجاب».

ابتسمت «طفلك يا نايجل؟ ظننت ذلك».

«الأحرى به أن يكون طفلي، فهي زوجتي».

«مبروك».

«السيد روف دفع إلى قسيس من البلدة ليزوجنا ويقرأ خطبة علينا كما يفعل مع البيض والأحرار. لم نضطر إلى القفز على مكنسة».

أومأت برأسي وتذكرت ما قرأته عن زيجات العبيد، يقفزون على مكنسة، إلى الخلف أو إلى الأمام حسب التقاليد المحلية، أو يقفون أمام سيدهم ليعلنهما زوجًا وزوجة، أو يتبعون طقوسًا أخرى مثلما فعل نايجل بجلب القسيس. ولكن في النهاية، باختلاف الممارسات، لم تكن زيجاتهم رسمية في عين القانون. لم يكن لزواجهم قدسية أو طابع قانوني. حتى زواج آليس بإسحاق لا يعد سوى

اتفاق غير رسمي، لأن إسحاق عبد، أو كان عبدًا. أرجو الآن أن يكون قد أصبح حرًّا، بما أنه في طريقه إلى بنسلفانيا.

«دانة؟».

رفعت بصري إلى نايجل. كان قد همس باسمي فلم أسمعه.

«دانة، هل كان رجلًا أبيض؟».

مصدومة بسؤاله، أشرت بإصبعي إلى شفتي أحذره، وأومأت له بالخروج. «غدًا» وعدته.

لكنه لم يكن متعاونًا كما كنت مع سارة. «هل كان إسحاق؟».

أجبت بهزة من رأسي على أمل أن يكتفي بالجواب ويخرج.

«هل أفلت؟».

هززت رأسي ثانية.

تركني وقد بدت على وجهه الراحة.

بقيت مع روفوس حتى استسلم للنوم. يبدو أن الأسبرين فعال. تلحفت بالبطانية التي جلبها لي نايجل، ألصقت كرسيين أمام المدفأة واستلقيت عليهما لأريح جسدي قدر الإمكان. لم تكن الكراسي شديدة الصلابة.

وصل الطبيب متأخرًا في الصباح التالي وقد اكتشف أن الحمى قد اختفت. إلا أن جسده ما زال متورمًا وموجوعًا، كما أن ضلوعه تصعِّب عليه التنفس خاصة أنه يحاول مقاومة السعال ولكنه رغم

ذلك بدا أقل بؤسًا عن البارحة. جلبت له وجبة الإفطار الضخمة التي حضرتها له سارة فدعاني إلى مشاركته الأكل. أكلت خبز «البسكت» الساخن مع الزبدة ومربى الخوخ وشربت بعضًا من قهوته مع شرائح من اللحم المدخن. كان الطعام جيدًا ومشبعًا. أكل هو البيض وما تبقى من اللحم المدخن وكعك الذرة. كان هناك الكثير من كل صنف، ولم تكن شهيته قوية، فاستلقى مريحًا ظهره يراقبني بدهشة.

«لو أن والدي رآنا نأكل معًا الآن لما سَلِمنا من لعناته وشتائمه».

وضعت قطعة البسكت مكانها أستدرك نفسي مما يفعله إنسان الـ ١٩٧٦. كلامه صحيح.

«طيب لمَ تركتني أشاركك الأكل، هل تريد لنا التورط معه؟».

«لا. لن يزعجنا. لا تتوقفي».

«آخر مرة قال أحدهم إنه لن يزعجني ظهر من ورائي ليسلخ جلدي عني».

«صح ولكني لست نايجل. لو أخبرتك بشيء لم يعجبه فستكون المشكلة بيني وبينه. لن يجلدك لأنك تبعت أوامري. أبي رجل عادل».

نظرت إليه وعلى وجهي الصدمة.

«قلت عادل» كرر، «لم أقل إنه لطيف».

بقيت صامتة. لم يكن والده الوحش الذي كان من الممكن له

أن يكون بحجم السلطة التي يمتلكها على عبيده. لم يكن وحشًا على الإطلاق. مجرد رجل عادي يرتكب أحيانًا أمورًا وحشية يعتبرها مجتمعه تصرفات قانونية لائقة. لا أرى لمحة من العدالة فيه. يتصرف كما يشاء. لو أخبرته أنه ظالم، سيجلدك لأن الكلام بحد ذاته تعدٍّ عليه. أو على الأقل هكذا عرفته قبل سنوات. لربما أصبح أكثر ليونة الآن.

«ابقَ» قال روفوس، «بغض النظر عن رأيك فيه فلن أسمح له بإيذائك. على الأقل أتشارك الأكل مع شخص بإمكاني الحديث معه».

التفاتة لطيفة منه. عاودت الأكل أتساءل عن أسباب مزاجه الجيد اليوم. فرق كبير عن ليلة البارحة حين كان غاضبًا يهدد ألَّا يخبرني عن مكان كيفن.

«تعرفين» قال روفوس بعد تفكير، «ما زلت تبدين شابة. سحبتني من النهر قبل ١٣ أو ١٤ عامًا ولكن شكلك كما هو لم يتغير، وكأننا بنفس العمر».

أوه! «يبدو أن كيفن نسي هذه الجزئية من شرحه».

«شرح ماذا؟».

هززت رأسي وقلت «دعني أخبرك بما يحدث معي. لا أستطيع تقديم أسباب لكنني أستطيع رواية الأمر كما حصل». ترددت للحظة أستجمع أفكاري، «عندما أنقذتك من الغرق كان ذلك يوم التاسع

من يونيو ١٩٧٦ بالنسبة إليَّ. وعندما رجعت إلى بيتي كان اليوم ذاته لم يتغير، بل إن كيفن أخبرني أني لم أغب سوى بضع ثوانٍ».

«ثوانٍ؟».

«انتظر، دعني أسرد كل شيء لك مرة واحدة ومن بعد بإمكانك تفسير ما تريد وطرح الأسئلة. في ذاك اليوم لاحقًا عدت إليك للمرة الثانية. كنت قد كبرت أربع سنوات أخرى تحاول حرق البيت، وحين عدت إلى بيتي ثانية قال كيفن إنني غبت لدقائق. في الصباح التالي، ١٠ يونيو، جئت إلى هنا حين سقطت من الشجرة وقد جاء كيفن معي. بقيت شهرين ولكن حين عدت اكتشفت أني لم أقضِ في هذا المكان سوى بضع دقائق من يوم ١٠ يونيو».

«تقصدين أنك بعد شهرين هنا كنت...».

«نعم، ذهبت وعدت في نفس اليوم. لا تسألني كيف. لا أعرف كيف. بعد قضاء ثمانية أيام في البيت، ها أنا هنا ثانية» جلست صامتة أمامه للحظات، «روف، بما أني هنا الآن وبما أنك قد نجوت، أريد إيجاد زوجي».

امتص ما قلته بوجه متجهم وكأنه يترجم كلماتي إلى لغة أخرى. ثم أشار نحو دِرج طاولة المكتبة، طاولة جديدة ضخمة لم تكن هنا المرة الماضية. لم تكن السابقة سوى طاولة جانبية. الجديدة لها أدراج كثيرة وسطح شاسع.

«تجدين رسائله في الدرج الأوسط. بإمكانك الاحتفاظ بها.

تجدين عنوانه فيها. ولكن يا دانة، ما أفهمه من كلامك أن الوقت متجمد عندك بينما أكبر أنا».

كنت قد وصلت إلى الدرج أبحث عن الرسائل. «لم يتجمد» قلت، «بالتأكيد أن الرحلات هذي قد أثرت عليَّ بغض النظر عن تاريخ رزنامة البيت». وجدت الرسائل. ثلاث رسائل قصيرة كتبت على قطع ورق كبيرة ختمها بالشمع وأرسلها بلا مظروف. «هذا عنواني في فيلادلفيا» كتب كيفن في إحداها، «لو وجدت عملًا هنا فسأظل هنا لفترة». انتهت الرسالة بالعنوان. يحب كيفن كتابة الكتب ولطالما تفادى كتابة الرسائل. كان يحاول دائمًا ترك مهمة الرسائل لي.

«سأصبح عجوزًا» قال روفوس، «وستستمرين في العودة بنفس العمر والمظهر الشاب».

هززت رأسي «يا روف، عليك بالحذر وإلا فلن تعيش لتصبح عجوزًا. الآن وقد كبرت فلربما لن تتسنى لي مساعدتك في المرة القادمة، فمشاكل ولد صغير تختلف عن مشاكل رجل بالغ».

«نعم ولكن موضوع الوقت هذا...».

أومأت مستسلمة، فلا إجابة لديَّ.

«اللعنة، لابد أننا مصابون بالجنون يا دانة. لم يسبق لي أن سمعت بأمرٍ كهذا من قبل».

«ولا أنا» فتحت الرسالتين. واحدة من نيويورك وأخرى من بوسطن. في رسالته من بوسطن قال إنه يفكر في الذهاب إلى ولاية

ماين. تساءلت ما الذي يدفعه شمالًا مع الوقت. ألم يرد التوجه غربًا، ما الذي سيفعله في ماين...

«سأكتب إليه» قال روفوس، «سأخبره أنك هنا. سيأتي سريعًا».

«أريد أن أكتب إليه أنا يا روف».

«ولكن يجب أن أرسلها أنا».

«طيب».

«أتمنى ألا يكون قد ذهب إلى ماين بعد».

فتح وايلن الباب قبل أن أرد. جاء بصحبة رجل هو الطبيب، وبهذا انتهى وقت التسلية. أعدت رسائل كيفن إلى مكانها -ظننت أنه المكان الأفضل لها- أخذت صينية الإفطار أخرج بها، وعدت بحوض ماء طلبه الطبيب وبقيت واقفة بينما يسأل الطبيب وايلن عمّا إذا كنت عاقلة أم لا، وإن كان بإمكاني الإجابة على أسئلة بسيطة يريد طرحها عليَّ.

أجاب وايلن نعم مرتين دون النظر إليَّ، فطرح الطبيب أسئلته. سألني إن كان روفوس عانى من الحمى بالفعل؟ وكيف عرفت؟ هل كان يهذي؟ هل أعرف معنى كلمة هذيان؟ نيجر ذكية، صح؟

كم أمقت هذا الرجل. قصير ونحيل، شعره أسود وكذلك عيناه، مدوَّر تبدو على صوته نبرة الاحتقار، كما أنه لا يعرف عن الطب أكثر مما أعرف أنا. قرر أنه لن يسحب الدم من روفوس بما أن الحمى قد اختفت. يسحب دمًا! توقع أن هنالك كسرًا في الأضلاع،

أعاد تضميدها بشكل سيئ. ثم قرر أن بإمكاني الانصراف، لم أعد مفيدة. هربت إلى المطبخ.

«ماذا دهاك؟» قالت سارة حينما رأتني.

هززت رأسي، «لا شيء، إنه رجل غبي لا تفصله عن الشعوذة والسحر سوى خطوة».

«ماذا؟».

«لا تهتمي يا سارة. كيف بإمكاني مساعدتك هنا؟ أريد الانشغال بعيدًا عن البيت».

«هنالك دائمًا ما يمكنك فعله هنا. هل أكلتِ بعد؟».

أومأت برأسي.

ألقت عليَّ نظرة من نظراتها الفضولية ثم قالت: «حرصت على ملء وجبته فوق ما يكفيه. هاك. اعجني».

أعطتني وعاء العجينة التي كانت قد تخمرت كفاية. «هل تحسن وضعه؟» سألتني.

«يتعافى».

«وهل إسحاق بخير؟».

نظرت إليها «نعم».

«قال نايجل إن السيد روف لم يخبر والده بما حدث».

«لم يفعل. أقنعته ألا يخبره».

وضعت يدها على كتفي للحظات. «أتمنى أن تبقي هنا لفترة يا ابنتي. حتى والده لا يستطيع إقناعه بشيء هذه الأيام».

«لا أصدق أني أفلحت في ذلك. الآن أخبريني ماذا حدث مع أمه؟».

«لا شيء يذكر. أنجبت طفلين توأمين. كانا مريضين. عاشا لفترة ثم توفيا واحدًا تلو الآخر. كانت على وشك الموت معهما. ثم فقدت عقلها. تتعارك مع السيد توم، تصرخ في وجهه كلما رأته وتلعنه طوال الوقت. كانت تتألم طوال الوقت ولم تستطِع الخروج من السرير. ثم أخيرًا جاءت أختها وأخذتها معها إلى بالتيمور».

«وهل مازالت هناك؟».

«لاتزال هناك ولاتزال مريضة ولاتزال مجنونة، هذا كل ما أعرفه. أتمنى أن تبقى هناك. يكفينا المراقب جيك إدوردز فهو من أبناء عمومتها ونموذج لخباثة حثالة البيض».

جيك إدوردز هو المراقب الجديد. معنى ذلك أن وايلن بدأ بتوظيف المراقبين. ما السبب وراء ذلك؟قبل أن أطرح سؤالي، دخل اثنان من الخدم علينا فاستدارت سارة نحوهما كأنها تعلن نهاية الحديث. ثم بدأت أستجمع الحكاية لاحقًا حين سألت نايجل عن لوك.

«باعوه» قال نايجل بهدوء. لم يود الاستفاضة في الموضوع. ثم أخبرني روفوس ببقية الحكاية.

«ما كان يجب أن تسألي نايجل عن ذلك» قال روفوس حينما أخبرته.

«ما كنت لأسأله لو عرفت بما حدث». كان روفوس في سريره. أعطاه الطبيب مسهِّلًا وتركه. سكب روفوس الدواء في الحوض وأمرني أن أكذب وأقول إنه قد أخذ الدواء لو سألني والده. طلب من والده أن يرسلني إلى غرفته حتى تتسنى لي فرصة كتابة رسالة إلى كيفن.

«ألم يقم لوك بواجباته كما يجب؟» قلت، «لمَ قام والدك ببيعه؟».

«عمله لا بأس به، وعمال الحقل عملوا جاهدين تحت إمرته، وأغلب الأحيان لم يضطر إلى استخدام السوط. لكنه كان يتصرف بجنون أحيانًا». توقف روفوس وأخذ نفسًا عميقًا يحاول تدارك نفسه قبل أن تسيطر عليه نوبة سعال أخرى. «أنت أيضًا تتصرفين أحيانًا مثل لوك» أردف، «فعليك الانتباه يا دانة، هذه المرة لا تملكين من يساندك».

«ولكن ما خطأ لوك؟ ما خطئي أنا؟».

«لوك... يفعل ما يشاء بغض النظر عن أوامر أبي. كثيرًا ما سمعت أبي يقول إنه يتصرف وكأنه أبيض. وفي يوم من الأيام، بعد عامين من اختفائك، لم يعد بابا يتحمله. مرَّ بنا تاجر من نيو أورلينز فقرر أبي بيعه بدلًا من جلده مرارًا فيهرب بعيدًا عنا».

أغمضت عيني أتذكر الرجل الضخم، أستذكر نصيحته لنايجل

بكيفية تفادي البِيض وغضبهم. يبدو أنه وقع ضحية ما نصح ضده.
«هل تظن أن التاجر أخذه إلى نيو أورلينز؟» سألت.

«نعم كان يجمع أكبر عدد منهم لنقلهم إلى هناك».

هززت رأسي باستنكار «مسكين لوك. هل هناك حقول قصب في لويزيانا الآن؟».

«قصب، قطن، أرز، كلها تُزرع كثيرًا هناك».

«والدا أبي عملا في حقول القصب هناك قبل أن ينتقلوا إلى كاليفورنيا. قد يكون لوك من أقاربي».

«المهم أن تحذري من اتباع مصيره».

«وما الذي قمت به؟!».

«لا تحاولي تعليم أحدهم القراءة».

«آه».

«نعم آه! لأني قد لا أتمكن من منع أبي من بيعك هذه المرة».

«يبيعني! كيف يبيعني وهو لا يملكني؟ حتى حسب القوانين هنا، لا يمتلك أي أوراق تؤكد ملكيته».

«دانة، ما هذي الترهات!».

«ولكن...».

«في البلدة سمعت بعض الرجال يتفاخرون بأنهم قد اصطادوا رجلًا حرًّا ومزقوا أوراقه ثم باعوه إلى تاجر».

سكت. هو محق بالطبع. لا أملك أي حقوق ولا حتى أوراق يمكن تمزيقها.

«احذري فحسب» كرر بصوت هادئ.

هززت رأسي إيجابًا. ظننت أن بإمكاني الهرب من ميريلاند لو اضطررت. لم أظن أن الهروب سيكون سهلًا لكنه على الأقل ممكن. من جهة أخرى، لا يمكنني تخيل كيف لشخص -حتى وإن كان متمرسًا أكثر مني في الترحال الزمني- أن يهرب من لويزيانا محاطًا بالأنهار وولايات العبودية. عليَّ الحذر كما قال، ولو واجهت خطر العبودية فيجب أن أكون مستعدة للهرب.

«غريب أن نايجل مازال هنا» قلت. ثم استوعبت أني قد ارتكبت حماقة بقول ذلك حتى وإن قلته أمام روفوس. يجب أن أتعلم الاحتفاظ بأفكاري لنفسي.

«آه، نايجل حاول الهرب» قال روفوس، «ولكن الدورية وجدته وأعادته إلى هنا، يتضور جوعًا ومرضًا. كانوا قد جلدوه ثم أكمل والدي بالمزيد. لكن العمة سارة اعتنت به حتى استعاد عافيته، وأقنعت والدي بعدم بيعه. كانت مهمتي أصعب من مهمة سارة. لم يرتَح بال أبي حتى تزوج نايجل بكاري. يتزوج المرء فيصبح له أطفال وينسى فكرة الهرب».

«تتكلم مثل مُلَّاك العبيد».

رفع كتفيه بلا رد.

«هل كنت لتبيع لوك؟».

«لا! لوك لطيف».

«هل كنت لتبيع أي أحد؟».

تردد. «لا أعرف. لا أظن».

«أتمنى ذلك» قلت متفحصة وجهه، «لست مضطرًّا إلى فعل ذلك. بعض مُلاك العبيد لا يقومون ببيعهم».

أخذت حقيبتي التي كنت قد خبأتها تحت سريره وجلست إلى طاولته أكتب الرسالة مستخدمة قطع الورق الكبيرة من على المكتب وباستخدام قلمي. لم أرغب باستخدام المحبرة والريشة.

«عزيزي كيفن، لقد عدت وأريد التوجه شمالًا...».

«أريني قلمك بعدما تنتهين» قال روفوس.

«طيب».

أكملت الكتابة، وجدت نفسي على وشك البكاء، وكأني أتحدث فعلًا مع كيفن. بدأت أصدق أن بإمكاني رؤيته ثانية.

«وأريد رؤية الأشياء الأخرى التي جلبتها معك» قال روفوس.

ألقيت بالحقيبة نحوه على السرير. «انظر فيها» قلت وعدت إلى الكتابة. ولم أتوقف لأرى ما فعل بها حتى أنهيت كتابة الرسالة.

كان يقرأ كتابي.

«ها هو القلم» قلت محاولة لفت انتباهه، بينما أنتظر اللحظة

المناسبة التي يغلق فيها كتابي كي أسحبه منه. ولكنه لم يترك الكتاب، ظل ممسكًا به. رفع نظره للحظة ينظر إلى القلم.

«ما هذا الكتاب! ترهات عن إلغاء العبودية».

«ليست ترهات» قلت، «هذا الكتاب كُتب بعد قرن من إلغاء العبودية».

«قرن بعد العبودية، ومازالوا يتشاكون!».

سحبت الكتاب لأرى عن أي صفحة يتحدث. استقبلتني صورة بارزة لسوجورنر تروث[1] تنظر إليَّ بعينيها الصريحتين. تحت الصورة مقتطف من إحدى خطبها.

«أنت تقرأ تاريخًا يا روف. لو تتصفح الكتاب ستجد صورة لرجل أبيض اسمه ج. د. ب. ديباو الذي دعا إلى الحفاظ على العبودية لأنها تسمح للبيض الفقراء بفرصة احتقار أحد ما. هذا هو التاريخ. هذا ما حدث سواء اعتبرته إهانة أو غير ذلك. أنا أيضًا أعتبر الكثير منه إهانة لي لكن ليس باليد حيلة». وفي الكتاب تاريخ آخر يجب ألا يعرف عنه. أغلبه لم يكن قد حدث بعد. فسوجورنر مثلًا ما زالت مستعبدة في هذه اللحظة، فإن قام أحدهم بشرائها من مُلاكها الآن ورحل بها من نيويورك إلى الجنوب قبل أن تسمح قوانين الشمال بتحريرها، فقد تقضي بقية حياتها تقطف القطن. كما أن الكتاب يذكر اثنين من أهم العبيد هنا في ميريلاند. الأكبر يسكن

---

(١) النسوية التي هربت بابنتها من العبودية واستعادت ابنها عبر المحكمة في قضية هي الأولى من نوعها. (المترجمة).

هنا في ضاحية «تالبوت» وسيكون اسمه فريدريك دوغلاس بعد تغيير اسمه مرتين. والثانية تعيش الآن على بعد أميال جنوبًا في ضاحية «دورشستر» اسمها هاريت روس، والتي سيكون اسمها هاريت تبمان. وفي يوم ما، ستكلف هذه المرأة مُلاك العبيد في الساحل الشرقي الكثير من المال عندما تقود ٣٠٠ من الهاربين إلى الحرية. وفي الجهة الأخرى في «ساوث هامبتون» في فرجينيا هنالك رجل اسمه نات تيرنر. وغيرهم كثر. سبق وقلت إني لا أستطيع تغيير التاريخ. ولكن إن وقع هذا الكتاب بيد رجل أبيض، حتى وإن كان متعاطفًا، فإن التاريخ قد يتغير بالفعل.

«تاريخ مثل هذا قد يودي بك خلف لوك» قال روفوس، «ألم أطلب منك الحذر!».

«لم أكن سأسمح لأحد برؤيته» أخذته من يده وكلمته بصوت لطيف، «أم إنك تقول إن عليَّ ألا أثق بك أنت أيضًا؟».

تفاجأ بكلماتي. «اللعنة يا دانة، علينا أن نثق بعضنا ببعض. ألم تكن تلك كلماتك؟ ولكن ماذا لو فتش بابا حقيبتك، بإمكانه أخذها منك في أي لحظة ولن تستطيعي إيقافه».

لم أعرف كيف أرد.

«سيجلدك ويعذبك بشكل لا يمكن لك تصوره. بعض ما في هذا الكتاب... قد يجعل منك دانمارك فيساي جديد. هل تعرفين من يكون فيساي؟».

«نعم». رجل تحرر ثم حاول تحرير غيره بمقاتلة الملاك.

«تعرفين ماذا فعلوا به؟».

«نعم».

«إذن ألقي بالكتاب في النار».

أمسكت الكتاب للحظة ثم فتحته لأقتطع منه خريطة ميريلاند.

«أريني» قال روفوس.

أعطيته الخريطة. نظر إليها ثم قلَّبها فوجد خريطة فرجينيا فأعادها إليَّ.

«هذه سهل إخفاؤها» قال، «ولكن لو رآها رجل أبيض فسيفهم أنك تخططين للهرب».

«سأقامر».

هز رأسه بامتعاض.

قطعت الكتاب إلى عدة أجزاء وألقيتها في الفحم المتقد في المدخنة. اشتعلت النار بالورق تذكرني بمحارق الكتب النازية. المجتمعات القمعية تعي خطورة الأفكار «الخاطئة».

«هل قمت بتشميع الرسالة؟» قال روفوس، «ستجدين الصمغ والشمعة على الطاولة هناك. سأرسلها فور أن يصبح بإمكاني الذهاب إلى البلدة».

تبعت تعليماته بالتشميع بلا خبرة حتى أن أصابعي احترقت.

«دانة؟».

نظرت إليه بطرف عيني فوجدته يراقبني. «نعم؟».

حاول تفادي نظرتي. «وجود الخريطة يزعجني. اسمعي، لو تريدين مني إيصال الرسالة قريبًا، فعليك بحرق الخريطة أيضًا».

استدرت أواجهه مفزوعة. ها هو يبتزني ثانية. ظننت أن هذا الأسلوب انتهى بيننا. أو هكذا أملت، أردت أن أثق به قدر الإمكان فكيف لي أن أبقى معه من دون الثقة.

«كم أتمنى لو لم تقل ذلك يا روف» أجبته بهدوء. اتجهت نحوه أصارع مشاعر الغضب والإحباط وبدأت بالتقاط الأشياء لأعيدها إلى الحقيبة.

«انتظري لحظة» أمسك بيدي، «تصيرين باردة جدًّا عندما تغضبين، انتظري!».

«أنتظر ماذا؟».

«ما الذي أغضبك؟».

كيف أجعله يفهم أن ابتزازه لي أسوأ من ابتزازي له. يهددني بأن يبقيني بعيدة عن زوجي إن لم أنفذ ما يريد بحرق الورقة التي قد تساعدني في الهرب. ابتزازي له بداعي الضرورة. لكن ابتزازه لي مدفوع بنزوة أو غضب. أو هكذا أرى الأمور.

«روف، هنالك أمور لا يمكن التفاوض حولها وهذه إحداها».

«الآن ستقررين لي ما يمكن التفاوض حوله؟» غلبت عليه المفاجأة أكثر من الغضب.

«أي نعم أقرر» قلت بكل ما أمتلك من هدوء «لن أتفاوض معك على زوجي أو حريتي».

«لا تملكين زوجك ولا حريتك حتى تتفاوضي».

«ولا أنت تملكها».

حدق إليَّ بنظرات الغضب والحيرة. تشجعت. كان بإمكانه أن يثور غاضبًا فيدفعني إلى الهرب بعيدًا. «اسمعي» قال وهو يكز على أسنانه، «أحاول مساعدتك!».

«هل تحاول حقًّا؟».

«وكيف تفسرين ما أفعله؟ اسمعي، أعلم أن كيفن حاول مساعدتك. وأنه سهَّل عليك الأمور بمرافقتك. لكنه فشل. لم يعرف كيف. لم يستطع حتى حماية نفسه. كان بابا على وشك أن يطرده عندما اختفيت. فقد تهجَّم على أبي يشتمه ويلعنه ولم يفهم أبي السبب. أنا من ساعدت كيفن على العودة إلى هنا».

«أنت؟».

«أقنعت بابا أن يلتقيه ثانية ولم يكن ذلك سهلًا. ولكني قد لا أتمكن من إقناعه بشيء إن اكتشف هذه الخريطة».

«فهمت».

صمت قليلًا ينتظر مني التحرك. أردت سؤاله عما سيفعله بالرسالة إن رفضت حرق الخريطة. وددت لو أسأله لكني لم أرد سماع الإجابة التي قد تدفعني إلى الهرب فتطاردني الدورية أو أتعرض

لجلدة أخرى. أردت للأمور أن تكون سهلة. أردت للرسالة أن تصل إلى بوسطن وتعود بكيفن.

أقنعت نفسي أن الخريطة رمزية ولن أحتاجها على أي حال. وإن اضطررت فبإمكاني تتبع نجم الشمال ليلًا. حرصت على تعلم ذلك. وفي النهار، سأمشي والشمس تشرق عن يميني وتغرب عن يساري.

أخذت الخريطة من على طاولة روفوس ووضعتها في المدخنة. اسودَّت ثم اشتعلت واختفت.

«بإمكاني الهروب من دونها، تعرف ذلك» قلت بهدوء.

«لن تحتاجي إلى ذلك» قال روفوس، «ستكونين على ما يرام هنا. هذا بيتك».

٧

قضى إسحاق وآليس أربعة أيام من الحرية معًا. وفي اليوم الخامس اعتقلا. في اليوم السابع، وصلني الخبر. كان ذلك اليوم الذي ذهب فيه روفوس مع نايجل إلى البلدة لإرسال خطابي إلى كيفن وتخليص أمور أخرى. لم أكن قد سمعت عن الهاربين وظننت أن روفوس قد نسي أمرهما. حالته تحسنت، تحسنت كثيرًا. بدا سعيدًا بذلك. وقبل أن يذهب في مشواره جاء يسألني «أعطني بعض الأسبرين، أظن أني سأحتاجها لتحمل أسلوب نايجل في القيادة».

سمعه نايجل فنادى عليه «يا سيد روفوس، بإمكانك أن تقود بنفسك فأجلس بجانبك مرتاحًا بينما تريني كيف تقود العربة بخفة على هذا الطريق المتعرج».

ألقى روفوس بحفنة رمل عليه لامست نايجل، ضحك ورد عليه بحفنة أخرى فشلت في ملامسته. «هل رأيت؟» خاطبني روفوس، «أنا عاجز عن الحركة وهو يستغل الفرصة».

ضحكت وأعطيته حبوب الأسبرين. لم يحاول روفوس أخذ شيء من حقيبتي دون إذني بالرغم من أنها متاحة أمامه.

«متأكد من قدرتك على قضاء هذا المشوار؟» سألته وأنا أمد يدي إليه بالحبوب.

«لا» قال، «لكني سأذهب على أي حال». عرفت لاحقًا أن زائرًا ما أبلغه بخبر اعتقال إسحاق وآليس وها هو ذاهب لجلب آليس.

توجهت إلى ساحة الغسيل حيث ساعدت عبدة شابة اسمها تاس على دعك وغلي الكثير من الملابس القذرة. كانت مريضة فوعدتها بأن أساعدها. كالسابق، مازال عملي غير محدد، أتنقل بين مهام مختلفة وهو أمر يبعث فيَّ شعورًا بالذنب. فلا أحد من العبيد -في الحقل أو البيت- يتمتع بحرية اختيار العمل. عملت أينما أردت أو حيثما يحتاجون مساعدتي. أحيانًا تطلب مني سارة إنجاز مهمة أو أخرى لكن ذلك لم يزعجني. في غياب مارغريت، تدير سارة البيت وخدم البيت. توزع مهام العمل بشكل عادل بين الجميع

وتدير البيت بشكل فعال دون خلق حالة من القلق أو التسبب في نزاعات كما تفعل مارغريت. بالطبع يكرهها بعض العبيد ممن يبذلون قصارى جهدهم لتفادي إنجاز أعمال لا يحبذونها، ولكن الجميع في الأخير يضطر إلى تنفيذ أوامرها.

«نيجر كسالى!» تتمتم أحيانًا حينما تضطر إلى ملاحقة أحدهم كي ينجز عمله.

التفت نحوها متفاجئة حين سمعت عبارتها هذه للمرة الأولى. «ولمَ عليهم العمل جاهدين؟» سألتها، «ما الذي يجلبه لهم كل هذا العمل؟».

«سيجلب لهم السوط إن لم يعملوا!» قالت منفعلة، «لن أدفع ثمن خطأ أي أحد منهم، أم أنك تودين تلقي اللوم بدلًا منهم؟».

«أممم، لا، ولكن..».

«أنا أقوم بعملي وأنت تقومين بعملك. لسنا بحاجة إلى من يلح علينا لإتمام المطلوب».

«حين تُتاح الفرصة أمامي للتوقف عن العمل وترك هذا المكان، فالأكيد أني سأفعل».

قفزت مصدومة تتفقد المكان «تتصرفين بجنون أحيانًا! تنطقين بلا تفكير!».

«لا أحد هنا».

«قد تظنين ذلك. الناس تنصت هنا وتتكلم أيضًا».

لم أرد عليها.

«افعلي ما تشائين أو فكري كما تشائين. المهم أن تحتفظي بذلك لنفسك».

أومأت «فهمت».

أخفضت صوتها تهمس لي «يجب أن تري بنفسك النيجر الذين يعتقلونهم ويعودون بهم إلى هنا» قالت، «يجب أن تريهم، يتضورون جوعًا، عراة، على أجسادهم آثار السوط وعضات الكلاب... يجب أن تريهم».

«أفضل لو أرى الآخرين».

«من؟».

«الآخرون الذين ينجحون في الوصول. الذين يعيشون الحرية».

«هذا إن وصل أحدهم».

«يصلون».

«هذا ما سمعته. الأمر أشبه برحلة موت، تموت أولًا ثم تذهب إلى الجنة. فلا يعود أحد ليخبرنا برحلته».

«يعود فيتم استعباده ثانية؟».

«نعم، ولكن... عمومًا هذا حديث خطر لا داعي له».

«سارة، لقد قرأت كتب عبيد ممن هربوا وعاشوا أحرارًا في الشمال».

«كتب!» حاولت أن تعترض بنبرة ازدراء لكن الشك غلب على صوتها فهي لا تجيد القراءة. أحيانًا تعتبر الكتب ألغازًا مثيرة وفي أحيان أخرى تصبح أشياء خطرة ومضيعة للوقت. حسب مزاجها. الآن مزاجها يترنح بين الفضول والخوف ولكن الخوف انتصر في النهاية. «حماقة!» قالت، «نيجر يؤلفون الكتب!».

«هذه الحقيقة لقد رأيت...».

«لا أريد سماع المزيد!» رفعت صوتها بحدة. لم يكن ذلك من طبعها، بل إنها تفاجأت بردة فعلها أكثر مني. «لا أريد سماع المزيد» كررت بصوت ناعم، «الوضع ليس سيئًا هنا، بإمكاني التعايش معهم».

اختارت الطريق الآمن بقبول حياة العبودية بداعي الخوف. كانت من صنف النساء المستعبدات التي قد تلقب بـ«المامي» لو كانت في أي بيت آخر في هذا الزمن. صنف العبيد الذي يشير إليه راديكاليو الستينيات باحتقار -عبدة البيت، عبدة المنديل، النسخة الأنثى للعم توم- ألقاب للمرأة المستلبة الخائفة التي خسرت كل شيء ولا تعرف عن الحرية في الشمال أكثر مما تعرف عن الحياة الآخرة.

أنا أيضًا كنت أحتقرها لفترة. احتقار قائم على استعلاء أخلاقي، فها أنا أمام شخص أقل شجاعة مني، ولسبب ما يمنحني ذلك راحة ما، أو هكذا ظننت، حتى ذهب روفوس ونايجل إلى البلدة وعادا بما تبقّى من آليس.

كان الوقت متأخرًا وقت عودتهما، مظلمًا. ركض روفوس إلى البيت يناديني قبل أن أنتبه إلى عودته «دانة! يا دانة، تعالي!».

خرجت من غرفته التي أصبحت ملجأً لي في غيابه ونزلت مسرعة على الدرج.

«تعالي تعالي» قال يستعجلني.

لم أقل شيئًا، تبعته إلى الباب الأمامي لا يمكنني توقع ما ينتظرني. قادني إلى العربة حيث كانت آليس تستلقي مدمَّاة وملطخة بالطين، بالكاد حية.

«يا إلهي!» همست.

«ساعديها!» قال روفوس.

نظرت إليه بينما أتذكر سبب احتياج آليس للمساعدة. لم أنطق بشيء ولا أعلم أي تعبير بدا على وجهي، لكنه تراجع خطوة عني.

«ساعديها!» قال، «وألقي بلومك عليَّ إن أردت ولكن ساعديها الآن!».

التفتُّ إليها وحاولت تعديل وضعية جسدها بلطف وحذر كي لا ألامس كسرًا ما فيها. المعجزة أنها سلمت من الكسور. تأوهت وتلوت آليس من الوهن. فتحت عينيها لكن لم يبدُ أنها قد رأتني.

«أين ستضعها؟» سألت روفوس، «في العلية؟».

رفعها برفق وحذر وأخذها إلى غرفته.

تبعناه أنا ونايجل، رأيناه يضع الفتاة في سريره. ثم التفت إليَّ متحيرًا.

«اطلب من سارة أن تغلي بعض الماء» قلت لنايجل، «ولترسل قطع قماش نظيفة لتضميدها. قماش نظيف». إلى أي درجة ستكون نظيفة؟ بالتأكيد ليست معقمة ولكني قضيت اليوم أغسلها بالصابون والماء المغلي فالأكيد صارت الآن نظيفة.

«روف، اجلب لي ما أستطيع به قطع هذه الخرق عنها».

أسرع روفوس إلى خارج الغرفة وعاد بمقص أمه.

بدا على جروح آليس أنها جديدة فقد أزلت قطع الملابس الملتصقة بها بسهولة. أما الجروح التي نشفت عليها الخرق والتصقت بها فتركتها. سيسهل إزالتها بالماء الساخن.

«روف، هل لديك أي معقِّم؟».

«معقم؟».

التفت إليه «لم تسمع بذلك من قبل؟».

«لا، ماذا يكون؟».

«لا يهم. سأستخدم بعض الماء والملح».

«محلول ملحي؟ تريدين استخدام ذلك على ظهرها؟».

«سأستخدمه مع الجروح التي تؤلمها».

«أليس لديك شيء في حقيبتك أفضل من ذلك؟».

«فقط الصابون الذي سأستخدمه أيضًا. هلا تجلبه لي؟ ثم... اللعنة، ليس من المفترض بي القيام بكل هذا، لمَ لم تتصل بالطبيب؟».

هز رأسه «أراد القاضي بيعها في الجنوب، بهدف معاقبتها لا أكثر. اضطررت إلى دفع ضعف ثمنها ليتركها. كان المبلغ كل ما عندي، وأبي لن يدفع المال لمعالجة نيجر. يعلم الطبيب ذلك جيدًا».

«تقصد أن والدك يترك الناس يموتون حتى إن كان بالإمكان إنقاذهم بالعلاج؟».

«يموتون أو يتعافون. العمة ماري تعرفينها؟ التي تعتني بالأطفال؟».

«نعم». العمة ماري لا تعتني بالأطفال. امرأة مُسنة وعاجزة. تجلس في الظل بيدها خيزران تهددهم بالموت إن ارتكبوا خطأً ما من أمامها. فيما عدا ذلك، تتجاهلهم منشغلة بالخياطة، تتمتم لنفسها، خرفة وقنوعة. والأطفال يعتنون بعضهم ببعض.

«العمة ماري تعرف بعض التطبيب» قال روفوس، «عن الأعشاب. ظننت أنك ستكونين أفضل منها».

التفت إليه مذهولة. بالكاد تعرف المسكينة اسمها. رفعت كتفي «اجلب لي المحلول الملحي».

«ولكن... هذا ما يستخدمه والدي على عمال الحقل» قال، «ويتألمون منه بشدة أكثر حتى من السوط».

«سيكون الألم أخف من ألم الالتهاب إن أصابها».

تجهم وجهه يقف بقرب الفتاة مدافعًا «من عالج ظهرك؟».

«أنا. لم يكن هناك أحد غيري».

«كيف؟».

«غسلته بالكثير من الماء والصابون ثم وضعت دواء عليه. ولكن هنا سيكون المحلول بديلًا من الدواء وسيفي بالغرض». يا إلهي أتمنى أن يفي فعلًا بالغرض. كنت أرتجل في اللحظة. ربما للعجوز ماري وأعشابها حلول أفضل، لو وجدتها في لحظة يقظة نادرة. ولكن لا. رغم معرفتي بجهلي فإني أثق بنفسي أكثر مما أثق بها. حتى وإن لم أستطع تقديم العلاج، فالأكيد أني لن أتسبب في خسائر إضافية كما قد تفعل.

«أريني ظهرك» قال روفوس.

ترددت أبتلع كلمات أردت لفظها في وجهه. في النهاية يبدو أنه يتصرف بداعي الحب، حب مدمر ولكنه حب على كل حال. أراد التأكد إن كان الألم الذي ستعاني منه مجديًا وأني لا أنطق عن جهل. استدرت ورفعت قميصي قليلًا. كانت ندوبي قد التأمت أو على وشك الالتئام.

لم يعلق بكلمة كما لم يحاول لمسي. بعد لحظات، أنزلت قميصي.

«يبدو أنك سلمت من الندوب الكبيرة التي نراها على ظهور عمال الحقل» قدم ملاحظته.

«الجدرة؟ لا، الحمد لله لم أتعرض لها. الندوب التي على ظهري سيئة كفاية».

«ليست بسوء الندوب التي ستعاني منها».

«اجلب الملح يا روف».

هز رأسه وخرج.

٨

فعلت كل ما في وسعي من أجل آليس، حاولت ألا أوجعها قدر الإمكان، قمت بتنظيف جروحها وتضميد الأسوأ منها، عضات الكلب.

«واضح أنهم تركوا الكلاب يعضونها» قال روفوس بغضب. ممسكًا بها يحاول تثبيتها ليتسنى لي تنظيف الجروح، ركزت على العضات بشكل خاص. كانت تتلوى وتتأوه تنادي باسم إسحاق، حتى شعرت بمغص لكوني أتسبب لها في المزيد من الألم. أبتلع ريقي وأصر على أسناني خشية أن أتقيأ. حين تحدثت مع روفوس، أردت تهدئة نفسي أكثر من رغبتي في الحصول على معلومة.

«ماذا فعلوا بإسحاق يا روفوس؟ أخذوه إلى القاضي؟».

«باعوه لتاجر يأخذ العبيد إلى مسيسيبي».

«يا إلهي».

«لو أخبرتهم بما حدث لقتلوه».

وجدت عضة أخرى. كم أود لو كان كيفن معي الآن. تسيطر عليَّ رغبة شديدة بالهروب، بالعودة إلى البيت. «هل أرسلت رسالتي يا روف؟».

«نعم».

جيد. ليت كيفن يأتي سريعًا.

انتهيت من آليس وأعطيتها حبوبًا، ليست أسبرين، بل حبوب منومة. تحتاج إلى الراحة بعد أيام قضتها في محاولة الهروب، بعد عضات الكلب وضربات السوط. بعد إسحاق.

تركها روفوس في سريره. ثم دخل يستلقي بجانبها في السرير.

«روف، بحق الرب!».

نظر إليَّ ثم إليها «لا تكوني حمقاء، لن أنزلها من السرير».

«ولكن...».

«وبالتأكيد أني لن أزعجها وهي تعاني».

«جيد» قلت بنبرة ارتياح، صدقته «ولا حتى لمسة».

«طيب».

رتبت المكان بعد فوضى عملية التنظيف والتضميد. أخيرًا توجهت إلى العلية واستلقيت في مكاني.

ولكن بالرغم من كل التعب لم أستطِع النوم. فكرت في آليس ثم في روفوس ثم استوعبت أن روفوس فعل بالضبط ما توقعته: ها

هو قد امتلك المرأة وتخلص من زوجها دون الاضطرار إلى بذل أي جهد. والآن، بشكل ما، على آليس أن تتقبل لا فقط خسارة زوجها بل أيضًا استعبادها. تسبب روفوس في كل هذا الألم لها وها هو يحصد المكافأة. غير معقول. مهما حاول معاملتها بلطف الآن بعدما قام بتدميرها، فلن يغير من الأمر شيئًا.

بدأت أتقلب في مكاني، أغمض عيني بشدة محاولة التفكير، ثم أحاول تفادي التفكير. كنت على وشك ابتلاع حبتين علِّي أتحصل على بعض الراحة.

ولكن سارة دخلت. بإمكاني التعرف على هيئتها في ضوء القمر الباهت من الشباك. همست باسمها محاولة ألا أوقظ الآخرين.

بخطوة اجتازت طفلين ينامان بالقرب مني حتى وصلت إلى زاويتي «كيف آليس؟» سألت هامسة.

«لا أعلم. ستنجو على الأغلب. أو على الأقل سينجو جسدها».

جلست سارة على طرف فراش القش. «أردت الذهاب لرؤيتها» قالت، «ولكني لم أود رؤية السيد روفوس. لا أريد رؤيته لفترة طويلة».

«نعم».

«قطعوا أذني الرجل».

قفزت في مكاني «إسحاق؟».

«نعم. قطعوا الاثنين. قاومهم. رجل قوي بالرغم من رأسه

العنيدة. قام ابن القاضي بضربه، فأجابه بضربة. كما تفوه بكلام ما كان عليه قوله».

«قال روفوس إنهم باعوه لتاجر ذاهب إلى ميسيسبي».

«نعم بعدما انتهوا منه. أخبرني نايجل بما حصل، كيف قطعوا أذنيه وضربوه. يجب أن يتعافى قليلًا قبل أن يأخذوه إلى هناك».

«يا إلهي. كل هذا بسبب الأحمق الذي سكر وقرر اغتصاب امرأة».

«صه» أشارت إليَّ بالسكوت. «يجب أن تتعلمي السيطرة على لسانك. ألا تعرفين أن في هذا البيت من يحب نقل الكلام؟».

تنهدت «نعم».

«صحيح أنك لست من عبيد الحقل، لكنك نيجر في نهاية الأمر. قد يصل كلامك إلى السيد روفوس فيجعل حياتك صعبة».

«أعرف. صحيح». يبدو أن بيع لوك قد بث فيها المزيد من الرعب. كان لوك هو من يسكتها حين تفلت منها كلمة.

«السيد روفوس أبقى على آليس في غرفته؟».

«نعم».

«إلهي. أتمنى ألا يزعجها. اليوم على الأقل».

«أظن أنه لن يفعل. اللعنة، بل إنه سيكون لطيفًا وصبورًا معها بعدما صارت ملكه».

«ها!» قالت بتقزز، «وماذا ستفعلين الآن؟».

«أنا؟ سأحاول الاعتناء بها حتى تتعافى».

«لا أقصد ذلك».

تقطب جبيني «ماذا تقصدين؟».

«بعودتها لم يعد لك مكان».

حدقت إليها أحاول فهم تعبير وجهها. لم أستطع فحاولت الإجابة بجدية «الأمر ليس كما تظنين يا سارة. روفوس يريدها هي فقط. أما أنا فلديَّ زوجي».

حل صمت طويل. «زوجك... تقصدين السيد كيفن؟».

«نعم».

«أخبرني نايجل بأنه زوجك لكني لم أصدقه».

«لم نستطِع إعلان ذلك هنا بما أنه أمر غير قانوني».

«قانوني» قالت بنبرة التقزز ذاتها، «معنى ذلك أن ما فعله السيد روفوس بتلك الفتاة قانوني!».

رفعت كتفي.

«زوجك... كان يورط نفسه أحيانًا لأنه لم يفرق الأبيض عن الأسود، الآن أفهم لماذا».

ابتسمت. «لا أظن أني السبب في ذلك. كان هكذا قبل الزواج وإلا لما تزوجته. أرسل روفوس رسالة إليه اليوم يخبره بعودتي».

ترددت «متأكدة أنه أرسلها؟».

«هذا ما أخبرني به».

«اسألي نايجل» قالت بصوت منخفض، «أحيانًا يقول السيد روفوس ما يروق لك سماعه، لا الحقيقة».

«ولكن... ما الذي قد يدفعه إلى الكذب».

«لم أقل إنه يكذب. فقط تأكدي من نايجل».

«طيب».

صمتت للحظة ثم «تظنين أنه سيعود من أجلك يا دانة... زوجك؟».

«متأكدة» أعلم أنه سيفعل.

«هل ضربك من قبل؟».

«لا! بالطبع لا!».

«كان رجلي يضربني. يقول إنه لا يحب غيري ثم في لحظة ما يضربني بحجة أني كنت أنظر إلى رجل آخر».

«والد كاري؟».

«لا... والد ابني الأكبر. أبو السيد هانا. وعدني بأنه سيمنحني صك الحرية في وصيته وأخلف وعده. كانت مجرد كذبة أخرى». نهضت وركبتاها تصطك. «علينا بالراحة الآن» ومشت، «لا تنسي يا دانة، اسألي نايجل».

«نعم».

٩

سألت نايجل في اليوم التالي، قال إنه لا يعرف فقد أرسله روفوس في مهمة عندما وصلا إلى البلدة. وحين عاد نايجل إليه، وجده في مبنى السجن حيث قام بشراء آليس.

«كانت واقفة على رجليها وقتها» يستدعي نايجل، «لا أعرف كيف. وعندما همَّ السيد روفوس بالذهاب سحبها بذراعها فوقعت على وجهها وضحك عليها الجميع. فقد دفع مبلغًا كبيرًا من أجلها، فالجميع يراها ميتة أكثر منها حية. يرون أنه أحمق».

«نايجل، هل تعرف كم يستغرق البريد في الوصول إلى بوسطن؟» سألت.

رفع رأسه عن الفضة التي كان منشغلًا بتلميعها. «كيف لي معرفة ذلك؟» وعاود التلميع، «أود لو أعرف، فألحق به» قال بصوت ناعم.

يتفوه نايجل بمثل هذا الكلام من وقت إلى آخر حينما يقوم وايلن بالتضييق عليه، أو يتآمر المراقب إدواردز ضده. هذه المرة ظننت أن إدواردز قد ضايقه فقد رأيته يخرج من المطبخ وأنا أدخل. نايجل من الخدم بمعنى أنه ليس تحت إمرة إدواردز.

«ماذا حدث الآن؟».

«الوغد العجوز يتوعدني بالعمل في الحقل. يقول إني أكابر».

تذكرت لوك فانتابتني رعشة. «ربما عليك الانطلاق قريبًا».

«كاري».

«نعم».

«حاولت مرة. تتبعت النجم. ولولا السيد روفوس لباعوني جنوبًا». هز رأسه، «أو لكنت ميتًا الآن».

ابتعدت عنه لأني لم أعد أتحمل سماع المزيد عن محاولات الهرب الفاشلة. كانت تمطر بشدة حين خرجت من المطبخ إلى البيت. لمحت العمال في الحقل، مازالوا يعملون، يحصدون الذرة.

وجدت روفوس في المكتبة يراجع بعض الأوراق مع والده. بدأت أكنس الممر بانتظار وايلن يخرج. بعدها دخلت لرؤية روفوس.

قبل أن أفتح فمي بكلمة قال «هل ذهبت لتفحص آليس؟».

«سأذهب. يا روف، متى ستصل الرسالة إلى بوسطن؟».

رفع حاجبه «يومًا ما ستخاطبينني باسمي هكذا وسيسمعك والدي».

التفتُّ خلفي كردة فعل عفوية فانفجر روفوس ضاحكًا «لم أقصد اليوم» قال، «ولكن يومًا ما، سهوًا».

«اللعنة» قلت، «كم من الوقت؟».

ضحك ثانية «لا أعلم يا دانة، أيام، أسبوع، اثنين، ثلاثة...» هز كتفيه.

«التواريخ موجودة على رسائله» قلت، «هل تتذكر متى وصلتك رسالته من بوسطن؟».

صمت للحظة يفكر ثم هز رأسه. «لا يا دانة، لم أكن منتبهًا وقتها. هيا اذهبي إلى آليس».

خرجت من الغرفة منزعجة ولكني التزمت الصمت. كان بإمكانه أن يعطيني تاريخًا تقريبيًا على الأقل. ولكن لا يهم. ستصل الرسالة كيفن وسيأتي ليأخذني. لم أستطِع التشكيك بروفوس أكثر، لا أظنه يريد خسارة ثقتي ولا أنا أردت التشكيك به. خاصة في أمر صغير كهذا.

أصبحت آليس جزءًا من عملي، أهم جزء. أمر روفوس نايجل ورجلًا من الحقل بجلب سرير صغير إلى غرفته بالإمكان دفعه تحت سريره. اضطررنا إلى نقل آليس بعيدًا عن سريره من أجل راحته ومن أجل راحتها. لفترة ما صارت آليس طفلة، عاجزة، بالكاد تشعر بوجودنا إلا لو تسببنا لها بالوجع أو حاولنا إطعامها. وبالفعل أطعمناها بالملعقة، لقمة فلقمة.

دخل وايلن علينا مرة وأنا أطعمها.

«اللعنة!» قال مخاطباً روفوس، «ألطف ما يمكنك فعله لها أن تقوم برميها بالرصاص».

وأظن أن النظرة التي أجابه بها روفوس قد أرعبته فخرج من الغرفة دون كلمة أخرى.

غيرت ضمادات آليس، أتأكد من عدم وجود التهاب ما، أصلي. لا أعرف إن كانت عرضة لمرض داء الكلب أو الكزاز. ثم حاولت منع نفسي من التفكير في احتمالات كهذه. كان جسد الفتاة يتعافى ببطء ولكن بشكل جيد. صارت الوساوس تأكلني بحيث أخاف من هواجسي التي لو حدثت لقتلتها. كما أن مسؤولية الاعتناء بها كافية، بل إني صرت مربية لها. لفترة ما كانت تناديني ماما.

«ماما، موجع».

لكنها تعرف روفوس. السيد روفوس. صديقها. أخبرني أنها تدخل سريره ليلًا.

من جانب، أفهم ما يحدث. تلجأ إلى الإناء ثانية. ولكن من جانب آخر...

«لا تنظري إليَّ هكذا» قال روفوس، «لم أحاول إزعاجها. إنها طفلة».

ولاحقًا سيقول إنها امرأة. وقتها لن يتردد في المحاولة.

وكلما تحسنت حالها، صارت آليس أكثر تحفظًا معه. مازال صديقها لكنها تبقى في سريرها طوال الليل. ولم تعد تناديني ماما.

في صباحٍ ما عندما دخلت إليها بالإفطار نظرت إليَّ وقالت «من أنتِ؟».

«أنا دانة» قلت، «تذكرين؟» كنت أجيب كل أسئلتها.

«لا».

«كيف تشعرين؟».

«أشعر بصلابة ما ووجع» قالت وهي تتحسس فخذها التي قام كلب بقضم قطعة منها. «ساقي توجعني».

تفحصت الجرح. ستحمل ندبة قبيحة في ذاك المكان طوال حياتها، ولكن يبدو أن الجرح يتعافى بالفعل، لم ألمح أي سواد أو تورم. شعرت وكأنها للتو تستوعب هذا الجرح كما استوعبت وجودي.

«أين نحن؟» سألت.

يبدو أنها تستوعب كل شيء اليوم. «هذا بيت آل وايلن» قلت، «غرفة السيد روفوس».

«أوه» ثم بانت على وجهها الراحة، بدت راضية، بلا فضول. لم أحاول دفعها أكثر للحديث. كنت قد قررت ذلك مسبقًا. ستعود إلى الواقع تدريجيًا بينما تسترد عافيتها. بصمته المريب عرفت أن وايلن يظن أن لا أمل منها. لم يقل روفوس رأيه. ومثلي لم يحاول الضغط عليها.

«أكاد أتمنى ألا تستعيد ذاكرتها» قال مرة، «فتكون معي كما كانت قبل إسحاق. ربما وقتها...» هز كتفيه.

«كل يوم تتذكر أكثر» أخبرته، «وتسأل أكثر».

«لا تجيبيها!».

«إن لم أجب فإن أحدًا غيري سيفعل. قريبًا ستستعيد صحتها».

ابتلع ريقه «تلك الفترة كان كل شيء بيننا مثاليًّا...».

«مثالي؟».

«لم تكرهني!».

١٠

استمرت آليس في رحلة الشفاء والنمو. رافقتني إلى المطبخ للمرة الأولى يوم أنجبت كاري طفلها.

مرت ثلاثة أسابيع على تواجد آليس معنا هنا. ذهنيًّا قد تكون في سن ١٢ أو ١٣ الآن. ذاك الصباح، قالت لروفوس إنها تريد النوم في العِلية معي. تفاجأت بموافقة روفوس. لم تكن تلك رغبته لكنه وافق في نهاية الأمر. فكرت، للمرة الأولى، لو أن آليس استمرت دون كراهية روفوس فإنه على الأرجح لن يرد طلباتها. لو.

الآن، ببطء وحذر، تتبعني نزولًا على السلم. نحيلة وضعيفة عمّا كانت عليه، بدت كطفلة في فستان قديم من فساتين مارغريت وايلن. ولكن الملل قد دفعها إلى الخروج من السرير.

«سأسعد حين تعود إليّ صحتي» تمتمت بينما تنزل السلم، «أكره أن أكون على هذه الحال».

«تتعافين بشكل جيد» أجبتها. مشيت أمامها حتى أتأكد من عدم وجود ما قد يكون عثرة في طريقها. حاولت مساندتها بإمساك ذراعها لكنها سحبتها مني.

«أستطيع المشي».

تركتها تمشي.

وصلنا إلى المطبخ في اللحظة التي وصل فيها نايجل، لكنه كان مستعجلًا فابتعدنا جانبًا كي يسبقنا بالدخول.

«هاه!» قالت آليس بمرور نايجل «عفوًا!».

تجاهلها. «عمة سارة» نادى نايجل، «عمة سارة، كاري تتألم».

كانت ماري العجوز داية الجميع قبل أن تُصاب بالخرف. قد يظن آل وايلن أن بإمكانها إتمام مسؤولياتها المعهودة لكن العبيد يعرفون حقيقة الأمر. يحاول كل منهم مساعدة الآخر قدر الإمكان. لم يسبق لي رؤية سارة تولد إحداهن لكن الأمر مفهوم هذه المرة. ألقت بصفيحة الذرة من يدها وراحت تتبع نايجل.

«هل بإمكاني المساعدة؟».

نظرت إليَّ وكأنها لم تنتبه إلى وجودي. «انتهي من تحضير الحساء» قالت، «كنت سأرسل أحدًا آخر لينتهي من تحضير الطعام، ولكن بإمكاني الاعتماد عليك، صح؟».

«نعم».

«جيد» أسرعت ونايجل خارج المطبخ. كان كوخ نايجل بعيدًا عن الساحة وأقرب إلى المطبخ. كوخ أنيق بأرضية خشبية وحيطان قرميدية بناه بنفسه لكاري وله. أخذني لرؤية الكوخ عند تجهيزه قائلًا «لن أضطر إلى النوم ثانية على قطع القماش في العلية». صنع سريرًا وكرسيين. وقد تركه روفوس يعمل في البيوت المجاورة لتحصيل ما يحتاجه من المال لشراء ما لم يستطع صنعه بنفسه. استثمار مربح لروفوس، يقتطع مبلغًا مما يتحصله نايجل، عدا أن الكوخ بمثابة تأكيد على أن نايجل لن يحاول الهرب ثانية، فنايجل هو القطعة الثمينة الوحيدة التي يمتلكها روفوس الآن.

«أريد حضور الولادة» قالت آليس.

«لا» أجبتها بتردد. أنا أيضًا أردت الحضور لكن سارة لا تحتاجنا هناك. «لا، علينا العمل هنا. هل بإمكانك تقشير البطاطس؟».

«طبعاً».

أجلستها إلى الطاولة قربي وأعطيتها سكينًا وبعض البطاطس لتقشرها. ذكرني المشهد بالمرة الأولى التي دخلت فيها هذا المطبخ. جلست أقشر البطاطس حتى ناداني كيفن. لربما وصلته رسالتي الآن. بل على الأغلب وصلته. قد يكون في طريقه الآن.

هزرت رأسي أنهش الأفكار وبدأت بتقطيع الدجاجة. لا داعي لتعذيب نفسي.

«كانت تدفعني أمي إلى الطبخ» قالت آليس مقطبة جبينها

تحاول استدعاء الذكريات، «قالت إن عليَّ التعلم كي أطبخ لزوجي يومًا ما» قطبت جبينها ثانية. كنت على وشك قطع إصبعي وأنا أراقبها. ما الذي تحاول تذكره؟

«دانة؟».

«نعم؟».

«ألم يكن لك زوج؟ أتذكر مرة... شيئًا عن زوجك».

«نعم. في الشمال الآن».

«حر؟».

«نعم».

«الأحسن أن تتزوجي حرًّا. هذا ما قالته ماما دائمًا».

ماما على حق، فكرت في نفسي. لكني لم أرد.

«كان والدي عبدًا وباعوه بعيدًا عنها. كانت تقول إن الزواج من عبد بمثابة أن تكون عبدًا». نظرت إليَّ وقالت «كيف هي حياة العبد؟».

امتنعت عن إظهار تفاجئي بسؤالها. لم يخطر لي أنها لا تعرف كونها عبدة بعد. كيف فسرت وجودها هنا طوال هذا الوقت.

«يا دانة؟».

التفتُّ إليها.

«سألتك كيف هي حياة العبودية؟».

«لا أعرف» أخذت نفسًا عميقًا، «أفكر في حال كاري، كل الألم الذي تشعر به، ولا تستطيع حتى الصراخ».

«كيف لا تعرفين وأنت عبدة؟».

«لم أكن عبدة لوقت طويل».

«كنت حرة؟».

«نعم».

«وتركتهم يستعبدونك؟ كان عليك الهرب».

تفقدت الباب بنظرة. «انتبهي من الخوض في مثل هذه الأمور. قد تورطين نفسك» شعرت وكأني سارة وأنا أحذرها.

«لكن هذه حقيقة الأمور».

«أحيانًا الأفضل أن تحتفظي بالحقيقة لنفسك».

حدقت إليَّ بنظرة قلق «وكيف ستكون حياتك؟».

«لا تزعجي نفسك بي يا آليس. سيساعدني زوجي». توجهت إلى الباب أنظر تجاه كوخ كاري. لم أتوقع رؤية شيء لكنني أردت تغيير الموضوع. يبدو أنها تقترب من الحقيقة سريعًا، تكبر سريعًا. ستتغير حياتها إلى الأسوأ لو تذكرت كل شيء. ستعيش الألم ثانية وسيتسبب روفوس في كل الأذى. ولن يتسنى لي عمل شيء سوى المشاهدة.

«كانت ماما تقول إنها تفضل الموت على أن تكون عبدة» قالت.

«العيش أفضل» قلت، «على الأقل هنالك فرصة الهرب إلى

الحرية» فكرت بالحبوب المنومة في حقيبتي وكم أني منافقة. كم من السهل نصح الآخرين في التعامل مع آلامهم.

فجأة ألقت بالبطاطس التي كانت تقشرها في النار.

هلعت في مكاني أنظر إليها. «لماذا؟».

«أعرف أنك تخفين عني شيئًا».

تنهدت.

«ها أنا هنا» قالت، «مرت فترة على وجودي هنا» عيناها تضيقان، «هل صرت مثلك عبدة؟».

«نعم».

كانت قد ألقت بسؤالها وهي تقف نصف وقفة على المقعد. وبعد أن أجبتها عادت لتجلس بثقل، ظهرها وكتفاها في انحناء، تحيط معدتها بذراعيها وكأنها تحضن نفسها. «ولكني حرة. كنت حرة. وُلدت حرة!».

«نعم».

«دانة، أخبريني بما نسيتُ. أخبريني!».

«سترجع إليك الذكريات تدريجيًّا».

«لا، أخبريني أنت».

«صه، اسكتي أرجوك».

تراجعت متفاجئة بردي فقد صرخت. لربما شعرت أني غاضبة

وكنت كذلك بالفعل. لكن غضبي ليس موجهًا إليها. كنت أريد أن أجرها بعيدًا عن الحافة. لكنني تأخرت. عليها الآن أن تسقط.

«سأخبرك بكل ما تريدين» قلت بقلق، «ولكن صدقيني حين أقول إنك لا تريدين معرفة كل شيء».

«بل أريد!».

تنهدت. «طيب، ما الذي تريدين معرفته؟».

فتحت فمها ثم تقطب جبينها وزمت شفاهها. أخيرًا قالت: «الكثير... أريد معرفة كل شيء، لكن لا أعرف من أين أبدأ. كيف صرت عبدة؟».

«ارتكبت جريمة».

«جريمة؟ ماذا فعلت؟».

«ساعدت عبدًا على الهرب» توقفت، «هل انتبهت إلى أنك طوال فترة مكوثك هنا لم تسأليني من تسبب بإصاباتك؟».

يبدو أن سؤالي لامس شيئًا داخلها. جلست مذهولة للحظات، تقطب جبينها، قبل أن تنهض. راقبتها عن قرب. إن كانت ستنهار في حالة هستيرية فأريد أن يحدث ذلك هنا بعيدًا عن أنظار آل وايلن. أمور كثيرة قد تقولها ستثير غضب توم وايلن على الأخص.

«ضربوني» همست، «أتذكر. الكلاب. الحبل... ربطوني خلف حصان وصرت أركض لكني لم أستطع... ثم ضربوني... ولكن... لكن...».

اقتربت منها، وقفت أمامها، نظرتها كأنها تخترقني. رأيت فيها نظرة الألم والضياع التي بدت عليها يوم جاء روفوس بها من البلدة.

«آليس؟».

لم تسمعني. «إسحاق؟» همست. حركة شفاه أكثر منها همسة. ثم: «إسحاق!» انفجار صوتي. ركضت نحو الباب. تركتها تأخذ ثلاث خطوات قبل أن أمسك بها.

«اتركيني! إسحاق! إسحاق!».

«آليس توقفي. لا أريد إيذاءك» كانت تصارعني بكل جسدها الواهن.

«قطعوهما! قطعوا أذنيه».

كنت آملُ أنها لم ترَ ذلك. «آليس!» أمسكت كتفيها أهزها.

«يجب أن أذهب» صارت تبكي، «أبحث عن إسحاق».

«ربما. انتظري حتى تصبح لديك القدرة على السير لأكثر من عشر خطوات».

توقفت عن المقاومة، نظرت إليَّ عبر دموعها المنهمرة «إلى أين أرسلوه؟».

«مسيسيبي».

«يا إلهي...» ثم انهارت تبكي. كانت ستسقط على الأرض لو لم أمسك بها، أجرها وأحملها إلى المقعد. جلست ملقية بنفسها تبكي

وتصلي وتلعن. جلست بجانبها للحظات لكنها لم تتوقف. مضطرة لتركها كي أكمل تحضير العشاء. كنت أخشى من غضب وايلن على سارة. يكفي أن آليس استعادت ذاكرتها وستبدأ المشاكل. بشكل ما وجدت نفسي مسؤولة عن تخفيف هول الفاجعة عليها. أولًا روفوس والآن آليس، قدر المستطاع.

أنجزت العمل بشكل ما، بالرغم من أني كنت شاردة البال. كانت سارة قد تركت الحساء يطبخ على النار، هنالك السمك بحاجة إلى القلي، ولحم الخنزير بعد أن دكته بالحجر وتركته ينقع قبل غليه، وهنالك الدجاج أقليه، كما عليَّ تحضير خبز الذرة والصلصة، والبطاطس التي لم تكمل آليس تقشيرها، ووضع عجينة الخبز في الفرن الصغير بجانب الموقد، والخضراوات بما فيها سلطة، وكعكة الخوخ المسكرة، فمزارع وايلن تزرع الخوخ أيضًا. الحمد لله أن سارة كانت قد خبزت الكعكة مسبقًا. عليَّ أيضًا تحضير القهوة والشاي. سيأتيه ضيوف يشاركونه الوجبة. غالبًا ما تأتيه صحبة. يأكلون فوق اللازم. لا عجب أن أهم الأدوية في هذا الزمن هي المسهلات.

أنجزت تجهيز الأكل في الوقت المناسب ثم خرجت أبحث عن الولدين المكلَّفين بنقل الطعام من المطبخ إلى الطاولة وتقديمه. حين وجدتهما حاولا تضييع وقتي ينظران إلى آليس الصامتة ثم يعترضان عندما طلبت منهما الاغتسال. أخيرًا جاءت رفيقة الغسيل تاس تركض من البيت الرئيسي لتقول «السيد توم يقول جهزوا المائدة!».

«وهل الطاولة محضرة؟».

«جاهزة! على الرغم من أنك لم تطلبي ذلك!».

أوف. «أعتذر يا تاس. هاك ساعديني». مددت إليها وعاء الحساء بين يديها، «كاري في لحظة الولادة الآن وسارة مشغولة بها، هلَّا أخذتِ؟».

«ثم أعود إلى المزيد؟».

«رجاء».

راحت مسرعة. كنت قد ساعدتها كثيرًا في مهام الغسيل بل إني أحيانًا اضطررت إلى العمل أكثر منها لأن وايلن بات يأخذها إلى سريره أخيرًا وقد آذاها كثيرًا. يبدو أنها سددت دينها له.

ذهبت إلى البئر وتلقفت الولدين وهما على وشك بدء حرب مائية.

«إن لم تذهبا الآن لنقل الطعام فسوف...!».

«أف، وكأنك سارة».

«لا لست مثلها. تعرفان جيدًا ما هي مهمتكما والمطلوب منكما. الآن تحركا! وإلا سآتي مثلها بالسوط».

بشكل ما قدمنا العشاء في وقته. ويبدو أن طبخي كان مستساغًا. لربما لكانت الوجبة أكبر لو أن سارة قامت بتحضيرها، ولكني لا أظن أن المذاق كان ليختلف. فقد تجاوزت سارة جهلي الكامل في المطبخ وعلمتني كل ما تعرفه.

وبينما يأكل الضيوف وتعود الأطباق حاولت دفع آليس إلى

الأكل. جهزت لها صحنًا من البقايا ووضعته أمامها لكنها أبعدته جانبًا وأعطتني ظهرها.

قضت الوقت تحدق في الفراغ أو تتكئ برأسها على كفها لساعات. والآن فقط قررت أن تتكلم.

«لماذا لم تخبريني؟» سألتني بمرارة. «كان بإمكانك أن تقولي شيئًا، تخرجيني من غرفته، سريره... يا ربي، سريره! لا فرق بينه وبين من قطع أذني حبيبي، إسحاق حبيبي».

«لم يقل لأحد أن إسحاق قام بضربه».

«هراء».

«هذا ما حصل. لم يقل شيئًا لأنه لم يُرِد لك الأذى. أعرف ذلك لأني كنت معه طوال فترة تعافيه. اعتنيت به».

«لو كان عندك إحساس لتركته يموت».

«موته لن يغير ما حدث لك ولإسحاق. بل إنهم لو عرفوا بشكل ما الذي حصل لقرروا قتلكما».

«الدكتورة نيجر» قالت بنبرة حقد، «تظنين أنك تعرفين كل شيء. النيجر المثقف. النيجر الأبيض! لمَ لم تتركيني أموت أحسن؟».

لم أجبها. كانت تستشيط غضبًا أكثر فأكثر تصرخ عليَّ. التفت بعيدًا عنها أحاول تهدئة نفسي، هكذا أحسن، أن تعبر عن مشاعرها أمامي بدلًا من الآخرين.

وبينما تصرخ الآن، أسمع أيضًا الصوت المكتوم لطفلة تبكي.

١١

وُلد جود، الولد الأسمر النحيل لكاري ونايجل. ظل نايجل يعبر عن سعادته ويتبختر بابنه حتى أخبره وايلن أن يخرس ويعود إلى العمل على الممر المغطى الذي من المفترض أن يقوم ببنائه لربط المطبخ بالبيت. ولكن بعد أيام قليلة من ولادة ابنه، استدعاه وايلن إلى المكتبة وقدم إليه ثوبًا جديدًا لكاري وبطانية جديدة وبدلة جديدة له.

«شوفي» أخبرني نايجل لاحقًا بمرارة، «بسببي وكاري صار وايلن الآن أغنى، فقد جئنا له بنيجر جديد». أما أمام آل وايلن فقد اكتفى نايجل بتعابير الامتنان.

«شكرًا لك يا سيد توم. نعم يا سيدي. بالطبع شكرًا لك. ملابس أنيقة، نعم يا سيدي».

ثم راح يعمل على الممر المغطى.

في المكتبة، سمعت وايلن يقول لروفوس «كان من المفترض بك أنت أن تقوم بتقديم شيء له بدلًا من صرف مالك على تلك الفتاة عديمة الفائدة».

«تعافت الآن» قال روفوس، «دانة أعادت لها صحتها. لمَ تقول إنها بلا فائدة؟».

«لأنك ستحتاج إلى سلبها صحتها قبل أن تحصل على ما تريد منها!».

صمت.

«كان عليك الاكتفاء بدانة. على الأقل لديها بعض العقل» توقف لحظة ثم أردف «ربما عقل أكثر من اللازم، على الأقل لن تسبب لك مشاكل فقد تعلمت بعض الأشياء من ذاك الرجل فرانكلن».

مشى روفوس تاركًا توم بلا رد. سارعت أبتعد حين شعرت به يقترب من باب المكتبة حيث وقفت أسترق السمع. دخلت غرفة الطعام قبل أن أخرج ثانية وكأني أمر بالمكان.

«روف».

أعطاني نظرة تقول إنه لا يريد الحديث ولكنه توقف على أي حال.

«أريد كتابة رسالة أخرى».

تقطب جبينه «عليك بالصبر يا دانة. لم يمر الكثير من الوقت».

«مرَّ أكثر من شهر».

«طيب... لا أعرف. ربما انتقل كيفن ثانية، كل شيء جائز. أظن أن عليك منحه بعض الوقت ليجيب».

«يجيب عن ماذا؟» سأل وايلن. ها هو يفعل ما توقعه روفوس من قبل، التسلل من خلفنا في وسط الحديث دون أن نشعر به.

نظر روفوس إلى أبيه بشزر. «رسالة إلى كيفن فرانكلن، نخبره أنها هنا».

«كتبت رسالة؟».

«أنا تركت لها ذلك. فلم أكتبها بنفسي؟».

«كم أنك أحمق يا ولد...» توقف في نصف الجملة ليقول «دانة، عودي إلى عملك!».

تركتهما وبدأت أفكر إن كان روفوس قد أخطأ بجعلي أكتب الرسالة بدلًا من كتابتها بنفسه أو لأنه أرسلها. في النهاية إن لم يعد كيفن فإن أملاك وايلن ستضاف إليها عبدة جديدة. حتى وإن لم يجد مني فائدة فإن خيار بيعي متاح.

فزعت. يجب أن أقنع روفوس بكتابة رسالة أخرى. فربما ضاعت الرسالة الأولى أو وصلت إلى العنوان الخطأ. مثل هذه الأمور تحدث حتى في ١٩٧٦. الأكيد أن الوضع أسوأ بكثير في عالم العربات والخيول هذا. وبالتأكيد أن كيفن سيفقد الأمل إن عدت إلى البيت ثانية من دونه، سيقضي سنوات طويلة هنا، هذا إن لم يكن قد فقد الأمل بالفعل.

حاولت تفادي هذا الهاجس الذي يأتيني من وقت إلى آخر على الرغم من أن كل ما سمعته من الناس عنه يؤكد أنه ينتظرني. مازال ينتظرني.

توجهت إلى ساحة الغسيل أساعد تس. بت أبحث عن العمل الشاق، يشغلني عن التفكير. يظن البيض أني مجتهدة بينما يرى السود أني إما غبية وإما أتملق البيض. كل ما في الأمر أني أحاول السيطرة على مخاوفي وشكوكي قدر الإمكان حتى لا أفقد عقلي.

وجدت روفوس وحده ثانية في اليوم التالي، في غرفته هذه المرة حيث لن يقاطع حديثنا أحد. ولكنه لم يكترث لما قلته عن الرسالة. آليس تشغل كل تفكيره. صارت أقوى الآن وبات صبره معها ينفد. فكرت أنه على الأرجح سيحاول اغتصابها ثانية وثالثة. في الحقيقة، تفاجأت أنه لم يحاول ذلك بعد. اكتشفت أنه يخطط لتوريطي في الاغتصاب. وقد فعل ذلك تمامًا.

«تحدثي معها يا دانة» قال بعدما تجاهل موضوع الرسالة، «أنت تكبرينها سنًّا، فهي ترى فيك شخصًا ذا معرفة، كلميها».

كان يجلس في سريره يحدق إلى المدفأة الباردة. جلست إلى طاولة المكتب أنظر إلى القلم البلاستيكي الذي أعرته إياه. يبدو أنه خلَّص على نصف الحبر فيه. «ماذا كنت تكتب بكل هذا؟».

«يا دانة اسمعيني!».

التفت نحوه وقلت «سمعتك».

«وماذا الآن؟».

«لا يمكنني منعك من اغتصاب المرأة يا روف، لكني لن أقوم بمساعدتك».

«تريدين لها أن تتأذى؟».

«بالتأكيد لا، ولكن ذلك قرارك، صح؟».

لم يجبني.

«روف، اتركها لحالها. ألم تعاني بسببك كفاية؟» لن يتركها، أعلم ذلك جيدًا.

صارت عيناه الخضراوان تلمعان. «لن تفلت مني ثانية. أبدًا!» أخذ نفسًا عميقًا ثم زفر ببطء. «تعرفين أن بابا يريد إرسالها إلى العمل في الحقل وأن آأخذك بدلًا منها».

«فعلًا؟».

«يظن أن كل ما أريده امرأة. أي امرأة. فلمَ لا تكونين أنتِ الخيار. يقول إنك أسهل».

«وهل تتفق معه؟».

تردد ثم حاول الابتسام «لا».

هززت رأسي «جيد».

«أعرفك يا دانة، تريدين كيفن كما أريد أنا آليس. أنت أكثر حظًّا مني، فمهما يحدث الآن الأكيد أنه لا يريد سواك. لربما لن أنجح يومًا في الحصول عليها ونيل حبها في آن واحد. لكنني سأتنازل قدر الإمكان في سبيل المحاولة».

«ماذا تقصد بمهما يحدث الآن؟».

«وما ظنك أني أقصد؟ لقد مرت خمس سنوات! هل تريدين كتابة رسالة أخرى؟ ألم تفكري أنه ربما ألقى برسالتك الأولى في القمامة؟ أو صار مثل آليس يريد الارتباط بامرأة من عرقه».

لم أجب. فهمت ما يفعله هنا، يحاول مشاركتي ألمه، يحاول

أن يصيبني بنفس الجرح. وبالتأكيد عرف نقطة ضعفي. حاولت الاحتفاظ بتعبير هادئ لكنه لم يتوقف.

«أخبرني مرة أنكما كنتما متزوجين لأربع سنوات. معنى ذلك أن الوقت الذي قضاه هنا من دونك أطول من الفترة التي عشتماها معًا. أشك أنه كان سينتظرك هذه الفترة لو لا أنك طريقه الوحيدة للعودة. ولكن الآن.. من يعرف! لربما التقى بامرأة مناسبة أنسته كل شيء».

«روف، كل ما تقوله لن يقنعني بتسهيل مهمتك مع آليس».

«لا؟ طيب ماذا لو خيرتك بين فعل ما أريد أو مشاهدة جيك إدواردز يجلدها حتى تعقل!».

نظرت إليه بقرف «وهل هذا هو الحب؟».

قبل أن ألتقط نفسًا آخر كان قد نهض على رجليه يعبر الغرفة، جلست في مكاني أتابعه، مرعوبة، فجأة تذكرت المطواة وكيف أن بإمكاني الوصول إليها سريعًا. لن أسمح له بضربي، هو على الأخص، أبدًا.

«انهضي!» قال يأمرني. لم يسبق له أن أمرني، خاصة بمثل هذه النبرة. «قلت انهضي».

لم أتحرك.

«يبدو أني تساهلت معك كثيرًا» قال. بدا صوته قبيحًا بنبرة منخفضة. «عاملتك على اعتبار أنك أفضل من بقية النيجر. يبدو أني قد أخطأت».

«ممكن» قلت، «كنت أنتظر منك أن تثبت أني على خطأ».

للحظات تجمد في وقفته المنتصبة فوقي، رأيت في عينيه أنه يوشك على ضربي. ولكنه في النهاية استرخى مستندًا إلى طاولة المكتب. «تظنين أنك بيضاء!» تمتم، «كما حيوان متوحش لا تعرفين مكانك».

بقيت ساكتة.

«تظنين أنك تملكينني لأنك أنقذت حياتي!».

استرخيت، سعيدة بأني لن أضطر إلى قتل الشخص الذي أنقذت. لن أعرض حياة آخرين للخطر، بما فيها حياتي.

«لو أني رغبتك كما أرغبها لفضلت قتل نفسي» قال.

أتمنى ألا يحدث ذلك. وإن حصل، فإن أحدنا سيضطر إلى القتل.

«ساعديني يا دانة».

«لا أستطيع».

«تستطيعين! أنت فحسب من يستطيع. اذهبي إليها. أرسليها إليَّ. سآخذها سواء ساعدتني أم لا. كل ما أريد أن تسير الأمور على ما يرام دون أن أضطر إلى ضربها. لست بصديقة لها إن لم تساعدي في ذلك».

صديقتها! يبدو أنه قد ورث مكر طبقته الرخيص. لا، لن

أستطيع رفض مساعدة الفتاة، مساعدتها في تفادي بعض الألم. لكنها بالتأكيد لن ترى في ذلك صداقة أو تقديرًا. بل إني شخصيًّا سأحتقر نفسي.

«افعلي ما أقول!».

نهضت لأبحث عنها.

بدت غريبة الآن، شاردة الذهن، أحيانًا تحتاج إلى صداقتي، تثق بي لتعبر عن حنينها الخطر إلى الحرية، وخططها الجامحة للهرب مرة أخرى، لكنها في أحيان أخرى تكرهني وتلومني على كل شيء.

ليلة ما في العلية وجدتها تبكي بوداعة تكلمني عن إسحاق. ثم توقفت فجأة لتقول «هل وصلك رد من زوجك يا دانة؟».

«ليس بعد».

«اكتبي رسالة أخرى. حتى ولو سرًّا».

«أعمل على ذلك».

«لا أريد لك خسارة زوجك مثلي».

ولكن بعد لحظات ودون سبب أفهمه، بدأت بمهاجمتي «يجب أن تخجلي من نفسك، تتباكين وتشتكين بانتظار رجل حثالة أبيض وأنت سوداء. إلى متى تتصرفين كالبيض؟ نيجر أبيض تتآمر على ناسها».

لم أعتد بعد تحولاتها المفاجئة وهجومها لكني تحملتها. رافقت رحلتها في التعافي ولا أستطيع الآن التخلي عنها وسط الطريق. أغلب

الوقت لم أشعر بالغضب حتى. فهي مثل روفوس، عند الوجع، تحاول جرح الآخرين. لكن وجعها يخف مع مرور الأيام، وهجماتها عليَّ تتراجع. تتعافى عاطفيًّا وجسديًّا. أنا من ساعدها خلال ذلك. والآن أساعد روفوس على فتق جروحها ثانية.

كانت في كوخ كاري تعتني بجود وطفلين آخرين تُرِكا معها. لم تكن لها أي مهام بعد، ولكنها مثلي تجد عملًا تنجزه. تحب الأطفال والخياطة. تأخذ القماش الأزرق الخشن الذي اشتراه وايلن للعبيد لتخيطه بينما يلعب الأطفال عند قدميها. اشتكى وايلن أنها لا تفرق عن العمة ماري التي تقضي وقتها مع الأطفال وفي الخياطة، ورغم ذلك جاء إليها بملابسه لتقوم بتعديلها. تخيط الملابس بهمة وجودة أكثر من المرأة التي ورثت مهام العجوز ماري، وإن كان لآليس عدو في العزبة كلها، فإنها ليزا المرأة المكلفة بالخياطة، فهي الآن تواجه خطر عمل شاق يوكل إليها بسبب آليس.

ذهبت إلى الكوخ أجلس مع آليس بالقرب من المدفأة الباردة. نامت جود بجانبها على السرير الذي صنعه نايجل له. بينما بقي الطفلان الآخران يقظين مستلقيين على بطانيات على الأرضية بهدوء، يلعب كل طفل بقدميه.

التفتت آليس إليَّ ثم رفعت ثوبًا أزرق أمامي «هذا لك» قالت، «لا يمكنني احتمال رؤيتك ترتدين بنطالًا ثانية».

نظرت إلى الجينز الذي أرتديه «اعتدت هذه الملابس حتى أني نسيت. كما أن البنطال يعفيني من خدمة تقديم الطعام».

«ما السيئ في تقديم الطعام؟» هي أيضًا اضطرت إلى تقديم الطعام عدة مرات «لو أن السيد توم لم يكن بخيلًا لكنت حصلت على فستان منذ فترة. كم يحب هذا الرجل دولاراته، أكثر مما يحب المسيح».

صدقت في قولها، فوايلن يتعامل مع البنوك دائمًا، أعرف ذلك لأنه يشتكي منهم أحيانًا. لكني لم أره يتعامل مع الكنيسة أبدًا ولا حتى يستضيف صلاة جماعية في بيته، حتى أن بعض العبيد إن احتاجوا إلى الصلاة، اضطروا إلى التسلل ليلًا والمجازفة مع الدوريات لحضور مناسبة دينية ما.

«على الأقل ستبدين بمظهر امرأة حين يعود زوجك» قالت آليس.

أخذت نفسًا عميقًا «شكرًا».

«والآن أخبريني بما جئت لإخباري به... بالرغم من أنك لا تريدين قوله».

نظرت إليها مصدومة.

«هل تظنين أني بعد كل هذا الوقت لا أستطيع قراءتك؟ واضح من وجهك أنك وددت لو لم تأتي هنا».

«نعم. أرسلني روفوس للحديث معك» ترددت، «يريدك الليلة».

تجهم وجهها «أرسلك أنتِ لتخبريني بذلك؟».

«لا».

ظلت تنتظر كلماتي وتحملق بغضب بانتظار أن أقول المزيد.

لم أنطق.

«طيب! لأي سبب أرسلك إذًا؟».

«كي أقنعك بالذهاب إليه بهدوء، وكي أحذرك أنك إن حاولت المقاومة فإنه سيجلدك».

«اللعنة! طيب ها أنت قد أخبرتني. اغربي عن وجهي الآن قبل أن ألقي هذا الفستان في النار ليحترق».

«في ستين داهية، لا يهمني الفستان».

الآن بدت الصدمة عليها لأني لم يسبق لي مخاطبتها بهذه الطريقة حتى حين استفزتني.

أرحت ظهري على الكرسي الذي صنعه نايجل «أوصلت الرسالة» قلت، «افعلي ما تشائين».

«نعم سأفعل ما أشاء».

«ولكن فكري فيما سيحدث، فكري في ما سيحدث لاحقًا وفي مفترق الطرق».

«عم تتحدثين؟».

«يبدو أنك أمام ثلاثة خيارات. بإمكانك الذهاب إليه كما طلب، أو ترفضين فيجلدونك ثم يغتصبك، أو تهربين مرة أخرى».

لم تقل شيئًا، منحنية في مكانها تخيط وتسحب الإبرة في حركة رشيقة بالرغم من أن يديها ترتعشان. انحنيت ألعب مع أحد الأطفال، ترك اللعب بقدميه ليقوم باستكشاف حذائي. طفل سمين فضولي لا يتجاوز عمره عدة شهور، يشد قميصي بمجرد أن رفعته عن الأرض.

«سيتبول عليك بعد قليل» قالت آليس، «يحب التبول بمجرد أن يلتقطه أحدهم».

بسرعة وضعت الطفل في مكانه، في اللحظة المناسبة.

«دانة؟».

نظرت إليها.

«ما الذي عليَّ فعله؟».

ترددت، هززت رأسي. «لا يمكنني نصحك في ما يخص جسدك».

«لا أملك جسدي» قالت بصوت محبوس، «هو من يملكه. اشتراه بالمال، أليس كذلك؟».

«دفع إلى من؟ إليك؟».

«تعلمين أنه لم يدفع إليَّ شيئًا! وما الفرق؟ خطأ أم صح، القانون يقول إنه يملكني. لا أفهم ما الذي جعله ينتظر حتى الآن ليجلدني رغم كل ما قلته له...».

«تعرفين السبب».

صارت تبكي «مفروض أن أأخذ سكينًا إلى داره وأقطع رأسه» قالت وهي تحملق بي، «اذهبي وأخبريه بذلك! أخبريه أني أتوعد بقتله!».

«أخبريه بنفسك».

«قومي بعملك! أخبريه! أليست هذي مهمتك؟ مساعدة البيض في السيطرة علينا. لذلك أرسلك. سيلقبونك بالماما بعد سنوات قليلة، تديرين البيت كله بعدما يموت الرجل».

هززت كتفي بعجز ثم سحبت خيط الحذاء من فم الطفل الفضولي.

«دانة، أخبريه. دعيه يفهم أنك المرأة التي يريدها لا أنا».

لم أجبها.

«رجل أبيض، رجلان أبيضان، ما الفرق؟».

«رجل أسود، رجلان أسودان، ما الفرق؟».

«أفضل معاشرة عشرة رجال سود واحدًا بعد الآخر على أن أخون ناسي».

هززت كتفي ثانية أرفض التورط في جدال لا يمكنني الفوز فيه.

تمتمت بنصف كلمة ثم غطت فمها بيديها. «ما مشكلتك؟» قالت بنبرة قلقة، «لم تتركيني أهينك بهذا الشكل؟ لقد بذلت كل

جهدك معي، بل إنك أنقذت حياتي. رأيت قبلي من مات لأسباب أقل مما تعرضت له. لم تسمحين لي بمخاطبتك بهذا الطريقة السيئة؟».

«السؤال إليك: لماذا تحدثيني بهذه الطريقة؟».

تنهدت وانحنت بظهرها بشكل مائل على كرسيها. «لأني أفور غضبًا... أغضب إلى حد أني أشعر بطعم الغضب في فمي. وأنتِ الوحيدة التي بإمكاني تفريغ غضبي عليها، الوحيدة التي بإمكاني إيذاؤها دون أن تؤذيني».

«لا تستمري» قلت، «أنا مثلك، عندي مشاعر».

«هل تريدين لي أن أذهب إليه؟».

«لا أستطيع طلب ذلك منك. القرار قرارك».

«لو كنت في مكاني؟».

حدقت إلى الأرضية «نحن في موقفين مختلفين، ما كنت سأفعله لا يهم هنا».

«أكنت ستذهبين إليه؟».

«لا».

«بالرغم من أنه مثل زوجك؟».

«غير صحيح».

«ولكن.. طيب، حتى بالرغم من أنك.. لا تكرهينه كما أكرهه أنا؟».

«بالرغم من ذلك».

«طيب معناها لن أذهب أنا أيضًا».

«وماذا ستفعلين؟».

«لا أعلم. أهرب؟».

نهضت لأخرج.

«إلى أين؟» سألتني سريعًا.

«لأماطل روفوس. سأبذل جهدي حتى يعفيك الليلة وبذلك تكسبين بعض الوقت على الطريق».

ألقت بالفستان على الأرض ونهضت من كرسيها لتمسكني بكتفي «لا يا دانة! لا تذهبي». أخذت نفسًا عميقًا ثم ارتخى جسدها. «لا تصدقيني. كيف يمكنني الهرب ثانية؟ لا أريد الهرب. لا أستطيع. لا ينتظرني على الطريق سوى الجوع والخوف والمرض، كنت من شدة التعب لا أستطيع المشي. ثم يجدونك وتأكل لحمك الكلاب... يا ربي، الكلاب...» صمتت للحظة، «سأذهب إليه. يعرف أني كنت سأذهب إليه في نهاية الأمر. لكنه لا يعرف كم أني أود قتله».

١٢

ذهبت إليه. تغيرت، صارت شخصًا أهدأ وأكثر طواعية. لم تقتل، لكنها تموت ببطء كل يوم.

لم يأتِ كيفن ليأخذني، لم يكتب لي. اقتنع روفوس أخيرًا بكتابة رسالة أخرى، أو هكذا يجازيني مقابل خدماتي، ثم ذهب لإرسالها. انقضى شهر آخر دون رد من كيفن.

«لا تقلقي» أخبرني روفوس، «على الأرجح أنه انتقل إلى مكان آخر ثانية. سيصلنا خطاب آخر قريبًا بعدما يستقر في ماين».

لم أعلق على ما قاله. بات روفوس سعيدًا ومنشرحًا في الحديث، يفصح عن عاطفته أمام الجميع تجاه آليس التي بالكاد تتحمله. أحيانًا يشرب أكثر من اللازم وفي صباح ما خرج الأمر عن السيطرة فنزلت آليس إلينا بوجه متورم مكدوم.

كان ذلك الصباح الذي قررت فيه ألا أطلب مساعدته في السفر شمالًا للبحث عن كيفن. لم أتوقع منه المال لكنني أردت ورقة شبه رسمية تسمح لي بالسفر. أو يذهب معي حتى الحدود مع ولاية بنسلفانيا. أو ربما قد يمنعني من السفر أصلًا!

عرف روفوس الطريقة الأمثل للسيطرة عليَّ، عبر تهديد الآخرين. طريقة أسهل من تهديدي مباشرة، ونجح فيها. بلا شك أنه درس تعلمه من أبيه. وايلن مثلًا عرف لأي حد بإمكانه الضغط على سارة. باع أطفالها الثلاثة وترك لها واحدة لتعيش من أجلها وتحميها. لم يكن صعبًا عليه إيجاد مشتريًا لكاري بغض النظر عن إعاقتها. كما أن كاري فتاة شابة لها دورها في البيت. لم تكن فقط متفانية في العمل، بل إنها أنجبت له عبدًا جديدًا، كما أنها السبب في انضباط أمها ثم زوجها، دون أن يضطر وايلن إلى بذل أي مجهود

معهما. لم أود معرفة إلى أي مدى تأثر روفوس بإستراتيجية أبيه هذه.

تذكرت الخريطة. كانت عليها أسماء البلدات التي لو عرفتها لكتبت أسماءها في ورقة إذن التنقل. بلا شك أن البعض منها لم تُنشأ بعد، ولكنها على الأقل كانت ستعطيني فكرة عما سأصادفه على الطريق. الآن عليَّ المجازفة من دون خريطة.

أعرف أن «إيستن»تقع على بعد أميال شمالًا، وأن الطريق الذي يمر ببيت وايلن يأخذني إليها. ولسوء الحظ فإن الطريق يمر بالكثير من الحقول المكشوفة التي سيصعب عليَّ الاختباء فيها. وبغض النظر عن الورقة، الأكيد أن عليَّ الاختباء من البيض كلما استطعت.

أحتاج إلى حمل مؤونة كافية معي: الخبز واللحم المدخن والفواكه المجففة وقنينة ماء. كلها متاحة أمامي. سمعت عن عبيد ماتوا في الطريق من الجوع أو تسممًا لأنهم مثلي يجهلون أنواع النباتات البرية الصالحة للأكل.

بل إني قرأت وسمعت من القصص المرعبة عن مصير الهاربين ما يكفي لإبقائي في بيت وايلن لأيام إضافية. لربما لم أصدق القصص لكن قصة إسحاق وآليس تكفيني. حتى أعطتني آليس الدفعة التي احتجتها.

كنت أساعد تاس في عمل الغسيل، نتصبب عرقًا بينما نحرك الملابس القذرة في الماء المغلي داخل القدر النحاسي الضخم، حين

جاءت آليس إليَّ، تسللت من ورائي، التفت إليها من على كتفي لأجد في عينيها نظرة الرعب.

«انظري» قالت آليس دون أن تلقي بالًا لتاس التي توقفت عن تقليب بنطال وايلن لتتابع حديثنا. يبدو أنها تثق بتاس. «انظري» قالت، «كنت أفتش في دولاب السيد روفوس فوجدت ما لم أتوقع وجوده».

سحبت رسالتين من جيب المريلة. رسالتان، أختامهما ممزقة، مكتوبة بخط يدي.

«يا إلهي!» همست.

«رسائلك؟».

«نعم».

«هذا ما ظننته. بإمكاني قراءة بعض الكلمات. عليَّ ارجاعها الآن».

«نعم».

التفتت تسير.

«آليس».

«ها؟».

«شكرًا. حاذري وأنت تعيدينهما».

«وأنتِ حاذري أيضًا» قالت. التقت أعيننا للحظة، فهمت كل منا مقصد الأخرى.

رحلتُ ليلتها.

جمعت الأكل واستعرت إحدى قبعات نايجل القديمة لأخفي تحتها شعري الذي -لحسن الحظ- لم يكن طويلًا. حين طلبتها من نايجل حدق إليَّ للحظة طويلة ثم جاء بها دون طرح أي أسئلة. لا أظن أنه توقع مني إعادتها.

ثم سرقت بنطالًا قديمًا من روفوس وقميصًا مهترئًا، فقد أصبحت قمصاني وبنطالي الجينز علاماتي المميزة عند جيران روفوس، كما أن الفستان الذي صنعته لي آليس مقارب جدًّا لأي فستان قد ترتديه عبدة هنا. قررت أن أتخفَّى كرجل. لربما سيبدو شكلي رثًّا لكن الملابس الرجالية وطولي وصوتي الرنان قد تغير من صورتي. أو هكذا آمل.

جمعت كل ما أستطيع في حقيبتي القماشية وتركتها في مكانها المعتاد حيث أستخدمها كوسادة. صارت حريتي في التنقل مفيدة أكثر من أي وقت سابق. أينما تواجدت لم يسألني أحد «ماذا تفعلين هنا؟» أو «اذهبي إلى العمل». الكل يظن أني مشغولة بعمل ما، فمن غيري يلعب دور المرأة البلهاء المتفانية التي لا تكل ولا تمل من العمل؟

لا أحد يزعجني، أستطيع تجهيز نفسي. بل إني اقتنصت فرصة مناسبة للدخول إلى مكتبة وايلن. ومع نهاية اليوم، ذهبت مع بقية الخدم إلى العلية أنتظر أن ينام الجميع. وكانت هذه غلطتي.

أردت أن يقولوا إنهم رأوني في فراشي. أردت أن يضيع روفوس

وتوم وايلن بعض الوقت في التفتيش عني في العزبة غدًا بعدما ينتبهان إلى عدم وجودي. فلو أن أحد الخدم أخبرهم بأنه لم يرني في السرير البارحة فإن أمري سينكشف.

يبدو أني خططت أكثر من اللازم.

نهضت من السرير بعدما تأكدت من نوم الجميع. حوالي منتصف الليل. فكرت أني قبل شروق الشمس سأكون قد اجتزت إيستن. كنت قد تناقشت مع من سبق لهم قطع هذه المسافة مشيًا. وقبل أن تشرق الشمس، سأضطر إلى الاختباء والنوم حتى الغروب. وقتها أكتب ورقة عبور باسم الأماكن الأخرى التي عرفت أسماءها ومواقعها من مكتبة وايلن. كان هنالك مكان على خط المقاطعة اسمه واي ميلز. بعد تلك النقطة، أكون في الطريق إلى الشمال الشرقي، أعبر بعزبة ابن عم وايلن باتجاه ولاية ديلاوير ثم أقطع أعلى منطقة في شبه الجزيرة. أردت بذلك تفادي الأنهار. كان لديَّ انطباع أنها قد تصعِّب من مهمتي.

تسللت من بيت وايلن، أمشي في الظلام بثقة أقل من المرة التي ذهبت فيها إلى بيت آليس قبل شهور. أو قبل سنوات. وقتها لم أكن أعرف ما الذي ينتظرني في الطريق. كما لم أكن قد رأيت من اعتقل بعد الهرب مثل آليس. ولم أعرف وقتها ضربة السوط على ظهري أو ركلات على وجهي.

شعرت بالغثيان من شدة الخوف لكني لم أتوقف عن المشي. عثرت بعصا في الطريق، لعنتها أولًا ثم انحنيت لألتقطها. شعرت

بها في يدي قوية. سبق وأنقذتني عصًا مثل هذه. والآن تُشتِت بعضًا من خوفي وتمنحني بعض الثقة. مشيت أسرع أتحرك بين الأشجار بالتوازي مع الطريق بمجرد أن تجاوزت حقول وايلن.

كانت الطريق تمضي شمالًا باتجاه كوخ آليس القديم، تمر على عزبة هولمن ومن ثم إيستن التي عليَّ تجنبها. على الأقل لم يكن المشي صعبًا فالأرض مستوية هنا مع القليل من التلال المنخفضة. الطريق محاطة بأشجار كثيفة ستسمح لي بالاختباء. كما لم ألمح الماء إلا في جداول صغيرة جدًّا بالكاد بللت قدمي. ولكن الحال ستتغير، بالتأكيد أن النهر ينتظرني في مكان ما.

اختبأت من عجوز أسود يقود عربة يجرها بغل. كان يدندن لحنًا بلا كلمات، لا يبدو عليه الخوف من رجال الدورية أو أي مخاطر أخرى. أحسده على مثل هذا الهدوء.

اختبأت من ثلاثة خيالة بيض مروا بقربي. كان معهم كلب وكنت خائفة أن يشم رائحتي فيكشف عن مكاني. لحسن الحظ أن الريح عملت لصالحي ومر الأمر بسلام. لكن كلبًا آخر شعر بي لاحقًا، انطلق يركض باتجاهي قاطعًا الحقل يقفز فوق سياج ثم ينبح. التفت لمواجهته بلا تفكير، أضربه بالعصا وهو ينقض عليَّ.

لم أكن فعلاً خائفة. بل أخاف الرجال البيض وكلابهم، أو مجاميع الكلاب، أتذكر حكايات سارة عن هاربين مزقتهم الكلاب إربًا. لكن كلبًا وحيدًا مثل هذا لا يمثل خطرًا علي.

وبالفعل لم يكن خطرًا. ضربته فسقط على الأرض ثم نهض يعرج بعيدًا ويعوي. تركته يمشي وسعدت لأني لم أضطر إلى ضربه ثانية، فلطالما أحببت الكلاب.

استعجلت في مشيتي محاولة الابتعاد قدر الإمكان عن نباح الكلب الذي لفت الانتباه فخرج البعض من بيوتهم يستكشفون. لكن الصدفة السيئة زادتني ثقة في الدفاع عن نفسي وصارت أصوات الليل لا تخيفني بنفس الشدة.

وصلت إلى البلدة أحاول تفادي رؤيتها قدر الإمكان، كل ما فيها بعض المباني المظلمة. أكملت سيري وقد بدأ التعب يسيطر عليَّ، وصرت أقلق من اقتراب الفجر. لم أعرف إن كان توتري في محله أم أنه مدفوع برغبتي في الراحة. لم تكن المرة الأولى التي تمنيت فيها لو أني ارتديت ساعة عندما استدعاني روفوس إلى هنا.

دفعت نفسي إلى المضي قدمًا حتى وجدت السماء تضيء من أمامي. وعندما بحثت عن مكان أختبئ فيه، سمعت خبب أحصنة عن قرب. ابتعدت عن الطريق أكثر وتقرفصت محاطة بشجيرات كثيفة وعشب وأشجار يافعة. اعتدت الاختباء الآن ولم أعد خائفة. لم يلمحني أحد بعد.

ببطء أقبل رجلان على حصانيهما نحوي. بطء شديد. كانا يفتشان المكان، يحدقان إلى ظلمة الأشجار. بإمكاني رؤية أحد الحصانين بلونه الفاتح، رمادي، يقترب نحوي.

قفزت في مكاني. قمعت صرختي، لكن جسدي فشل في البقاء

ساكنًا، وسمعت صوت انكسار غصن صغير من تحتي لم أكن أعلم بوجوده.

توقف الرجلان على مسافة قريبة جدًّا مني، روفوس على حصانه الرمادي المعتاد، وتوم وايلن على حصانه الداكن. بإمكاني رؤيتهما بوضوح الآن. يبحثان عني، كيف علما سريعًا بهربي؟! كنت أظن أنهما لن يكتشفا الأمر حتى الغد. بالتأكيد أن أحدًا قد أبلغهما. شخص رآني أخرج، شخص غير روفوس وتوم وايلن. كان بإمكان الشخص منعي وقتها. بالتأكيد أنه أحد العبيد. شخص ما خانني. والآن يبدو أني قد خنت نفسي.

«سمعت شيئًا» قال توم وايلن.

رد روفوس «وأنا كذلك، الأكيد أنها في مكان ما هنا».

انكمشت في مكاني، أحاول تصغير نفسي قدر الإمكان دون إحداث صوت.

«اللعنة على فرانكلن» سمعت روفوس يقول.

«تلعن الرجل الخطأ» رد وايلن.

لم يرد روفوس.

«انظر هناك!» أشار وايلن تجاهي، إلى الشجيرات من أمامي. اقترب من المكان يستقصي وقد أفزع طائرًا كبيرًا من مكانه.

عينا روفوس أقوى. تجاهل أباه واتجه نحوي مباشرة. لا أظن أنه لمحني، لكنه ميَّز المكان كمخبأ محتمل. ثم فجأة اندفع بحصانه يحطم

الشجيرات التي اختبأت بينها، يدعسني أو يدفعني إلى الخروج. خرجت بالفعل، أقفز على الجانب الآخر بعيدًا عن حوافر الحصان.

أطلق روفوس صرخة وقفز فوقي ليثبتني. سقطت تحت ثقله وأفلتت العصا من يدي لتنزل تمامًا في المكان الذي ارتميت فوقه.

سمعت قميصي يتمزق وطرف العصاة يخدش جانبي.

«ها هي!» قال روفوس، «اصطدتها!».

سيصطاد شيئًا آخر لو استطعت الوصول إلى المطواة. رحت أتلوى في مكاني أحاول الوصول إلى كاحلي بينما يجثم فوقي. فجأة اشتعل خصري بالألم.

«تعالَ ساعدني نثبتها» نادى.

اقترب والده وبخطوة كبيرة لكمني في وجهي.

بالطبع نجحت الضربة في تثبيتي لحظتها. على مسافة ما سمعت صوت روفوس يصرخ، لسبب ما صراخه بدا هادئًا، «لِمَ ضربتها؟!».

فقدت وعيي قبل سماع رد وايلن.

١٣

استيقظت لأجدني مقيدة اليدين والقدمين، خصري ينبض بالألم، فكي لا أشعر به، يصرخ بالوجع. حركت لساني في فمي لأكتشف أني قد فقدت ضرسين من الجانب الأيمن.

ألقوا بي فوق حصان روفوس، قدماي وذراعاي تترنح في الهواء، والدم يصب من فمي على الحذاء المألوف لروفوس.

صدر عني صوت ما، مثل آه مخنوقة، فتوقف الحصان. شعرت بروفوس يتحرك، قام بإنزالي، ووضعني على العشب بجانب الطريق. ينظر روفوس إليَّ من فوقي.

«كم أنك حمقاء» قال بنعومة. أخذ منديله يمسح الدم عن وجهي. ارتعدت بعيدًا بينما تنهمر الدموع من عيني بسبب الألم.

«حمقاء!» كرر روفوس.

أغمضت عيني وشعرت بالدموع تنزل إلى شعري.

«لا تقاومي وسأفك الحبل عنك».

بعد لحظات هززت رأسي موافقة. شعرت بيده قرب رسغي وكاحلي.

«ما هذا؟».

يبدو أنه وجد المطواة. سيربطني ثانية. أو هكذا سأفعل لو كنت مكانه. نظرت نحوه.

كان يفك الغمد عن كاحلي. مجرد قطعة جلدية مهترئة منسوجة بشكل سيئ. يبدو أني قد فقدت المطواة خلال محاولة الإفلات منه. بلا شك أنه عرف بما خبأته في الغمد. نظر إليه ثم نظر إليَّ. أخيرًا صار يهز رأسه متجهمًا قبل أن يسحب الغمد ويلقي به بعيدًا.

«انهضي».

حاولت النهوض. في النهاية، احتجت إلى مساعدته. كانت قدماي قد تنملتا من شدة ضغط الحبل، والآن عاد الألم إليهما. لو قرر روفوس ربطي بحصانه فيجبرني على الركض خلفه، فإنه حتمًا سيجر جسدي حتى الموت.

لاحظ أني أمسك بخصري وهو يحملني إلى حصانه، توقف ينحي يدي جانبًا ليكشف على الجرح.

«خدش» قال، «محظوظة. كنت تخططين لضربي بالعصا، صح؟ وماذا بعد؟».

لم أرد عليه، تذكرت كيف دفع حصانه إلى مخبئي. بالكاد نجوت.

بينما أميل على حصانه، راح يمسح المزيد من الدماء عن وجهي، بيده الأخرى يثبتني حتى لا تفز رأسي بعيدًا. لا أعرف كيف لكني تحملت الألم.

«الآن صارت لديك هوة في فمك» قال ملاحظًا، «لن يلاحظها أحد إلا لو ضحكت. جيد أنها لم تكن أسنانك الأمامية».

بصقت دمًا على حظي الملعون، لكنه بالطبع لم يفهم أن بصقتي كانت ردًّا عليه.

«طيب» قال، «هيا».

توقعت أنه سيربطني إلى الحصان أو يلقي بي فوقه ككيس قمح كما فعل مسبقًا. بدلًا من ذلك أجلسني على الحصان أمامه. لم أكن قد علمت بوجود وايلن أمامنا على مسافة قريبة.

«ها، شفتي؟» قال العجوز، «النيجر المتعلم ليس بالضرورة نيجرًا ذكيًّا، أليس كذلك؟» ثم أكمل طريقه لا يتوقع ردًّا مني، كما أني لم أرد.

جلست مقتضبة في مكاني أحاول جعل جسدي مستقيمًا بشكل ما حتى قال روفوس «استرخي بظهرك عليَّ حتى لا تقعي. اللعنة، عندك من الكبرياء ما يفوق المنطق».

مخطئ. لحظتها لم أشعر بذرة كبرياء. عدت بظهري إليه، بحاجة إلى أي دعم متاح، وأغمضت عيني.

لم ينطق بشيء لفترة طويلة حتى اقتربنا من البيت.

«دانة، استيقظي».

عدلت جلستي «نعم».

«سيأتون بالسوط» قال، «تعلمين ذلك».

لسبب ما لم أتوقع ذلك. قام بتخدير عقلي بأسلوبه اللطيف. والآن مجرد التفكير بكَمِّ الألم الذي ينتظرني. ارتعدت، السوط ثانية، «لا!».

بلا تفكير أو نية مني، أنزلت رجلًا واحدة وانزلقت عن الحصان. خصري يوجعني، فمي، وجهي كله ينزف، لكنَّ كل هذا لن يضاهي ألم السوط. رحت أركض نحو الأشجار البعيدة.

التقطني روفوس بسهولة وثبتني، يلعنني، يدوس على جروحي. «ستأخذين الجلدة!» قال بصوت فحيح «كلما قاومتي ستتأذين أكثر».

هل سيجلدني هو؟ وايلن أم المراقب إدواردز؟

«تصرفي بعقل!» قال روفوس بينما أستمر في محاولة الإفلات منه.

تصرفت كامرأة مجنونة، لو أن المطواة معي لقتلت أحدهم. بيدي وقدمي أقاوم، الخدوش والكدمات على روفوس وأبيه ومن ثم إدواردز الذي نادوا عليه ليساعدهم. كنت منهارة تمامًا. لم أشعر من قبل برغبة شرسة لقتل أحدهم.

أخذوني إلى الإسطبل وقيدوا يديَّ ورفعوني إلى الأعلى بحيث لم أستطع ملامسة الأرض بأصابع قدمي. حينها قام وايلن بتمزيق ملابسي عني وراح ينهال عليَّ ضربًا.

راح يضربني حتى صرت أتأرجح من الرسغين، شبه مجنونة بالألم، غير قادرة على الوقوف، لا أستطيع تحمل ضغط الحبل عليَّ، لا يمكنني تفادي لكماته الشديدة تمزقني.

استمر يضربني حتى شعرت بأني على وشك الموت. قلتها بصوت عالٍ، صرخت، ولكن اللكمات توالت وكأنها تؤكد صرختي. لا شيء يمنعه من قتلي. بالتأكيد سيقتلني إن لم أفلت، أنقذ نفسي، أعود إلى البيت!

فشلت. فهذا مجرد عقاب، كنت أعرف ذلك. تحمله نايجل، تحملت آليس ما هو أسوأ منه. ها هما على قيد الحياة بصحة جيدة. لن أموت، لكني مع توالي الضربات، أردت فعلًا لو أموت. أي

شيء أفضل من هذا الألم. لم أملك أي خيار. ولدى وايلن كل الوقت لينتهي من جلسة العقاب.

لم أشعر بروفوس يفك حبلي، يحملني إلى خارج الإسطبل إلى كوخ نايجل وكاري. لم أسمعه يأمر آليس وكاري بغسلي والاعتناء بي كما اعتنيت بآليس. كل هذا أخبرتني آليس به لاحقًا، أمرهم أن يقوموا بتنظيف أي قطعة يستخدمونها على جسدي، أن يحرصوا على تنظيف الجرح العميق القبيح في خصري، أو كما سماه الخدش، ومن ثم تضميده.

لم يكن موجودًا حينما استيقظت، لكنه ترك آليس معي. جلست بقربي تهدئ من روعي. اعطتني حبوب الأسبرين خاصتي، تطمئنني أن جلسة العقاب قد انتهت، وأني بخير الآن. كان وجهي متورمًا بشدة بالكاد استطعت طلب ماء بالملح لغسل فمي. بعد محاولات عدة فهمت آليس وراحت تأتي بكوب.

«استريحي» قال، «سنعتني كاري وأنا بك كما اعتنيت بي».

لم أحاول الرد. لامستني كلماتها ورحت أبكي بصمت. كلانا فشل، أنا وهي. حاولنا الهرب ثم اصطادونا، هي في غضون أيام، وأنا بعد ساعات فقط. الأكيد أني أعرف أكثر منها عن جغرافيا الساحل الشرقي. وهي لا تعرف أي مكان سوى المنطقة التي ولدت وتربت فيها، كما أنها لا تستطيع قراءة خريطة. أنا أعرف عن أنهار وبلدات على بعد أميال، وكل ذلك لم يفدني. ماذا قال وايلن؟ أن تكون متعلمًا لا يعني أنك ذكي. لم يخطئ. لا شيء من

تعليمي ومعرفتي بالمستقبل تمكنني من الهروب. ولكن بعد سنوات من الآن ستقوم امرأة أمية اسمها هاريت تبمان بتسعة عشر رحلة ذهابًا وإيابًا لتساعد ٣٠٠ هارب للوصول إلى الحرية. أين أخطأت؟ كيف صرت عبدة لدى رجل كاد يقتلني بعد أن قمت بإنقاذ حياته عدة مرات. كيف أتعرض للجلد ثانية. ولم... لم أشعر بنفسي خائفة الآن، خائفة حد الغثيان، من فكرة الهرب قريبًا أو لاحقًا؟

بدأت أتأوه وأتلوى أحاول منع نفسي من التفكير. كل هذا الألم الجسدي يكفي ليشغل كل تفكيري. ولكن هنالك سؤال واحد أحتاج لإجابة عنه.

هل سأحاول ثانية؟ هل أستطيع؟

تحركت، أحاول بشكل ما، من المعدة إلى الخصر. حاولت طرد هواجسي بعيدًا لكنها تعود.

هل رأيتم كيف يصبح الناس عبيدًا بسهولة؟ يقولون.

صرخت على اعتبار أنها صرخة الجسد، فهمتني آليس تحاول تعديل وضعيتي، تمسح وجهي بفوطة باردة مبللة.

«سأحاول ثانية» أخبرتها. لم أفهم لمَ أعلنت لها عن ذلك، وكأني أتحدى، أكذب.

«ماذا؟» سألتني.

يحرِّف وجهي المتورم وفمي كلماتي. عليَّ تكرار ما قلت. قد أستجمع بعض الشجاعة إن قلتها جهرًا.

«سأحاول ثانية» قلتها ببطء وبما يمكنني من الوضوح.

«ارتاحي!» جاء صوتها قاسيًا، وعرفت أنها فهمتني. «سنتحدث لاحقًا، لدينا وقت. الآن نامي».

لم أستطع النوم. أبقاني الألم يقظة، وهواجسي. أتساءل إن كانوا سيبيعونني إلى تاجر عابر هذه المرة، أو المرة القادمة، تمنيت لو كانت عندي حبوبي المنومة، ولكن جزءًا مني لا يريدها. لا أعتقد أني بحال تسمح بأخذ حبوب منومة، قد ابتلعها كلها.

١٤

ليزا، الخياطة، سقطت وأصابت نفسها. أخبرتني آليس بالحادثة. جسدها معنف ومكدوم. فقدت بعض أسنانها. لونها أسود وأزرق. حتى أن توم وايلن قلق عليها.

«من الذي ضربك؟» سألها، «أخبريني وسأعاقبه».

«سقطت» قالت بوقاحة، «على السلم».

لعنها وايلن، نعتها بالحمقاء، ثم صرخ أن تغرب عن وجهه.

خبأت آليس وتاس وكاري خدوشهن القليلة، ينظرن إلى ليزا بعيون تستقصيها. نظرات أشاحت ليزا عنها بغضب وخوف.

«هي من سمعتك تخرجين في الليل» قالت آليس، «لحقتك ثم ذهبت إلى السيد توم تخبره. كانت تعرف أن الذهاب إلى السيد

روف لن ينفعها فلربما ما منعك. ولكن السيد توم لا يترك أي نيجر يفلت».

«ولكن لماذا؟» سألت من مكاني في العلية. صرت أقوى، إلا أن روفوس منعني من الحركة. لأول مرة لم أمانع إطاعة أمره. فبمجرد أن أنهض سيتوقع توم وايلن أن أعود إلى العمل على اعتبار أني تعافيت تمامًا. لذلك فاتتني حادثة ليزا.

«أظنها تنتقم مني» قالت آليس، «كانت تفضل لو أني من حاولت الهرب لكنها تكرهك أنت أيضًا بقدر ما تكرهني، فلولاك لكنت ميتة الآن».

صدمتني القصة. لم يكن لي عدو حقيقي يومًا، شخص يبذل مثل هذا الجهد كي يتسبب في إيذائي أو قتلي. بالنسبة إلى الأسياد والدوريات، لست أكثر من نيجر آخر ثمنها الكثير من الدولارات. كل ما فعلوه بي لم يكن شخصيًّا ضدي. والآن ها أنا أمام امرأة تكرهني، وبدافع الحقد، كادت أن تتسبب في مقتلي.

«المرة القادمة لن تفتح فمها» قالت آليس، «أعلمناها ما سيحل بها إن تكلمت ثانية. صارت تخافنا أكثر من السيد توم».

«لا تتورطوا معها بسببي» قلت.

«لا تقرري لنا ما نفعله» أجابت.



١٥

في يومي الأول خارج الفراش، قام روفوس باستدعائي ليعطيني رسالة من كيفن إلى توم وايلن.

«عزيزي توم» قرأت، «قد لا تكون لهذه الرسالة فائدة لأني أأمل أن أصلك قبلها. ولكن إن تأخرت فأريد لك أن تعرف، ودانة، بأني في الطريق. أرجوك أخبرها أني في الطريق».

كان خط يد كيفن، مائلًا أنيقًا وواضحًا. رغم السنوات التي قضاها يكتب الملاحظات ويخط المسودات، فإنه ظل محافظًا على جمال خطه على العكس مني. نظرت إلى روفوس بلا تعبير.

«أخبرتك مرة أن والدي رجل عادل» قال، «ولكنك ضحكت عليَّ».

«كتب إلى كيفن عني؟».

«نعم بعد... بعد...».

«بعدما علم أنك لم ترسل رسائلي؟».

اتسعت عيناه من المفاجأة، ثم عاد يسترخي بنظرة تفهم. «ألذلك هربت؟ وكيف عرفت؟».

«دفعني الفضول» قلت وأنا أنظر نحو الباب، «فأرضيت فضولي».

«بالإمكان أن تجلدي على فعلٍ كهذا».

هززت كتفي فشعرت بآلام صغيرة تشتعل حولها.

«لم أنتبه حتى إلى أن الرسائل قد تحركت من مكانها. عليَّ مراقبتك عن قرب أكثر».

«لماذا؟ أتخطط لإخفاء المزيد من أكاذيبك عني؟».

قفز من مكانه ينهض، لكنه عاد بظهره يرفع جزمته الملمعة فوق السرير. «حاذري مما تقولين يا دانة. بعض الكلام لن أسمح به، حتى وإن جاء منكِ».

«كذبت» كررت بإصرار، «كذبت مرارًا. لماذا يا روف؟».

انتظر بضع ثوانٍ يستبدل بغضبه شعورًا آخر. راقبته ثم أشحت بعيدًا. «أردت لكِ أن تبقي هنا» همس، «يكره كيفن هذا المكان. كان سيأخذك إلى الشمال».

نظرت إليه ثانية أحاول تفهم كلامه. إنه الحب المدمر إياه الذي لا يعرف غيره. أحبني. لم يحبني كما يحب آليس، الحمد لله. لا أظنه يريد النوم معي. لكنه أراد لي أن أبقى بقربه، شخصًا يحادثه، يسمعه، يهتم به، بما يقوله.

وهذا ما فعلته معه. بالرغم من أن أغلب كلامه وأفعاله هراء، لكني كنت أهتم لأمره وسامحته مرات على أمور...

نظرت تجاه النافذة وفي داخلي شعور بالذنب لأني لم أتصرف مثل آليس. لم تسامحه البتة، لم تنسَ، تكرهه بنفس القوة التي أحبت بها إسحاق. لم ألُمها. ولكن ما نفع الكراهية؟ لم تدفعها إلى الهرب

ثانية، إلى قتله، أو مواجهة الموت. لم تستطع فعل أي شيء سوى الغرق في البؤس أكثر. تقول «كلما لمسني شعرت بمعدتي تتقلب!» لكنها تحملت. ومع الوقت، ستحبل منه بطفل. وبقدر ما اهتممت لأمره، لا أظن أن بإمكاني القيام بما قامت وستقوم به. مرتين جعلني أحاول قتله. بإمكاني أن أغضب إلى هذا الحد معه، بالرغم من معرفتي بما ينتظرني إن قتلته. قد يصل بي إلى حالة جنون. لسبب ما لم أستطع تحمل ما قد أتحمله من غيره. لو حاول اغتصابي، فالأرجح أن كلينا لن ينجو.

ربما لذلك لم يكره أحدنا الآخر. لأن بإمكان الواحد منا إيذاء الآخر بشدة، قتل الآخر سريعًا بدافع الكره. كان بمثابة أخ أصغر لي. وآليس مثل أخت. أن أشهد ما يفعله بآليس كل يوم أمر صعب. أفكر كيف أنه سيستمر يفعل ذلك لسنوات حتى تصبح لعائلتي وجود. وفي تلك اللحظة وجدت أنه من الصعب عليَّ التعبير عن مدى الأذى الذي ألحقه بي.

«شمالًا» قلت أخيرًا، «نعم على الأقل هناك لن يسلخوا الجلد عن ظهري».

تنهد «لم أرد لوالدي أن يجلدك. ولكن اللعنة، ألا تعرفين أنك أفلتِّ منه بسهولة! لم يتسبب لك بنصف الأذى الذي جربه الآخرون».

لم أرد.

«لا يمكنه ترك هاربًا بلا عقاب. لو فعل، سيهرب عشرة آخرون غدًا. لقد تساهل معك لأنه فهم أني السبب في هروبك».

«بهذا محق».

«بل إنه ذنبك، إن كنت قد انتظرت...».

«أنتظر ماذا؟! وضعت ثقتي فيك، انتظرت حتى اكتشفت أنك كذاب!».

هذه المرة استقبل التهمة بلا غضب. «اللعنة يا دانة... طيب! كان من المفروض أن أرسل الخطابات. حتى والدي قال يجب إرسالها بعدما وعدتك. وبأني أحمق لأني وعدتك بذلك». توقف لحظة، «ولكن وعدي لك هو السبب الوحيد في إرساله الخطاب إلى كيفن. لم يرسل إليه بداعي الامتنان لإنقاذك حياتي. بل لأني أعطيتك كلمة. ولولا ذلك لأبقى عليك هنا إلى أن تعودي إلى بيتك. إن كنت ستعودين هذه المرة».

جلسنا معًا في صمت.

«بابا الرجل الوحيد» قال بعذوبة، «الذي يحترم كلمته سواء أعطاها لأبيض أو أسود».

«وهل يزعجك ذلك؟».

«لا! بل تلك من الصفات القليلة التي أحترمها فيه».

«ومن الصفات القليلة التي عليك أخذها عنه».

«آه» أنزل قدمه عن السرير، «ستأتي كاري بوجبة إلينا هنا لنأكل».

تفاجأت بذلك ثم هززت رأسي.

«لم يعد ظهرك يوجعك صح؟».

«بلى».

راح يحدق تجاه النافذة بائسًا حتى دخلت كاري بالطعام.

١٦

عدت إلى مساعدة سارة وكاري في اليوم التالي. قال روفوس إني لست مضطرة إلى الالتحاق بهم، لكن بالرغم من بشاعة العمل، فبإمكاني تحمله بدلًا من ساعات الملل الطويلة. والآن قد علمت بمجيء كيفن، لم أعد أشعر بالألم في خصري وظهري بنفس الحدة.

لكن جيك إدواردز لم يتركني أتمتع براحة البال. مذهل كيف يجلب هذا الرجل البؤس للجميع بمجرد أداء وظيفته التي كان يقوم بها لوك دون إيذاء أحد هنا.

«أنتِ!» قال يخاطبني. أعرف أنه يعرف اسمي. «اذهبي لغسل الملابس. تاس ستعمل في الحقل اليوم».

المسكينة تاس. شبع وايلن من مشاركتها سريره ثم مررها إلى إدواردز. كانت خائفة أن يقوم إدواردز بتشغيلها في الحقل حتى تسهل مراقبتها. بوجودي وآليس داخل البيت، كانت تخشى أن يقوموا باستغلالها في كل عمل. بكت خائفة من أن ينتهي بها الأمر هكذا. «تنفذين كل أوامرهم» قالت وهي تذرف الدموع، «فيعاملونك ككلب عجوز. اذهبي هنا، افتحي رجليك، اذهبي

هناك، اكدحي. وما همهم! أيظنون أني بلا مشاعر؟!» كانت تحدثني وهي تبكي بينما أستلقي على بطني متوجعة من الآلام أتصبب عرقًا، أفكر كيف أن حالي ليست سيئة كما تخيلت.

لكني بالتأكيد أتجه إلى ما هو أسوأ الآن لو أطعت أوامر إدواردز. ليس لديه سلطة عليَّ وهو يعلم ذلك جيدًا. سلطته محدودة على عمال الحقل. ولكن وايلن وروفوس في طريقهما إلى البلدة اليوم لتخليص بعض الأمور، تركانا تحت رحمة إدواردز، لديه بضع ساعات يثبت فيها كم أنه رجل مهم. سمعت صوته خارج المطبخ يحاول مضايقة نايجل. سمعت نايجل يرد عليه محاولًا تفادي أي إشكال معه «إني أقوم بما طلبه مني السيد توم» ثم انقلب يهدده مع نهاية الحديث «السيد جيك، إن وضعت يدك عليَّ ستتأذى».

تراجع إدواردز. نايجل قوي وضخم، ليس من عادته إطلاق تهديدات فارغة. كما أن من عادة روفوس مساندة نايجل، ووايلن يتفق مع روفوس. وجَّه إدواردز شتائمه إلى نايجل ثم دخل إلى المطبخ لمضايقتي. ليس لديَّ جسد أو قوة تخيفه، خاصة في حالتي هذه. ولكني أعرف أني إن قضيت اليوم في غسل الملابس فإن جسدي المصاب سيتأثر. يكفي ما عانيته من آلام حتى الآن.

«سيد إدواردز، الغسيل ليس مهمتي. السيد روفوس حذرني من العمل» كانت كذبة ولكن روفوس سيدعمها. بشكل ما، يبدو أني أثق به.

«يا نيجر يا كذابة! ستفعلين ما آمرك به!» اقترب إدواردز مني

«تظنين أن عقابك كان سيئًا؟ لم تعرفي معنى الجلد بعد!» كان يحمل سوطه معه في كل مكان. وكأنه قطعة من ذراعه، أسود وطويل معقوف من الطرف، يتدلى من على خصره.

خرجت من المطبخ، ليساعدني الرب، وحاولت العمل. لم أكن مستعدة لمواجهة جلدة أخرى. مهما كان السبب.

عندما غاب إدواردز خرجت آليس من كوخ كاري لمساعدتي. شعرت بالعرق يتصبب ويختلط بدموع الغضب والخيبة. يتصاعد الوجع في ظهري فاترًا ويسيطر عليَّ شعور فاتر بالخزي. العبودية عملية مطولة وبطيئة من الفتور.

«كافي! توقفي عن ضرب الملابس قبل أن تضربك» قالت آليس، «سأنتهي منها اذهبي الآن إلى المطبخ».

«قد يعود» قلت، «وتتورطين معه». لم أكن أخشى توريطها بل توريط نفسي. لا أريد لهم سحلي من المطبخ ثانية وجلدي.

«لن يستطيع» قالت، «يعرف أين أنام كل ليلة».

أومأت برأسي. محقة. مادامت تحت حماية روفوس، قد يلعنها إدواردز ويشتمها، لكنه لن يجرؤ على لمسها. مثلما لم يستطع الاقتراب من تاس حتى انتهى وايلن منها.

«شكرًا آليس لكن...».

«من هذا؟».

استدرت لأجد رجلًا أبيض ذا لحية شائبة مغبرة يركب حصانه

ويمشي بمحاذاة البيت الرئيسي في اتجاهنا. للوهلة الأولى ظننت أنه القسيس الذي يزور وايلن أحيانًا ليشاركه العشاء بالرغم من تجاهل وايلن لأمور الدين. لكن الأطفال لم يتجمهروا حول الرجل. في العادة ينطلق الأطفال يحيطون به وبزوجته بينما يوزعان عليهم الحلوى واقتباسات إنجيلية من نوع «أَيُّهَا الْخُدَّامُ، كُونُوا خَاضِعِينَ بِكُلِّ هَيْبَةٍ لِلسَّادَةِ ...» يرددها الأطفال بعدهم طمعًا في الحلوى.

رأيت فتاتين صغيرتين تحدقان إلى الغريب ذي اللحية الشائبة، لكن لا أحد اقترب منه أو خاطبه. ظل يسير حتى وصل إلينا ووقف يحدق إلينا حائرًا.

كنت على وشك إخباره بأن آل وايلن ليسا في البيت ولكني في تلك اللحظة استطعت تفحص وجهه بشكل أفضل. رميت إحدى قمصان روفوس البيضاء من يدي في الماء الوسخ ورحت أقترب من السياج بيننا.

«دانة؟» قال بنعومة. نبرة السؤال في صوته أرعبتني. ألم يتعرف عليَّ؟ هل تغيرت؟ لم يتغير هو، بغض النظر عن اللحية.

«كيفن، انزل. لا أستطيع الوصول إليك هناك».

نزل عن الحصان وتجاوز السياج المحيط بساحة الغسيل، سحبني إليه قبل أن أنطق بكلمة. الألم الفاتر في ظهري وكتفي عاد يشتعل. فجأة وجدت نفسي أحاول الإفلات منه. أفلتني وعلى وجهه الحيرة.

«ما الذي...؟».

اقتربت منه ثانية لأني لم أطق الابتعاد عنه، لكني أمسكت بذراعيه قبل أن تحيطا بي. «توقف، ظهري يوجعني».

«من ماذا؟».

«من محاولة الهرب للبحث عنك. آه يا كيفن...».

أحاطني بكل رقة للحظات وتمنيت لو أننا نختفي في هذه اللحظة ونعود إلى البيت وتعود حياتنا كما كانت.

أخيرًا، تراجع كيفن عني قليلًا، ينظر إليّ دون إفلاتي «من ضربك؟» سأل بهدوء.

«أخبرتك. حاولت الهرب».

«من؟» أصرَّ، «وايلن ثانية؟».

«كيفن، انسَ».

«أنسى...؟».

«نعم! أرجوك. قد أضطر إلى العودة إلى هذا المكان ثانية». هززت رأسي، «اكره وايلن كما تشاء. أنا أكرهه. لكن لا تحاول فعل شيء. دعنا نخرج من هنا».

«هو من ضربك إذًا».

«نعم!».

استدار ببطء ينظر إلى البيت. وجهه متجعد ومتجهم، تخفيه اللحية. بدا أكبر بعشر سنوات عن المرة الماضية. على جبينه ندبة

خشنة، يبدو أنها كانت جرحًا بليغًا. يبدو أن هذا المكان، هذا العصر، لم يعامله بشكل أفضل مني. يا ترى كيف تغير؟ هل صار بإمكانه ارتكاب أفعال ما كانت تخطر له في حياته السابقة؟

«كيفن أرجوك، دعنا نذهب».

التفت نحوي بنفس النظرة الحادة.

«أي شيء قد تفعله معهم سأدفع أنا ثمنه» همست بإلحاح. «لنذهب! الآن!».

حدق إليَّ للحظة أطول ثم تنهد يحك جبينه. نظر إلى آليس ولأنه لم يخاطبها بكلمة، فقط نظر، استدرت أنظر إليها.

كانت تشاهدنا، لم تدمع عيناها، لكن وجهها يصرخ بألم لم أره على وجه أحد من قبل. ها قد عاد زوجي إليّ أخيرًا. لكن زوجها لن يعود. ثم اختفى التعبير من على وجهها وعادت ترتدي وجهها الصارم ثانية.

«الأحرى بك أن تسمع كلامها» تخاطب كيفن، «اخرج بها من المكان مادامت الفرصة أمامك. لا يمكن توقع ما قد يفعله أسيادنا الكرام إن بقيت».

«أنت آليس، أليس كذلك؟» سألها كيفن.

هزت رأسها بطريقة مختلفة عن طريقتها مع وايلن أو روفوس. العادة أن ترد بإجابة جافة «نعم يا سيدي». لكنها أردفت «رأيتك من قبل في الجوار. في زمن آخر حين كانت الأمور معقولة».

أجابها كيفن بما يشبه الضحكة «متى كانت الأمور معقولة هنا؟» ينظر إليَّ ثم إلى آليس يقارن بيننا، «سبحان الله» تمتم لنفسه. من بعد خاطبها «هل ستتمكين من إنجاز الغسيل وحدك؟».

«اذهبا، هيا» أجابته، «المهم أن تأخذها بعيدًا من هنا».

أخيرًا بدا مقتنعًا. «اجمعي أغراضك» قال.

كدت أخبره أن ينسى أغراضي. ملابس ودواء وفرشاة أسنان وأقلام وأوراق. لا يهم. ولكن بعض هذه الأشياء لا بديل لها هنا. تسلقت السياج نحو البيت ثم إلى العلية، أجمع كل شيء في حقيبتي سريعًا. بشكل ما، استطعت الخروج من البيت دون التعرض لأي سؤال.

قرب سياج الغسيل وقف كيفن ينتظرني. نظرت إلى الفرس، لابد أنها متعبة. كم ستصمد بشخصين على ظهرها قبل أن تحتاج إلى استراحة؟ كم سيصمد كيفن على الطريق قبل أن يحتاج إلى بعض الراحة؟ حدقت إلى وجهه بينما أقترب منه فرأيت غبار التعب في تراسيم وجهه. لا أعرف كم من الوقت قضى في الطريق إليَّ، بأي سرعة جاء، متى نام آخر مرة؟

للحظة وقفنا نضيع الوقت ينظر الواحد إلى الآخر. كيف لنا أن نقاوم، بتجاعيد أو من دونها، مازال هذا الوجه أمامي في غاية الجمال.

«مرت ٥ سنوات» قال.

«أعرف» همست.

فجأة التفت بعيدًا «لنذهب! لنترك هذا المكان خلفنا إلى الأبد».

آمين! لكن للأسف لا أظن أن ذلك سيحدث. استدرت لأودع آليس، ناديت باسمها مرة. كانت تضرب بنطال روفوس، ظلت تضربه بنفس الوتيرة وكأنها تقول إنها قد سمعتني.

«آليس!» ناديت بصوت أعلى.

لم تلتفت، لم تتوقف عن ضرب نفسها وضرب البنطال، عرفت أنها قد سمعتني. وضع كيفن يده على كتفي فنظرت إليه، ثم نحوها ثانية «وداعًا آليس» قلت، دون توقع رد منها هذه المرة. ولم ترد.

امتطى كيفن الفرس ثم ساعدني على الصعود خلفه. منحنية على ظهر كيفن المتعرق، ظل صوت ضرب الغسيل يطن في أذني بينما تنطلق الفرس إلى الطريق. ولم يفارقنا صدى ضرب الغسيل حتى لمَّا صادفنا روفوس في الطريق.

كان روفوس وحده. على الأقل لم يكن معه أحد. لكنه توقف على خطوات منا متجهمًا يتعمد منعنا من الرحيل.

«آه، اللعنة!» تمتمت.

«كنتما ستذهبان هكذا» قال روفوس يخاطب كيفن، «بلا شكر ولا كلمة، تأخذها وتذهب».

حدق كيفن إليه للحظات بصمت حتى بدا روفوس منزعجًا أكثر منه ساخطًا.

«نعم، هكذا» قال كيفن.

رمشت عينا روفوس. «اسمع» قال بنبرة ألطف، «اسمع، لما لا تنتظران حتى العشاء. سيكون والدي قد عاد. سيريد لك أن تنتظره».

«أخبر والدك...!».

غرزت أصابعي في كتف كيفن أقطع كلماته قبل أن تستحيل إهانات بالنبرة والكلمات. «أخبره أننا على عجلة» أكمل كيفن جملته.

لم يتنحَ روفوس عن طريقنا. نظر إليَّ.

«وداعًا يا روف» قلت بهدوء.

بلا تحذير، وبلا أي تعبير مغاير، تحرك روفوس قليلًا ثم سحب بندقيته يصوبها تجاهنا. لم أكن أعرف الكثير عن الأسلحة من قبل، من الحماقة أن يكون لعبد اهتمام بالأسلحة، إلا من يثق بهم الأسياد. سبق وأن كنت أحد الموثوقين بهم، قبل محاولة الهرب. عرفت وقتها أن سلاح روفوس بندقية طويلة نحيلة من نوع كينتاكي. حتى أنه تركني أجربها مرتين. وسبق أن واجهت بندقية مثلها وأنا أنقذ حياته. لكن هذه المرة البندقية موجهة نحو كيفن. فكرت وأنا أنظر إليها كيف أني في كل مرة أظن أني أعرف هذا الولد فيثبت لي عكس ذلك.

«روف، ماذا تفعل» سألته.

«أدعو كيفن إلى العشاء» قال. ثم إلى كيفن «انزل. أظن أن والدي يريد الحديث معك».

كم حذرني الناس منه، يلمِّحون لي أنه أخبث مما يبدو عليه.

حتى سارة حذرتني منه بالرغم من أنها أحبته كأنه أحد أولادها الذين فقدتهم. كما أني رأيت الآثار التي يتركها على جسد آليس. لكنه لم يتصرف هكذا معي، حتى في حالات الغضب. لم أخشَه كما أخشى والده. حتى في هذه اللحظة، لا أشعر بالخوف. لست المستهدفة هنا، لذلك واجهته.

«روف، إن أردت إطلاق النار فوجِّه بندقيتك نحوي».

«دانة، اخرسي» قال كيفن.

«تظنين أني سأتردد؟» قال روفوس.

«لو لم تقتلني، فسأقتلك أنا».

نزل كيفن مسرعًا وساعدني على النزول. لم يفهم العلاقة بيني وبين روفوس، علاقة اتكالية. لكن روفوس يعي ذلك.

«لا داعي إلى الحديث عن القتل» قال بهدوء وكأنه يهدئ من روع طفل غاضب. ثم خاطب كيفن بنبرة عادية «كل ما في الأمر أن لدى والدي ما يخبره بك».

«عن؟» سأله كيفن.

«عن تكاليفها، أظن».

«تكاليفي!» انفجرت في وجهه مبتعدة عن كيفن، «تكاليفي! كنت أكدح وأكدح كل يوم قضيته هنا حتى جلدني والدك بشدة إلى درجة لم أستطع بعدها النهوض. بل إنكم تدينون لي. أنت خاصة، اللعنة، تدين لي بأكثر مما تستطيع دفعه!».

رفع بندقيته ثانية، هذه المرة حيث أردتها. تجاهي. الآن إما أدفعه ليطلق النار وإما أجرِّب العتب والذنب كي يتركنا نذهب، أو ربما أعود إلى البيت. قد أعود مصابة أو مقتولة، ولكن المهم أني سأكون في زمن غير هذا، غير هذا المكان. وإن عدت إلى البيت سيعود كيفن أيضًا. أمسكت بيده.

«ماذا ستفعل يا روف؟ تبقينا هنا حتى تسرق كيفن؟».

«ادخلي إلى البيت» قال. صار صوته جافًّا.

تبادلت النظرات مع كيفن ثم قلت «تعلمت كل شيء عن حياة العبودية. أفضل الموت على العودة إلى هذا البيت».

«لن أسمح لهم بأخذك ثانية» قال كيفن يعدني، «هيا».

«لا!» نظرت إليه بغضب. «ابقَ هنا أو اذهب كما تريد. لكنني لن أدخل ثانية».

صار روفوس يلعن ويشتم. «كيفن، ضعها على كتفك وأدخلها إلى الداخل».

لم يتحرك كيفن. سأذهل لو أطاع روفوس في ذلك.

«ها أنت ثانية تدفع غيرك إلى إنجاز ما تريد يا روف؟» قلت بمرارة، «أولًا والدك ثم كيفن. خسارة، ضيعت وقتي أنقذ حياتك الحقيرة».

خطوت خطوة نحو الفرس وكأني على وشك الركوب ثانية. لحظتها لم يصمد روفوس.

«لن ترحلي!» صرخ. يمسك ببندقيته على وشك إطلاق النار. «اللعنة، لن تتركيني!».

كان سيطلق النار. قمت باستفزازه إلى أقصى حد. وكأني آليس أخرى ترفضه. بينما أرتجف من الخوف، انزلقت عن الفرس دون أن أكترث لسقوطي، أردت فقط الاحتماء بها من بندقيته.

وقعت على الأرض، لم تكن سقطة قوية، حاولت النهوض لكنني لم أستطع. فقدت توازني. سمعت صراخ كيفن، صوت روفوس... فجأة رأيت البندقية، صورة غير واضحة، على بعد سنتيمترات مني. حاولت ضربها بيدي ولم ألمسها. لم تكن على ذات المسافة التي تخيلتها. كل شيء كان مشوشًا، مشوبًا.

«كيفن!» صرخت. لم أرد تركه هنا ثانية، حتى وإن دفعت صرختي طلقة روفوس.

شيء ما ثقيل سقط على ظهري، صرخت ثانية، من الألم هذه المرة. حلت الظلمة.

العاصفة

١

البيت.

لا أظن أني فقدت وعيي لأكثر من دقيقة. استيقظت على أرضية الصالة وكيفن منحنيًا فوقي. هنا لم يصعب عليَّ التعرف عليه. ها هو وها نحن في البيت. شعرت بظهري وقد تعرض لضربات جديدة، لكن لا يهم. المهم أني عدت بنا إلى البيت دون أن نُقتل.

«آسف» قال كيفن.

ركزت على وجهه «على ماذا؟».

«ألا يوجعك ظهرك؟».

عدت برأسي أسندها بيدي «بلى، يوجعني».

«لأني سقطت فوقك. بين روفوس والحصان وصراخك، لا أعرف كيف حصل ما حصل ولكن...».

«الحمد لله أن ما حصل حصل! لا تتأسف يا كيفن، أنت هنا. كنت ستعلق هناك لو لم تسقط فوقي».

تنهد ثم هز رأسه موافقًا «هل بإمكانك النهوض؟ أظن أني قد أوجعك أكثر لو رفعتك، الأفضل أن تحاولي بنفسك».

بدأت أنهض ببطء وحذر، اكتشفت أن الوجع لم يزد أو يقل عمَّا كان عليه مستلقية. اتضحت الرؤية أمامي ولم يستصعب عليَّ المشي.

«ادخلي إلى السرير» قال كيفن «خذي بعض الراحة».

«تعالَ معي».

بدا على وجهه تعبير مثل ذاك الذي رأيته في ساحة الغسيل. أخذ بيدي.

«تعالَ معي» كررت بنعومة.

«دانة، أنتِ مصابة في ظهرك...».

«كيفن...».

توقف ثم سحبني نحوه.

«خمس سنوات؟» همست.

«خمس سنوات طويلة. نعم».

«هل أصبت؟» لامست الندبة على جبينه بطرف إصبعي.

«لا يهم، تعافى الجرح منذ سنوات، ولكن أنت...».

«أرجوك تعالَ معي».

رافقني إلى الغرفة. كان حذرًا، يخشى إيذائي. وقد حدث بالفعل. كنت أعرف أنه سيؤذيني، لكن لا يهم. المهم أننا في أمان الآن. ها هو في البيت. عدت به إلى هنا. هذا كل ما يهم.

بشكل ما، سقطنا في النوم.

لم يكن في الغرفة حين استيقظت. استلقيت في مكاني أسمع حركته في المطبخ يفتح ويغلق الأدراج. سمعته يطلق اللعنات. لاحظت أنه قد اكتسب لكنة ما. ليست واضحة ولكنها قريبة من لكنة روفوس وتوم وايلن. قليلًا.

حاولت طرد المقارنة من رأسي. بدا وكأنه يبحث عن شيء معين وبعد مرور خمس سنوات لم يعد يعرف مكانه. نهضت أخرج من السرير لمساعدته.

وجدته يلعب بعيون الفرن، يشعل النار، يراقب الشعلة الزرقاء، ثم يطفئها، يفتح قلب الفرن، ينظر داخله. وقفت من خلفه، لم يلمحني ولم يشعر بوجودي. وقبل أن أنطق بكلمة، صفع باب الفرن هازًّا رأسه. «يا إلهي» قال يتمتم «إن لم يكن هذا بيتي فلربما لا بيت لي».

ذهب إلى غرفة الطعام، لم ينتبه إلى وجودي بعد. وقفت في مكاني أفكر، أستدعي.

تذكرت كيف مشيت بمحاذاة الطريق الترابي الضيق الذي يمر ببيت وايلن، أتذكر صورة البيت وكأنه خيال في ساعة الشفق، صندوق مألوف، من بعض نوافذه لون أصفر يشع. الغريب أن

وايلن لا يحب الإسراف إلا في استعمال الزيت والشموع، بخلاف الآخرين. أتذكر الآن كيف شعرت بالراحة عند رؤية البيت، شعرت وكأنه بيتي. وكيف أني توقفت لأذكِّر نفسي أنه ليس ببيتي، وأني في مكان غريب وخطر. أتذكر كيف تفاجأت بنفسي لأني قد تصورت مكانًا مثل ذاك بيتًا لي.

كان ذلك قبل شهرين حين ذهبت لجلب المساعدة لروفوس. سبق وعدت إلى بيتي في ١٩٧٦ ولم أشعر أنه بيتي. الآن أيضًا لا أحس أنه بيتي. أولًا لأني وكيفن لم يمر علينا أكثر من يومين هنا. وحقيقة أني قضيت ثماني ليالٍ هنا وحدي لم تغير من هذا الشعور. المكان صحيح، الزمن صحيح، لكن البيت لم يعد مألوفًا. بت أشعر وكأني أفقد مكاني هنا في زماني هذا. صار زمن روفوس هو الواقع الأوضح والأقوى. قسوة العمل هناك، حدة الروائح والطعم، الخطر أكبر، حتى الألم أقسى... زمن روفوس تطلب مني أشياء لم أعتدها من قبل، وكنت دائمًا على وشك الموت إن لم أنفذها. ذاك واقع صارخ قوي لا يمكن لراحة وكماليات هذا الزمن ملامسته.

وإن كان هذا شعوري، أنا التي قضت فترات قصيرة في الماضي، يا ترى كيف يشعر كيفن الآن بعد مرور خمس سنوات عليه هناك؟ بشرته البيضاء لابد أنها أنقذته من متاعب كثيرة اضطررت إلى مواجهتها، ولكن بغض النظر، الأكيد أن حياته هناك لم تكن سهلة.

وجدته في غرفة المعيشة يلعب بأزرار التليفزيون. يقع زر التشغيل على طرف الشاشة لكن يبدو أن كيفن قد نسي مكانه.

اقتربت منه أمد يدي تحت التليفزيون لأضغط على الزر. اشتعل التليفزيون بإعلان تنويهي يدعو النساء إلى مراجعة الطبيب والعناية بأنفسهن خلال فترة الحمل.

«أطفئيه» قال كيفن.

استجبت لطلبه.

«شاهدت امرأة تموت خلال عملية توليد» قال.

هززت رأسي. «لم أشهد ذلك، لكن قصصًا مشابهة وصلتني مرارًا. يبدو أنه حدث عادي في ذاك الزمن. العناية الصحية ضعيفة أو شبه معدومة».

«لا، العناية الصحية ليست السبب في الحالة التي شهدتها. المرأة التي رأيتها كان سيدها قد قيدها من رسغيها وضربها حتى خرج الطفل منها ساقطًا على الأرض».

ابتلعت ريقي، أشحت بعيدًا عنه، أحك رسغي. «فهمت» هل يفعل وايلن شيئًا مثل هذا مع امرأة من عبيده؟ تساءلت. لا أظن. فهو تاجر، خسارة امرأة، خسارة طفل، كلها خسارات مالية. لكني سمعت قصصًا كثيرة، عن أسياد لا تهمهم التكاليف. كانت هناك امرأة في عزبة وايلن قام سيدها السابق بقطع ثلاثًا من أصابع يدها اليمنى لأنه وجدها تكتب. كل عام تقريبًا حبلت تلك المرأة. أنجبت تسعة أطفال، سبعة منهم أحياء. يعتبرها وايلن ولَّادة جيدة، لم يجلدها قط. لكنه باع أطفالها، واحدًا تلو الآخر.

حدق كيفن إلى شاشة التليفزيون السوداء، ثم نظر بعيدًا يطلق ضحكة مريرة «أشعر وكأننا ما زلنا في الطريق» قال «وكأنها محطة أخرى، لا أشعر بها حقيقية كباقي المحطات».

«محطة؟».

«مثل فيلادلفيا، مثل نيويورك وبوسطن. وتلك المزرعة في ماين...».

«ذهبت إلى ماين؟».

«نعم. وكنت على وشك شراء مزرعة هناك. كانت ستكون غلطة غبية. لكن صديقًا في بوسطن قام بتمرير رسالة وايلن إليَّ. سأعود أخيرًا، فكرت، وأنتِ...» نظر إليَّ «على الأقل حصلتُ على نصف ما أريد، فأنت ما زلت كما كنت».

اقتربت منه وقد تفاجأت بشعوري بالراحة. لم أكن واعية لحجم القلق الذي أحمله، حتى في هذه اللحظة، أن أكون قد تغيرت، على الأقل في عينيه.

«كل شيء ناعم هنا» قال «سهل جدًّا...».

«أعلم».

«وهذا أمر جيد. اللعنة، لا أريد العودة إلى حفر الجيف تلك حتى وإن دفعوا إليَّ. ولكن حتى...».

كنا نعبر غرفة المعيشة إلى الممر. توقفنا عند مكتبي، دخل إليه ينظر إلى خريطة الولايات المتحدة على الحائط. «ظللت أتنقل في شمال

الساحل الشرقي» قال «على الأرجح كنت سأجد نفسي في كندا. ولكن تعلمين، في كل أسفاري، أتعلمين أين كانت المرة الوحيدة التي شعرت فيها بالراحة والرغبة في الوصول؟».

«أظن» قلت بهدوء.

«كانت المرة...» توقف في نصف الجملة، بعدما استوعب ردي، تجهم وجهه.

«كانت المرة التي عدت فيها إلى ميريلاند» قلت «حين زرت آل وايلن لتتأكد إن كنت قد عدت».

بدا متفاجئًا، ولكن لسبب ما مسرور. «كيف عرفت؟».

«صح؟».

«صح!».

«شعرت بذلك في المرة الأخيرة التي استدعاني فيها روفوس. لا أملك أي حب لذاك المكان، ولكن لسبب ما، حين رأيته، شعرت وكأني عدت إلى البيت، وقد أرعبني ذاك الشعور».

مسَّد كيفن على لحيته يقول «تركتها تنمو كي أعود».

«لماذا؟».

«كي أتخفَّى. هل سمعت من قبل برجل اسمه دنمرك فيساي؟».

«الرجل الحر الذي خطط لثورة في ساوث كارولينا».

«نعم. فيساي لم يتجاوز مرحلة التخطيط لكنه بث الرعب في

نفوس البيض. ودفع ثمن ذلك الكثير من السود. في ذاك الوقت، اتهموني بمساعدة العبيد على الهرب. بالكاد هربت قبل وصول العصابات».

«هل كنت في بيت آل وايلن وقتها؟».

«لا، كنت معلمًا في المدرسة» حكَّ على ندبة جبينه. «سأخبرك بكل التفاصيل يا دانة، ولكن في وقت آخر. الآن، بشكل ما، عليَّ أن أعود إلى الانتماء ثانية إلى العام ١٩٧٦. ان استطعت».

«تستطيع».

هز كتفيه.

«هنالك أمر آخر، ولن أسأل أسئلة أخرى».

نظر إليّ متسائلًا.

«هل ساعدت عبيدًا على الهرب؟».

«بالطبع. كنت أعطيهم الأكل وأخبئهم خلال النهار حتى يهبط الليل، أدلهم على بيت عائلة سوداء حرة تعطيهم الأكل وتخفيهم حتى اليوم التالي».

ابتسمت ولم أقل شيئًا. بدا على صوته الغضب، كأنه يبرر نفسه أمامي.

«أظن أني فقط غير معتاد على قول مثل هذه الأمور لمن يعرفها» قال.

«أعرف. ويكفي أنك فعلت ما فعلت».

حكَّ جبينه ثانية. «خمس سنوات أطول بكثير مما تبدو عليه. بكثير».

توجهنا إلى مكتبه. كان مكتبي ومكتبه غرفتي نوم سابقًا في هذا المبنى القديم. غرفتان كبيرتان مريحتان تذكراني قليلًا بغرف بيت وايلن.

لا. هززت رأسي أنفض هذا الانطباع. بيتي لا يشبه بيت وايلن على الإطلاق. شاهدت كيفن يتفحص مكتبه. دار حول الغرفة، توقف عند طاولة المكتب، عند الملفات، ثم عند الكتب. عند الرف المليء بنسخ من «ماء مَرِيبَة» وهي أنجح رواياته التي بمالها اشترينا هذا البيت. لمس إحدى النسخ وكأنه على وشك جرها لكنه منع نفسه وذهب يقترب من الآلة الكاتبة، يعبث بها محاولًا تذكر طريقة عملها، ثم لمح الأوراق البيضاء بجانبها فعاد وأغلقها. فجأة، ضربها بقبضته في لكمة واحدة.

قفزت بفعل الصوت المفاجئ.

«ستكسرها يا كيفن».

«وماذا يعني لو انكسرت؟».

شعرت بالفزع، تذكرت محاولاتي للكتابة حين عدت إلى البيت المرة الماضية. حاولت وحاولت، لم أنجح في ملء شيء سوى سلة القمامة.

«ماذا سأفعل؟» قال كيفن ملتفتًا بعيدًا عن الطابعة. «إلهي، حتى هذا المكان لا يشعرني...».

«ستشعر. فقط أعطِ نفسك بعض الوقت».

التقط المبراة الكهربائية يتفحصها وكأنه لا يعرف ماهيتها، ثم بدا يتذكر. أعادها إلى مكانها، أخذ قلمًا من الكوب على الطاولة، ووضعه في المبراة. الآلة الصغيرة قامت بعملها في تشذيب القلم حتى بات حادًّا. حدق كيفن إلى طرف القلم للحظات ثم في المبراة.

«لعبة» قال «مجرد لعبة لعينة».

«هذا ما قلته لك حين اشتريتها» أخبرته. حاولت الابتسام، تحول الموضوع إلى مزحة، لكن شيء ما في صوته أفزعني.

بحركة مفاجئة من يده، أطاح بالمبراة وكوب الأقلام من على الطاولة. تشتت الأقلام على الأرضية وانكسر الكوب. ارتدَّت المبراة وبالكاد لامست السجاد. بسرعة سحبت سلكها عن الكهرباء.

«كيفن...» خرج مسرعًا من الغرفة قبل أن أكمل. ركضت خلفه أمسك بذراعه «كيفن!».

توقف يحملق إليَّ وكأني شخص غريب تجرأ على لمسه.

«كيفن، لا يمكنك العودة إلى هنا بشكل كامل مرة واحدة. تحتاج إلى بعض الوقت. بعد فترة ستعود الأمور إلى ما كانت عليه».

لم يتغير تعبير وجهه.

أخذت وجهه بين يدي أنظر إلى عينيه الباردتين «لا يمكنني

تخيل ما مررت به» قلت «الوقت الطويل الذي قضيته، العجز الذي شعرت به حيال فرص عودتك. صدقني أفهمك. لكني أعرف أيضًا... أني في لحظات ما فضلت الموت على فكرة أن تبقى عالقًا هناك. والآن وقد عدت...».

سحب يده مني يخرج من الغرفة. تعبير وجهه لم يكن جديدًا عليَّ، تعبيرًا اعتدته من توم وايلن. تعبير قبيح وعصي.

لم أتبعه هذه المرة بعدما خرجت من مكتبه. لم أعرف كيف بإمكاني مساعدته، ولم أرغب بالنظر إليه ثانية ورؤية ما يذكرني بوايلن. ولكن لأني ذهبت إلى غرفة النوم، وجدته هناك.

كان واقفًا بالقرب من التسريحة ينظر إلى صورته، أو أنها صورة لشخص كانه. لطالما كره أن تؤخذ له صورة، ولكني نجحت في إقناعه تلك المرة، صورة لوجه شاب يرتدي قبعة تغطي شعره الأشيب، حاجبيه الغامقين، وجهه الشاحب.

خفت أنه سيلقي بالصورة على الأرض، يحطمها كما فعل بالمبراة. سحبت الصورة من يده. أفلتها بسهولة وراح ينظر إلى نفسه في مرآة التسريحة. مرر يده على شعره، لا يزال داكنًا وكثيفًا. على الأرجح أنه لن يعاني من الصلع يومًا. لكنه بدا أكبر الآن، الخطوط على وجهه ولحيته ليست بالعلامة الوحيدة على تغير ذاك الوجه الشاب.

«كيفن؟».

أغمض عينيه. «اتركيني قليلًا يا دانة» قال بنعومة. «أريد فقط أن أكون وحدي حتى أعتاد... الوضع ثانية».

فجأة سمعنا صوتًا مهولًا هز البيت بأكمله، قفز كيفن بظهره إلى التسريحة ينظر حوله فزعًا.

«مجرد طائرة تعبر فوقنا» قلت.

أجابني بنظرة بدت كنظرة ناقمة ثم تركني واتجه إلى مكتبه وقد أغلق الباب من خلفه.

تركته وحده. لم أعرف ما الذي عليَّ فعله، أو إن كان هناك ما يمكن فعله. قد يحتاج بالفعل إلى مواجهة الوضع بنفسه. أو أن الوقت كفيل بمساعدته. كل شيء جائز. لكني شعرت بالعجز وأنا أقف في نهاية الممر أنظر نحو بابه المغلق. أخيرًا، قررت التحمم في البانيو، يوقظ ذلك آلام جسدي ويشغل ذهني قليلاً. فتحت حقيبتي أضع فيها قنينة مطهر، علبة كيفن الكبيرة من مسكنات الأكسدرين، مطواة جيب قديمة تعوض الأخرى. مطواة كبيرة وقاتلة كتلك التي فقدتها، لكني لن أتمكن من استعمالها سريعًا، ليس من السهل سحبها سريعًا ومفاجأة خصمي بها. فكرت بأخذ سكين من المطبخ بدلًا منها، ولكن لو أردت لها أن تكون فعالة فسأضطر إلى أخذ سكين كبيرة وسيصعب عليَّ إخفاؤها. على كل حال، لم تنفعني أي سكين إلا أنها تمنحني شعورًا ما بالأمان.

ألقيت بالمطواة في الحقيبة واستبدلت الصابونة ومعجون الأسنان والتقطت بعض الملابس وأشياء أخرى. عاد ذهني إلى التفكير في كيفن. هل يلومني على السنوات الخمس التي فقدها؟ تساءلت. وإن لم يكن يلومني الآن، فهل سيفعل حين يحاول معاودة الكتابة؟

سيحاول الكتابة. فالكتابة مهنته. هل تمكَّن من الكتابة خلال الخمس سنوات؟ أو بالأحرى، هل نشر كتاباته؟ كنت متأكدة أنه لا بد أنه كتب. لا أتخيل أحدنا يقضي خمس سنوات بلا كتابة. ربما احتفظ بدفتر يكتب فيه. لقد تغير، مرت خمس سنوات، كيف له ألا يتغير. قد يستمر مزاجه العصبي لفترة. وقد يلومني بالفعل.

كنت سعيدة جدًّا برؤيته، بحبه، بحقيقة أن منفاه قد انتهى. ظننت أن كل شيء سيكون على ما يرام. الآن أشك في ذلك.

ارتديت ثوبًا فضفاضًا وتوجهت إلى المطبخ لأرى ما يمكنني تحضيره كوجبة لنا، لو تمكنت من إقناع كيفن بالأكل. قطع اللحم التي أخرجتها من المجمِّدة قبل شهرين ما زالت مثلجة، كم من الوقت غبت هذه المرة؟ ما هو تاريخ اليوم؟ لم نكترث للتأكد من تاريخ اليوم.

أشعلت الراديو أبحث عن قناة الأخبار، وجدتها في منتصف نشرة عن الحرب في لبنان. الحرب هناك كانت أسوأ. أصدر الرئيس أمرًا بإجلاء المدنيين الأمريكيين. أذكر أن الأمر قد صدر وقت استدعاء روفوس لي. بعد لحظات، أشار المذيع إلى تاريخ اليوم مؤكدًا ما توقعت. لم أغب سوى بضع ساعات. بينما قضى كيفن ثمانية أيام هناك. يبدو أن ١٩٧٦ لم تمر من دوننا.

انتقلت النشرة إلى خبر من جنوب أفريقيا حيث انفجر السود في عصيان، يُقتلون جملة في مواجهات مع الشرطة بسبب السياسات العنصرية من الحكام البيض.

أطفأت الراديو أحاول بهدوء تحضير وجبة. لطالما ظننت أن بيض جنوب إفريقيا قد يسعدون بالعيش في القرن التاسع عشر، أو حتى الثامن عشر. والحقيقة أنهم يعيشون في الماضي، على الأقل فيما يخص شكل العلاقات العرقية. يستمتعون بحياة من الرفاهية والراحة على حساب أعداد كبيرة من السود الذين يواجهون حياة الفصل العنصري والفقر. الأكيد أن توم وايلن لن يشعر بأي غربة هناك.

بعد لحظات، جاءت رائحة الطبخ بكيفن من مكتبه، لكنه تناول طعامه في صمت.

«كيف يمكنني المساعدة؟» قلت أخيرًا.

«مساعدة في ماذا؟».

كان لصوته نبرة حادة تبعث على القلق. لم أجبه.

«أنا بخير» قال على مضض.

«غير صحيح».

وضع شوكته على الطاولة. «كم من الوقت غبتِ هذه المرة؟».

«بضع ساعات. أو أكثر من شهرين. اختر الجواب».

«وجدت صحيفة في مكتبي. جلست أقرؤها. لا أعلم إن كانت قديمة ولكن...».

«صحيفة اليوم. وصلت في الصباح الذي استدعاني فيه روفوس. يعني صباح اليوم، إن أردت تصديق الرزنامة، ١٨ يونيو».

«لا يهم، ضيعت وقتي في قراءة تلك الصحيفة. لم أفهم أغلب ما قرأت».

«كما أخبرتك، حالة الضياع هذه لن تختفي فجأة، بل تدريجيًّا، على الأقل هكذا كانت تجربتي».

«في البدء ظننت أن العودة جيدة».

«كانت، ومازالت».

«لا أعرف. لم أعد أفهم أي شيء».

«مستعجل جدًّا، أنت...» توقفت منتصف الجملة حين شعرت بكرسيي يهتز. «يا إلهي! لا!» همست.

«قد أكون مستعجلًا» قال كيفن «أفكر في الخارج من السجن وكيف يتأقلم...».

«كيفن، اجلب لي حقيبتي، تركتها في الغرفة».

«ماذا؟ لماذا...؟».

«اذهب يا كيفن!».

نهض وقد أدرك ما يحدث. جلست ساكنة أصلي أن يعود في الوقت المناسب. شعرت بالدموع تنهمر على وجهي. لماذا بهذه السرعة؟ لما لا يمكنني قضاء بضعة أيام معه، بضعة أيام في هدوء البيت؟

شعرت بشيء يوضع في يدي وأمسكت به. إنها حقيبتي.

فتحت عيني على ظلمة غائمة وعلى الشكل الغائم لكيفن بالقرب مني. فجأة صرت خائفة مما قد يفعله.

«ابتعد يا كيفن!».

رد بشيء ما، لكن فجأة، حلت ضجة صاخبة في المكان ولم أعد أسمعه حتى وإن كان معي.

٢

ماء، مطر يتساقط. وجدت نفسي في الوحل متمسكة بحقيبتي.

نهضت وأنا أحاول تغطية حقيبتي قدر الإمكان حتى يكون لديَّ ما أرتديه لاحقًا. تفحصت الجوار أبحث عن روفوس.

لم أجده. حدقت إلى الضوء الغائم، أدور من حولي، حتى تعرفت على المكان. لمحت عن بعد الشكل المربع المألوف لبيت وايلن، ونافذة وحيدة بضوء أصفر. على الأقل هذه المرة لن أضطر إلى المشي طويلًا. ولكن أين روفوس؟ إن كان في ورطة داخل البيت، فلمَ أنا في الخارج؟

هززت كتفي ورحت أسير إلى البيت. إن كان هناك، من الحماقة أن أضيع وقتي هنا. لا أريد أن أبتل أكثر.

تعثرت به.

كان مستلقيًا على وجهه في وحل عميق حتى أن المياه قد غطت أغلب رأسه. على وجهه.

أمسكت به أجره خارج الماء نحو شجرة تحمينا قليلًا من المطر. بعد لحظات، رعدت السماء وبرقت، جررته ثانية ولكن بعيدًا عن الشجرة، فمع حظه العاثر، لم أرغب بالمجازفة.

ما زال على قيد الحياة. وبينما أجره، تقيأ على نفسه وعليَّ. كنت على وشك التقيؤ معه. بدأ يكح ويتمتم، ففهمت أنه سكران أو مريض. الأرجح أنه سكران. بات ثقيلًا. لم يبدُ أنه كبر حجمًا عن المرة الماضية، ولكنه مبتل تمامًا، وبدا أنه يصارع نفسه لكن الوهن قد غلب عليه.

كان ساكناً وأنا أجرجره نحو البيت. الآن، وبشعور من القرف، تركته ورحت أسير إلى البيت وحدي. شخص آخر قوي وقادر سيجره أو يحمله بقية الطريق.

فتح نايجل الباب ووقف يحدق إليَّ. «من تكون، بحق الشيطان؟».

«أنا دانة يا نايجل».

«دانة؟» استنفر فجأة «ماذا جرى؟ أين السيد روفوس؟».

«في الخارج. ثقيل عليَّ».

«أين؟».

التفتُّ أنظر إلى الطريق حيث تركت روفوس لكني لم أستطع رؤيته. إن استدار بجسده ثانية...

«اللعنة!» قلت «هيا» أخذته باتجاه الكومة الرمادية -وجهه إلى السماء- جسد روفوس. «انتبه» قلت «فقد تقيأ عليَّ».

التقط نايجل روفوس وكأنه كيس قمح، ألقاه على كتفه، ومضى إلى البيت بخطوات كبيرة سريعة إلى درجة أني اضطررت إلى الركض خلفه. تقيأ روفوس ثانية على ظهر نايجل، ولكن نايجل لم يهتم. غسل المطر كل منهما كفاية قبل الوصول إلى البيت.

في الداخل، وجدنا أمامنا وايلن وهو ينزل السلالم. توقف لحظة عند رؤيتنا «أنتِ!» قال يحملق إليَّ.

«مرحبا سيد وايلن» أجبته بضجر. بدا عجوزًا بظهر محني وأنحل مما كان، يتكئ على عصًا.

«روفوس بخير؟ هل...؟».

«على قيد الحياة» قلت «وجدته غائب الوعي ووجهه في الوحل. لحظات أخرى وكان سيغرق».

«بما أنك هنا، فالأكيد أنه كان على وشك الموت» نظر العجوز إلى نايجل «اصعد به إلى غرفته وضعه في السرير. دانة، أنتِ...» توقف ينظر إلى ثوبي القصير المبلل، الفاضح بالنسبة إليه. كان من نوع الجلابيب الفضفاضة التي يرتديها الأطفال من الجنسين قبل أن يكبروا كفاية فيتم تشغيلهم. الأكيد أن ثوبي هذا قد استفز وايلن أكثر من البناطيل «أليس لديكِ ثوب محتشم ترتدينه؟» سألني.

نظرت إلى حقيبتي المبللة «محتشم ربما، ولكن غير ناشف».

«اذهبي وارتدي ما لديك، ثم تعالي إلى المكتبة».

يريد الحديث معي، فكرت. هذا ما ينقصني بعد يوم طويل

شاق. في العادة لا يكلمني وايلن إلا إن كانت لديه أوامر يلقي بها. أي حديث معه عذاب. هنالك أمور كثيرة لا يمكنني الحديث فيها معه، فغالبًا ما يجد إهانة ما في كلامي. سرت وراء نايجل إلى الطابق العلوي ثم عبر السلم الضيق إلى العلية. كانت زاويتي خالية فذهبت أضع حقيبتي هناك وأفتش فيها. وجدت قميصًا شبه ناشف وبنطال جينز مبلل الأطراف. ثم نزلت إلى وايلن. تعلمت ألا أقلق على أغراضي في العلية. أعلم أن الخدم سيفتشونها. من وقت إلى آخر أمسك بأحدهم يفعل ذلك لكني لم أفقد أيًا منها.

بتوجس، اجتزت باب المكتبة.

«تبدين شابة كما كنت عليه» قال وايلن بمرارة حين رآني.

«نعم يا سيدي» سأتفق مع كل شيء يقوله إن خلصني ذلك منه.

«كيف أصبت هناك؟ في وجهك».

تلمست الندبة «هذي بفعل ركلتك يا سيد وايلن».

كان يجلس على كرسي قديم مهترئ، لكنه نهض الآن وكأنه رجل شاب، يلوح بعصاته مثل سيف. «ما الذي تقولينه! لقد مضت ست سنوات مذ رأيتك آخر مرة».

«نعم يا سيدي».

«طيب!».

«بالنسبة إليَّ، كانت ساعات فقط» كنت أظن أن كيفن وروفوس قد أخبراه بما يكفي كي يفهم ما أقوله، سواء صدقه أم لا. وربما بالفعل قد فهم. بدا غضبه يتصاعد.

«من الأحمق الذي قال إنك نيجر متعلم؟ لا يمكنك حتى اختلاق كذبة. ست سنوات عندي هي ست سنوات عندك!».

«نعم يا سيدي» لم يكلف نفسه بسؤالي؟ لم أكلف نفسي عناء الإجابة؟

جلس ثانية ينحني إلى الأمام، يده تتكئ على العصاة. جاء صوته أنعم حين باشر الحديث «هل عاد ذاك الفرانكلن إلى بيته؟».

«نعم يا سيدي» ماذا سيحصل لو سألته أين يتخيل مكان البيت؟ ولكن لا، فقد قام بمعروف واحد لي أنا وكيفن، بغض النظر عن شخصه. تلاقت عيوننا للحظة «شكرًا لك».

«لم أقم بذلك من أجلك».

بدأت أشعر بالغضب فجأة «لا أكترث لأي سبب فعلت! أنا أخبرك، من إنسان إلى آخر، أنني ممتنة. لم لا ننهي النقاش هنا؟».

انخطف وجه العجوز «تريدين جلدة أخرى!» قال. «يبدو أنك لم تتلقي جلدة منذ فترة».

لم أرد. استوعبت لحظتها أنه إن قام بضربي ثانية فإني سأكسر رقبته العجفاء. لن أتحمله ثانية.

عاد وايلن بظهره إلى المقعد. «لطالما أخبرني روفوس بأنك لا

تعرفين قدر نفسك، كحيوان متوحش» تمتم «وأخبرته أنك مجرد نيجر مجنونة».

وقفت في مكاني أنظر إليه.

«لِمَ ساعدتِ ابني ثانية؟».

انتظرت لحظات ثم هززت كتفي «لا يستحق أحد الموت بهذه الطريقة، مرميًّا في حفرة، يغرق بالوحل والخمرة والقيء».

«توقفي!» صرخ وايلن «سآتي بالسوط إليك بنفسي! سوف...» ثم صمت يلتقط أنفاسه. ما زال وجهه أبيض بياض الموت. قد يمرض نفسه إن لم يستعد بعضًا من هدوئه السابق.

استسلمت لبرودتي «نعم يا سيدي».

بعد لحظات استعاد وايلن سيطرته على نفسه. بل إنه بدا هادئًا تمامًا ثانية «أنت وروفوس حدثت بينكما مشكلة في المرة الماضية».

«نعم يا سيدي» نعم، محاولته قتلي قد تكون مشكلة.

«كنت أود أن تستمري في مساعدته. تعلمين أن لك مكانًا هنا إن أردت ذلك».

ابتسمت قليلًا دون قصد «بالرغم من كوني نيجر سيئة صح؟».

«هل تعتبرين نفسك ذلك؟».

ضحكت بمرارة «لا، لا أضحك على نفسي كثيرًا. ابنك حي، صح؟».

«شريرة وسيئة. لا أظن أن هناك رجلًا أبيض آخر يتحملك».

«لو تمكنت من تحملي بطريقة أكثر إنسانية، فسأبذل كل ما بوسعي لمساعدة السيد روفوس».

تجهم وجهه «ما الذي تقولينه؟».

«أقول إني إن ضُربت مرة أخرى فإن ابنك سيصبح وحده».

اتسعت عيناه متفاجئًا ثم بدأ ينتفض. لم يسبق لي رؤية شخص ينتفض حرفيًّا من الغضب. «تهددينه!» تلعثم «والله إنك مجنونة!».

«مجنونة أو عاقلة، أعني ما أقوله». آلام ظهري وخصري حاولت تحذيري، لكني في تلك اللحظة لم أعد خائفة. فهو يحب ابنه بغض النظر عن تصرفاته، كما أنه يعلم أن بإمكاني تنفيذ تهديدي.

«وبناء على نسبة الحوادث التي يقع فيها السيد روفوس» قلت «فإنه سيعيش ست أو سبع سنوات أخرى من دوني، لكن لا تتوقع أكثر من ذلك».

«أيتها القحبة السوداء الملعونة!» يلوح بعصاه تجاهي كأنها إصبعه الوسطى. «إن كنت تظنين أن بإمكانك توجيه التهديدات وإصدار الأوامر...» انقطعت أنفاسه وصار يلهث ثانية. شاهدته بلا شفقة أتساءل إن كان يعاني من مرض ما «اخرجي!» قال وهو يلهث «اذهبي إلى روفوس. اعتني به. لو حل به شيء سأسلخك حية».

كلماته تذكرني بكلمات زوجة خالي حين كنت صغيرة وأرتكب خطأ ما «يا بنت، سأسلخك حية!» ثم تأتي بحزام خالي وتضربني

به. لكني لم أتخيل من قبل أن أحدًا يتوعدني هكذا قد ينفذ قوله حرفيًّا إلا وايلن هذا. استدرت وخرجت قبل أن يشعر بشجاعتي وقد تبخرت. هنالك من سيساعده، جيرانه، رجال الدوريات، أو حتى شرطة المنطقة. بإمكانه فعل أي شيء بي بينما لا أملك حقوقًا تمنعه عن ذلك. بل لا أملك أي حقوق.

٣

مرض روفوس ثانية. حين وصلت غرفته وجدته يرتعش بشدة مستلقيًا في السرير ونايجل يحاول تغطيته بالبطانية.

«ماذا دهاه؟» سألت.

«لا شيء» قال نايجل «أظن أن البرداء عادته ثانية».

«البرداء؟».

«نعم سبق وأن أصيب بها. سيكون بخير».

لم يبدُ لي بخير. «هل ذهب أحد لجلب الطبيب؟».

«السيد توم لا يجيء بالطبيب ويست لداعي البرداء. يقول إن الطبيب لا يعرف سوى سحب الدم والكي والتسهيل والتقيؤ، وجعل الواحد أكثر مرضًا».

بلعت ريقي أتذكر الطبيب الممتلئ الذي كرهت. «هل الطبيب بهذا السوء فعلًا يا نايجل؟».

«مرة أعطاني دواء ما كاد يقتلني. من يومها أعتمد على سارة إن مرضت. على الأقل لا تدس النيجر بالجرعات كأنهم أحصنة أو بغال».

هززت رأسي أقترب من سرير روفوس. بدا بائسًا يتوجع من الألم. حاولت تذكر معنى البرداء، فقد بدت الكلمة مألوفة لي، لكني لا أتذكر ما قرأته أو سمعته عن هذا المرض.

نظر روفوس إليَّ، عيناه حمراوتان، يحاول الابتسام، بالرغم من أن الابتسامة التي خرجت منه لم تبدُ لطيفة ألبتة. تفاجأت أن محاولته للابتسام قد لامستني. لم أظن أني أهتم لأمره فيما عدا ما يؤثر عليَّ وعلى عائلتي. لم أرد أن أهتم لأمره.

«أحمق» تمتمت من فوقه.

بشكل ما بدا عليه الانزعاج من كلمتي.

التفت إلى نايجل، أفكر إن كان المرض غير خطر بالفعل كما يظن. هل كان ليظن ذلك لو كان مستلقيًا على ظهره يرتعش هكذا؟

كان نايجل منشغلًا بنزع قميصه المبتل. انتبهت أن لا أحد أعطاه فرصة لتغيير ملابسه.

«نايجل، سأبقى هنا إن أردت الذهاب لتجفيف نفسك» قلت.

نظر إليَّ وابتسم. «تختفين لست سنوات» قال «ثم تظهرين ثانية متوائمة وكأنك لم ترحلي».

«كل مرة أذهب فيها أتمنى ألا أعود أبدًا».

هزَّ رأسه «ولكن على الأقل تقضين بعض الوقت في الحرية».

أشحت بوجهي عنه يغالبني شعور بالذنب، نعم، لقد قضيت بعض الوقت في الحرية. لم يكن كافيًا، ولكنه على الأرجح أطول مما قد يتخيله نايجل. لا أحب شعور الذنب. لسعني شيء في أذني ونسيت مشاعر الذنب لحظتها. وبينما أصفع أذني، تذكرت، أخيرًا، معنى البرداء.

إنها الملاريا.

تساءلت بهدوء إن كانت الناموسة التي قرصتني حالًا تحمل المرض. كنت قد قرأت كثيرًا عن هذا المرض ولكن لا شيء في تلك المعلومات يشير إلى كونه مرضًا غير خطر كما يظن نايجل. قد لا تقتلك الملاريا لكنها تضعف الواحد وتعاوده مرارًا وتنهك مناعته. كما أن وجود روفوس هكذا عرضة للناموس قد يعني انتشار المرض إلى جميع من في العزبة.

«نايجل، هل هنالك ما يمكننا تعليقه لحمايته من الناموس؟».

«الناموس! لن يشعر بأي شيء حتى وإن قرصته عشرون ناموسة».

«لا، ولكننا جميعًا قد نشعر بها».

«ماذا تقصدين؟».

«هل هنالك من يعاني من البرداء غيره؟».

«لا أظن. بعض الأطفال قد مرضوا، شيء ما أصابهم في وجوههم، متورمة من الجانب».

نكاف؟ لا يهم. «دعنا نحرص على منع المرض من الانتشار. هل هنالك شِباك ما للناموس، أو أي شيء يستخدمه الناس هنا لهذا الغرض؟».

«طبعًا للبيض. ولكن...».

«هلَّا أحضرتها لي؟ نستخدمها لنغلق عليه».

«دانة، اسمعي!».

نظرت إليه.

«ما علاقة الناموس بالبرداء؟».

رمشت ثم حدقت إليه متفاجئة. لم يعرف. بالتأكيد لا يعرف. حتى أطباء هذا الزمن لم يعرفوا. مما يعني أن نايجل لن يصدقني إن أخبرته. فكيف لشيء صغير مثل الناموس أن يبعث المرض؟ «نايجل، تعرف من أين جئت أنا، صح؟».

أجابني بتعبير لا يشبه الابتسامة تمامًا «مكان غير نيويورك».

«لا».

«أعرف ما قاله السيد روفوس عن مكانك».

«لا أظن أن من الصعب عليك تصديقه فقد رأيتني أختفي على الأقل مرة».

«مرتين».

«طيب؟».

هزَّ كتفيه «كيف لي أن أعرف. إن لم أرَ ذلك... كيف تختفين إلى بيتك، لظننت أنك مجرد نيجر مجنون آخر. لكن لم يسبق لي رؤية أحد غيرك يفعل ما فعلتِ. لا أريد تصديقك لكني بشكل ما أصدقك».

«حسنًا» أخذت نفسًا عميقًا. «في المكان الذي جئت منه، عرف الناس أن الناموس يحمل البرداء. يعضون شخصًا يحمل المرض ثم ينقلون المرض إلى شخص آخر من خلال العضة».

«كيف؟».

«يسحبون الدم من المريض ثم يبعثون بعض هذا الدم لشخص آخر عند عضه. مثل كلب مسعور يعض رجل فيصاب بالسعار». لن أخبره عن الميكروبات، قد يظن نايجل أني مجنونة بالفعل.

«يقول الطبيب إن شيئًا في الهواء ينقل المرض، أو في الماء والزبالة. حمى المستنقع سمّاها».

«مخطئ. كما هو مخطئ في سحب الدم والكي وبقية ما يفعله، ومخطئ في الجرعة التي أعطاها لك، ومخطئ الآن. المعجزة أن ينجو أحد مرضاه».

«سمعت أنه جيد وسريع في بتر السيقان والأذرع».

اضطررت إلى الالتفات إلى نايجل لأتأكد إن كانت مجرد مزحة

مروعة منه. لكنها لم تكن. «اجلب الناموسية» قلت «لنحاول إبقاء الجزار بعيدًا عن هنا».

أومأ برأسه وانطلق خارج الغرفة. لا أعرف إن كان يصدقني أم لا، لكن لا يهم الآن. ليس من الصعب على أحد اتخاذ إجراء بسيط كهذا.

نظرت إلى روفوس لأرى أنه قد توقف عن الارتعاش وأغمض عينيه. عاد يتنفس بشكل طبيعي وظننت أنه نائم.

«لمَ تستمر بمحاولة قتل نفسك؟» قلت برفق.

لم أتوقع إجابة منه لذا تفاجأت بسماع صوته. «أغلب الأحيان لا تستحق الحياة عناء العيش».

جلست بجانب السرير. «لم يخطر لي أنك تريد الموت».

«لا أريد الموت». فتح عينيه ينظر إليَّ ثم أغمضهما ثانية يغطيهما بيديه. «ولكن لو توجعت من عينيك ورأسك وساقك مثلي سيبدو الموت حلًّا أفضل».

«توجعك عيناك؟».

«حين أنظر من حولي».

«هل كان الألم موجودًا قبل البرداء؟».

«لا. لا علاقة للبرداء. البرداء سيئة كفاية. أشعر وكأن ساقي تنخلع عني ورأسي...!».

أخافني كلامه. بدا أنه يتوجع أكثر، يلوي جسده كأنه يحاول الابتعاد عن الألم، ثم سكن يلهث في مكانه.

«روف، سأحضر والدك. حين يراك سيقوم بطلب الطبيب».

كان منشغلًا بألمه فلم يرد. لم أُرد تركه وحده حتى يعود نايجل رغم أني لا أعرف ما الذي بوسع نايجل فعله له. حُلت مشكلتي بظهور وايلن مع نايجل.

«ما الذي تقولينه عن الناموس وعدوى البرداء؟» سأل.

«لا يهم ذلك الآن» قلت «لا أظن أنه يعاني من الملاريا. البرداء. إنه يعاني من ألم شديد. يجب أن يأتي أحدهم بالطبيب».

«أنت طبيبة كفاية له».

«ولكن...» توقفت أأخذ نفسًا عميقًا كي أهدأ. من خلفي صوت روفوس يتأوه. «سيد وايلن، أنا لست بطبيبة. ليست عندي أدنى فكرة عمَّا أصابه. أيًّا كان شكل العناية الطبية المتوفرة فيجب عليك جلبها له».

«يجب عليَّ؟».

«حياته على المحك».

ظل فم وايلن مطبقًا في خط مستقيم صلب. «إن مات ستموتين، وأنت لا تموتين بسهولة».

«سبق وقلت ذلك. ولكن مهما فعلت بي فسيكون ابنك ميتًا. هل هذا ما تريده؟».

«قومي بعملك» قال بعناد «وسيعيش. أنت شيء مختلف، لا أعرف ماذا، ساحرة، شيطان. لا يهمني. مهما تكونين، أعرف أنك بعثت الحياة في فتاة المرة الماضية، بالرغم من أنها لم تكن بالشخص الذي جئت لإنقاذه. تأتين من اللاشيء وتعودين إلى اللاشيء. قبل سنوات، كنت لأقسم أن أحدًا مثلك لا وجود له. لست طبيعية! لكنك تشعرين بالألم كما أنك معرضة لخطر الموت. تذكري ذلك وستقومين بعملك. اعتني بسيدك».

«ولكن، أخبرتك...».

خرج من الغرفة مغلقًا الباب من خلفه.

٤

جئنا بالناموسية ووضعناها من باب الاحتياط. قال نايجل إن وايلن لا يمانع إن أخذناها، كل ما في الأمر أنه لا يريد سماع أي لغط عن الناموس، لا يحب أن يستخف أحدهم بعقله.

«يبدو أنه يخافك كما لم يخف أحدًا من قبل» قال نايجل «لكنه يفضل قتلك على الاعتراف بذلك».

«لا أرى أي علامة خوف عليه».

«لا تعرفينه كما أعرفه» توقف نايجل «هل بإمكانه قتلك يا دانة؟».

«لا أعلم. ممكن».

«إذًا علينا الاعتناء بالسيد روفوس. لدى سارة نوع من الشاي جيد لمرضى البرداء. قد يساعد السيد روف في حالته هذه».

«هلَّا طلبت منها تحضير إبريقًا منه؟».

أومأ برأسه وخرج.

صعدت سارة مع نايجل لتأتي بالشاي إلى روفوس وكي تراني. بدت مسنة الآن. يخط الشيب شعرها وقد ظهرت التجاعيد على وجهها. تمشي عرجاء.

«سقطت غلاية على قدمي» قالت «لم أستطع المشي لفترة». أشعرتني بأن الجميع يتقدم في السن، يجتازونني. جلبت لي طبقًا من اللحم المحمر والخبز لآكله.

يعاني روفوس الآن من الحمى. لم يرغب في احتساء الشاي، ابتلعه بعد إلحاح وإصرار. ثم جلسنا ننتظر، بدأت ساق روفوس الأخرى تؤلمه. لكن أكثر ما يؤلمه عيناه لأنه لا يقدر على التوقف عن تتبعنا أنا أو نايجل كلما تحركنا في أنحاء الغرفة. أخيرًا، وضعت قماشة مبللة باردة عليهما، بدا أنها خففت من الألم. لكن ألم المفاصل استمر، في الذراعين والساقين وفي أنحاء جسده. ظننت أن عندي حلًّا لذلك، فذهبت إلى العلية أجلب حقيبتي. وجدت فتاة صغيرة على وشك فتح علبة المسكنات. أفزعتني رؤيتها، فماذا لو أنها التقطت الحبوب المنومة؟ لم تعد العلية المكان الآمن الذي ظننته.

«لا حبيبتي، أعطيني إياها».

«تبعك؟».

«نعم».

«حلويات؟».

يا الهي. «لا هذا دواء. دواء مقرف».

«كخ!» قالت ثم أعطتني العلبة. ذهبت تجلس على فراشها بجانب فتاة أخرى. طفلتان جديدتان. فكرت في مصير الصبيين الصغيرين السابقين، أباعوهما أم أرسلوهما إلى العمل في الحقل؟

أخذت المسكنات وما تبقى من الأسبرين والحبوب المنومة معي ونزلت. يجب أن أخبئها في غرفة روفوس قبل أن يكتشف أحد الأطفال كيفية فتح صمام الأمان لعلب الدواء.

حينما عدت وجدت روفوس وقد ألقى الفوطة عن عينيه وتكور على جنبه من الألم. بينما استلقى نايجل على الأرض بالقرب من المدفأة وغفا. كان بإمكانه النوم في كوخه لكنه سألني إن كنت أريد له أن يبقى معي على اعتبار أنها ليلتي الأولى منذ عودتي فأجبته بنعم.

وضعت ثلاث حبات أسبرين في كوب ماء وحاولت إقناع روفوس بشربه. لم يتمكن حتى من فتح فمه. أيقظت نايجل ليمسك به بينما أسد أنف روفوس وأسكب المحلول القميء في فمه وهو يشهق محاولًا التنفس. صار يلقي علينا باللعنات، لكن بعد بعض الوقت بدأ يسترخي. مؤقتًا.

كانت ليلة سيئة. لم يتسنَ لي النوم إلا قليلًا. واستمر الوضع هكذا لست ليالٍ وأيام. مهما يكن هذا المرض، فالأكيد أنه فتاك. كان يتألم باستمرار وقد لازمته الحمى. مرة ناديت على نايجل كي يثبته فأقوم بتقييده حتى لا يؤذي نفسه. أعطيته حبوب الأسبرين، أكثر من اللازم، لكن أقل مما كان يطالب به. جعلته يتناول المرق والحساء وعصائر الفواكه والخضراوات. لم يرغب بأيٍّ منها. لم يرغب بالأكل لكنه لم يُرِد لنايجل أن يثبته ثانية، فاضطر إلى الأكل بنفسه.

تمر آليس من وقت إلى آخر لتخفف عني. مثل سارة، بدت أكبر سنًّا. كما أنها صارت أقسى، كأنها الأخت الكبرى، الساخطة والهادئة، للفتاة التي كنت أعرفها.

«يسيء الناس معاملتها بسبب السيد روف» قال نايجل «يظنون بما أنها قضت كل هذا الوقت معه فلا بد أن الوضع يعجبها».

وقالت آليس ناقمة «ومن يهتم لما يعتقده شوية نيجر!».

«فقدت طفلين» أخبرني نايجل «والطفل الذي نجا يعاني من المرض».

«أطفال بيض» قالت آليس «يشبهونه أكثر مما يشبهوني. بل إن جو أصهب مثله» كان جو الناجي الوحيد. أوشكت على البكاء حين سمعت ذلك. لم تُولد هاجر بعد. تعبت من الذهاب والعودة، أردت لكل شيء أن ينتهي. لا يمكنني حتى أن أشفق على الصديقة التي حاربت من أجلي واعتنت بي في مصابي. كنت مشغولة بالشفقة على نفسي.

في اليوم الثالث من مرضه، اختفت الحمى عن روفوس. بات ضعيفًا وقد خسر كم كيلو من وزنه، لكن ذلك لم يزعجه، كان سعيدًا باختفاء الحمى والألم. ظن أنه تحسن لكن ذلك لم يستمر.

عادت الحمى والآلام لثلاثة أيام أخرى ثم أصيب بطفح جلدي يدفعه إلى الحكّ قبل أن يبدأ بالتقشر...

أخيرًا، تعافى واستمر على ذلك. تمنيت ألا يكون قد نقل العدوى إليَّ، وألا سأضطر ثانية إلى الاعتناء بشخص يُصاب بمرض كهذا. بعد بضعة أيام اجتاز خلالها أسوأ أعراض مرضه، صار بإمكاني النوم في العلية. انهرت بامتنان على الفراش الذي حضرته لي سارة، شعرت وكأنه أنعم فراش في العالم. لم أستيقظ حتى ساعة متأخرة من الصباح التالي بعد ساعات من النوم العميق غير المنقطع. بل إني كنت بعد دائخة حينما صعدت آليس راكضة تبحث عني.

«السيد توم مريض» قالت «السيد روف يريدك».

«لا!» تمتمت «أخبريه أن يستدعي الطبيب».

«في الطريق. لكن السيد توم يعاني من آلام شديدة في صدره».

استوعبت التفصيلة ببطء «آلام في الصدر؟».

«نعم، تعالي، إنهم في الصالة».

«يا الله، يبدو أنها سكتة قلبية، لا يمكنني فعل شيء».

«طيب تعالي. يريدونك».

لبست البنطال والقميص وأنا أجري. ما الذي يتوقعه مني هؤلاء؟ السحر؟ إن كانت سكتة قلبية، فإنه سينجو أو يموت من دون مساعدتي.

ركضت على السلالم إلى الصالة لأجد وايلن مستلقيًا على الكنبة، صامتًا وساكنًا.

«افعلي شيئًا!» توسل روفوس. «ساعديه!» جاء صوته ضعيفًا وواهنًا كشكله. ترك المرض آثاره عليه. تساءلت كيف استطاع النزول إلى هنا.

فقد وايلن النفس ولم أتمكن من سماع نبض قلبه. للحظة، حدقت إليه حائرة ونافرة، لا أرغب بلمسه ثانية، فما بالك بالنفخ في فمه. ثم متجاوزة القرف، بدأت بالتنفس الفموي والضغط على قلبه، ماذا يسمون ذلك؟ إنعاش قلبي رئوي. أعرف المصطلح، كما أني سبق ورأيت العملية على التليفزيون. هذا كل ما أعرفه. لم أعرف حتى ما الذي يدفعني إلى مساعدة وايلن. لا يستحق المحاولة. وما أهمية محاولتي هذه في زمن لا توجد فيه سيارة إسعاف تكمل المهمة إن استطعت بالفعل تفعيل قلبه، رغم أني لا أتوقع نجاح محاولتي.

وبالفعل لم أنجح.

أخيرًا، استسلمت. التفتُّ لأجد روفوس على الأرض بالقرب مني. لا أعلم إن كان قد جلس أم سقط، ثم رأيته يجلس.

«آسفة يا روف لقد مات».

«تركته يموت؟».

«بل كان ميتًا عند وصولي. حاولت مساعدته كما فعلت معك المرة الأولى بعد غرقك لكني فشلت».

«تركته يموت».

يدا كطفل على وشك البكاء. لقد أوهنه المرض فظننت أنه سيبكي. حتى الأصحاء يبكون ويتفوهون بكلام مجنون عند موت أب أو أم.

«حاولت يا روف، آسفة».

«اللعنة عليكِ، تركته يموت» حاول مهاجمتي لكنه لم ينجح سوى في السقوط. اقتربت لأساعده لكني توقفت بعدما حاول دفعي بعيدًا.

«أرسلوا نايجل» همس «اجلبوا نايجل».

نهضت أبحث عن نايجل. من خلفي سمعت روفوس يكرر ثانية «تركته يموت هكذا».

٥

مرت الأحداث عليَّ بسرعة. كدت أسعد بالعمل ثانية مع سارة وكاري لو يتجاهلني روفوس. أحتاج إلى بعض الوقت كي ألتقط أنفاسي وأستدرك ما فاتني في العزبة. صار لكاري ونايجل ثلاثة صبيان لم يخبرني عنهم نايجل، أصغرهم بلغ من العمر سنتين. نسيَ

أني لم أعرف بوجودهم. كنت معه مرة وهو يراقبهم بينما يلعبون. «الخلفة أمر جيد» قال بنعومة «وجيد أنهم صبيان. لكن صعب جدًا أن تري أطفالك يصيرون عبيدًا».

التقيت بابن آليس النحيل الشاحب وسعدت برؤية مدى حبها له رغم ما قالته عنه.

«يراودني هاجس أني قد أستيقظ في يوم وأجده مريضًا كالآخرين» قالت مرة في المطبخ.

«كيف ماتوا؟» سألت.

«الحمى. جاء الطبيب وسحب الدم منهما ثم قام بكيهما، لكنهما ماتا في النهاية».

«يكوي ويسحب الدم من أطفال؟».

«كانا في سن الثانية والثالثة. قال إن ذلك سيساعد على دفع الحمى، وهذا ما حدث. لكنهما... ماتا في النهاية».

«آليس، لو كنت مكانك لن أسمح لذاك الرجل بالاقتراب من جو».

نظرت إلى ابنها يجلس على أرضية المطبخ يأكل طبقًا من حلوى الذرة بالحليب. كان في سن الخامسة، يكاد يكون أبيض تمامًا بالرغم من بشرة آليس الداكنة. «لم أُرد للطبيب أن يقترب من أطفالي» قالت آليس «لكن السيد روف جاء به ثم تركه يقتل أطفالي».

كانت نوايا روفوس حسنة. بل حتى الطبيب على الأغلب كانت نواياه حسنة. ولكن كل ما يهم آليس أن طفليها قد ماتا وأن اللوم يقع على روفوس. اكتشفت أن روفوس يشاركها نمط التفكير نفسه.

ففي اليوم الذي دفن فيه وايلن، قرر روفوس معاقبتي لأني تركت العجوز يموت. لا أعلم إن كان بالفعل يصدق فكرة كهذه. ربما أراد فقط إيذاء أحدهم. لطالما صب غضبه على الآخرين وقتما وجد نفسه مجروحًا، سبق ورأيته يفعل ذلك.

لذا، في صباح يوم العزاء، قام بإرسال المراقب الحالي، رجل قوي البنية اسمه إيفان فاولر، ليأتي بي من المطبخ. يبدو أن جيك إدواردز قد طُرد أو استقال خلال السنوات الست التي غبتها. بعث بفاولر ليخبرني بأني سأعمل في الحقل.

لم أصدقه، حتى بعدما دفعني إلى خارج المطبخ. ظننت أنه مجرد جيك إدواردز آخر يستعرض قوته. ولكن في الخارج وجدت روفوس ينتظر ليشاهد. نظرت إليه ثم إلى فاولر.

«تقصد هذه؟» سأل فاولر روفوس.

«هذه هي» قال روفوس. ثم استدار متجهًا إلى البيت.

تحت تأثير الصدمة، أخذت سكين الذرة التي على شكل منجل من فاولر وتركته يدفع بي إلى حقل الذرة. يدفع بي كما القطيع. من خلفي جلس فاولر على حصانه يتبعني على مسافة قريبة. كانت

تمشية طويلة. لم يكن حقل الذرة في الموقع الذي عرفته المرة الماضية. يبدو أن المزارعين، حتى في هذا الزمن، عرفوا تدوير المحصول. وماذا يفرق ذلك عندي؟ أي شيء أستطيع فعله في حقل ذرة؟

استدرت أنظر إلى فاولر «لم يسبق لي العمل في الحقل» أخبرته «لا أعرف كيف».

«ستتعلمين» قال ثم بطرف السوط حك على كتفه.

كان يجب أن أقاوم، أرفض أن يأخذني فاولر إلى الحقل حيث لا أحد يشهد على ما قد يحدث لي سوى غيري من العبيد. الآن فات الأوان. سيكون اليوم عصيبًا.

عبيد يسيرون بمحاذاة صفوف الذرة، يقطعون سيقان الذرة بسكاكينهم في حركة أشبه بضربات الغولف. ينشغل عبدان بصف واحد ليعمل أحدهم باتجاه الآخر. ثم يجمعان السيقان المقطوعة ليضعوها في حزم على طرفي الصف. بدا الأمر سهلًا لكن قضاء يوم كامل في عمل كهذا كفيل بكسر الظهر.

نزل فاولر عن حصانه وأشار إلى صف.

«اقطعي كما يفعلون» قال «اتبعي ما يفعلون. هيا إلى العمل» دفعني نحو الصف. في نهاية الصف كان هناك من يعمل متحركًا تجاهي. شخص قوي وسريع، هكذا تمنيت، فلا أظن أن بإمكاني أن أكون سريعة وقوية قريبًا. تمنيت أن يجعلني كل ذاك الغسل والفرك في البيت والمصنع والمخزن في زمني قوية كفاية لأظل على قيد الحياة.

رفعت السكين وقطعت الساق الأولى. مالت إلى الأرض نصف مقطوعة.

في نفس اللحظة مرر فاولر سوطه على ظهري.

صرخت متعثرة واستدرت لمواجهته، ما زالت السكين في يدي. دون تردد، ضربني ثانية على صدري.

سقطت على ركبتي أنحني من شدة الألم. انهمرت الدموع على وجهي. حتى توم وايلن لم يضرب النساء من العبيد هكذا، كما لم يضرب الرجال في منطقة الحوض. الحيوان فاولر. حملقت إليه بنظرة من الألم والحقد.

«انهضي» قال.

لم أكن قادرة. لم أظن أن بإمكان أي شيء أن يدفعني إلى الوقوف حتى رأيت فاولر يرفع سوطه ثانية.

بشكل ما، وقفت.

«الآن اتبعي الآخرين» قال «اقطعي الساق من تحت. بقوة!».

أمسكت بالسكين جيدًا، تغمرني رغبة بتقطيعه هو.

«طيب» قال «هيا جربي. المفترض أنك الذكية».

كان رجلًا ضخمًا. لم أتخيل أن يكون سريعًا لكنه بالتأكيد قوي. خفت أني إن حاولت إيذاءه قد لا أنجح، فيتمكن هو من قتلي. ربما أدفعه لقتلي. ربما بذلك أخرج من هذا المكان الملعون حيث يجازيك

الناس بالعقاب مقابل مساعدتك إياهم. ربما أعود إلى البيت. ولكن هل سأعود قطعة واحدة؟ سيأخذ فاولر السكين مني ولن يعيدها إلا في ضربة.

استدرت ورحت أضرب سيقان الذرة بغضب واحدة تلو الأخرى. من خلفي سمعت فاولر يضحك.

«ربما بالفعل عندك بعض العقل» قال.

راقبني لفترة، يدفعني إلى الاستمرار، يضرب سوطه في الهواء. حتى تركني، كنت أتصبب عرقًا وأرتعش مذلولة. التقيت المرأة التي تعمل مقابلي فهمست لي «ببطء! حتى لو اضطررت لأخذ جلدة أو اثنتين. إن أنهكت نفسك اليوم، فسيدفعك إلى إنهاك نفسك كل يوم».

كلام منطقي. اللعنة لو أني أكملت على هذا المنوال، قد لا أعيش حتى نهاية اليوم. شعرت بالألم يشتعل في كتفي.

عاد فاولر وأنا أجمع السيقان. «ماذا تفعلين!» صرخ «مفروض أن تكوني قد وصلت إلى منتصف الصف التالي الآن». ضربني ثانية على ظهري وأنا منحنية. «تحركي! لست في المطبخ لتسمني وتتكاسلي. تحركي!».

استمر هكذا طوال اليوم. يظهر فجأة، يصرخ، يأمرني بالإسراع بغض النظر عن سرعتي، يشتمني، يتوعدني. لم يجلدني كثيرًا لكنه جعلني أترقبه لأني لم أعرف متى ستأتي الضربة القادمة. حتى وصل

بي الأمر إلى أن شعرت بالرعب بمجرد سماعه يقترب. شعرت بنفسي مهانة ومرعوبة بمجرد سماع صوته.

شرحت لي المرأة في صفي «يتصرف هكذا دائمًا مع أي نيجر جديد. يدفعهم إلى العمل بسرعة ليرى أقصى الممكن وبذلك إن تباطؤوا لاحقًا يجلدهم على تكاسلهم».

صرت أتباطأ فلم يكن الأمر صعبًا. لو أن شرخًا حل بكتفي لما شعرت بمثل هذا الوجع. تصبب العرق مني يدخل إلى عيني، بينما أخذت كفي تتشقق. أوجعني ظهري بتأثير ضربات السوط والتهاب عضلاتي. بعد فترة، بات الاستمرار أشد عليَّ من ضربات فاولر. بعد فترة، بت منهكة جدًّا، لم أعد أكترث. كل أنواع الألم موجعة. بعد فترة، أردت فقط الاستلقاء بين الصفوف فلا أنهض ثانية.

تعثرت وسقطت، نهضت فوقعت. أخيرًا، ارتميت بوجهي في التراب غير قادرة على النهوض. ثم سعدت لرؤية العتمة. قد أكون في طريقي إلى البيت أو على وشك الموت أو مجرد إغماء، لا يهم. المهم أني أبتعد عن الألم. هذا كل ما يهم.

٦

وصلت مستلقية على ظهري، يحوم من فوقي وجه أبيض. للحظة مجنونة، ظننت أنه كيفن، ظننت أني قد عدت. ناديت عليه بلهفة.

«هذا أنا يا دانة».

صوت روفوس. ما زلت في الجحيم. أغمضت عيني غير مكترثة لما يحدث.

«دانة، انهضي. ستتأذين أكثر لو حملتك، المشي أسهل عليك».

رنت كلماته في رأسي. سبق وأن قال كيفن كلامًا مشابهًا مرة. فتحت عيني ثانية لأتأكد أنه روفوس.

«جئت لأعود بك» قال روفوس «يبدو أني تأخرت».

وقفت بصعوبة. مد يده لمساعدتي لكني تجاهلته. نفضت ثيابي قليلًا ثم تبعته إلى نهاية الصف حيث حصانه. من هناك ركبنا الحصان عائدينِ دون تبادل كلمة. في البيت توجهت مباشرة إلى البئر، أخذت دلوًا من الماء وبشكل ما صعدت به، اغتسلت، وأضفت مطهرًا إلى جروحي الجديدة وارتديت ثيابًا نظيفة. لكن الصداع جعلني أنزل إلى غرفة روفوس بحثًا عن مسكنات الأكسدرين، فقد قضى روفوس على الأسبرين.

للأسف وجدته في غرفته.

«يبدو أنك لا تنفعين في الحقل» قال عند رؤيتي «واضح».

توقفت في مكاني، استدرت، ثم صرت أحدق إليه. أحدق لا أكثر. كان يجلس في سريره، متكئًا على رأس السرير، ثم عدل من وضعيته ليواجهني.

«لا ترتكبي حماقة أخرى يا دانة».

«أكيد» قلت بهدوء «إني ارتكبت حماقات كافية، فكم مرة

أنقذت حياتك؟» أخذني الصداع إلى طاولة المكتب حيث وضعت الأكسدرين. هززت العلبة آخذ ثلاث حبات منها في يدي. لم يسبق لي أخذ هذا الكم من المسكنات. لم يسبق لي أن أحتاج هذا الكم. ترتعش يداي.

«كان فاولر على وشك جلدك بشدة لو لم أوقفه» قال روفوس «هذه ليست المرة الأولى التي أنقذك فيها من السوط».

ها هي المسكنات بيدي. استدرت لأخرج من الغرفة.

«دانة!».

توقفت ألقي نظرة عليه. كان ضعيفًا ونحيلًا بعينين ذابلتين: علامات تركها المرض عليه. على الأرجح ما كان يستطيع حملي إلى الحصان إن حاول. كما لن يستطيع منعي من الرحيل الآن، فكرت.

«إن مشيت عني الآن يا دانة، ستجدين نفسك في الحقل خلال ساعة!».

صدمت بالتهديد. بدا جادًّا. سيعيدني إلى الحقل. وقفت أحدق إليه، هذه المرة دون غضب، بل متفاجئة وخائفة. قد يفعلها. لربما سأنتقم منه لاحقًا لكنه الآن قادر على فعل أي شيء. بدا وكأنه والده. بل إنه صار يشبهه، لحظتها.

«يا ويلك لو مشيت عني ثانية!» قال. استغربت لسماع نبرة الخوف في كلامه. ثم كرر كلماته ثانية، يضع مسافات بينها، ويؤكد على كل منها. «يا ويلك لو مشيت عني ثانية!».

وقفت في مكاني، رأسي تدق، تعبير وجهي حيادي قدر الإمكان. ما زال عندي بعض الكبرياء.

«تعالي هنا!» قال.

بقيت واقفة في مكاني لحظة أطول، ثم توجهت إلى طاولته أجلس بجانبها. هدأ لحظتها. صورة والده اختفت. عاد إلى شخصه ثانية، لا أعلم أي شخص يكون.

«دانة، لا تدفعيني لمخاطبتك بهذه الطريقة» قال «افعلي ما أقوله فحسب».

هززت رأسي، لا أعرف كيف أجيبه دون مخاطرة. ويبدو أني هدأت أنا أيضًا. شعرت بالحرج من رغبتي في البكاء. أريد بشدة أن أكون وحدي. بشكل ما سيطرت على دموعي.

لربما لمح دموعي لكنه لم يعلق. تذكرت أن الحبوب المسكنة ما زالت في يدي، ابتلعتها، بلا ماء، على أمل أن يأتي مفعولها سريعًا، تثبتني قليلًا. ثم نظرت إلى روفوس، وجدته مستلقيًا. هل يتوقع مني البقاء هنا حتى أشاهده ينام؟

«لا أعرف كيف تبلعينها هكذا» قال وهو يمسد بلعومه. ساد صمت طويل ثم أصدر أمرًا جديدًا «انطقي! كلميني!».

«أو ماذا؟» سألته «هل ستجلدني لأني لن أحادثك؟».

تمتم بشيء لم أفهمه.

«ماذا؟».

صمت. ثم بدفعة من المرارة.

«أنقذت حياتك يا روفوس! مرة تلو الأخرى» توقفت للحظة ألتقط أنفاسي «حاولت إنقاذ حياة والدك. تعلم ذلك. تعلم أني لم أقتله ولم أتركه يموت».

تحرك في مكانه جفلًا «أعطيني بعضًا من دوائك» قال.

لا أعرف كيف، لكني لم أرمِ العلبة عليه. بل ذهبت أضعها في يده.

«افتحيها» قال «لا أريد التعامل مع غطاء العلبة».

فتحتها، هززت منها حبة إلى يده، ثم أعدت الغطاء.

نظر إلى الحبة «واحدة فقط؟».

«هذه أقوى من الأخرى» قلت. كما أني أردت توفيرها لأطول وقت ممكن. من يعلم كم مرة سأحتاجها. بدأت أشعر بمفعول الحبات.

«أخذت ثلاثًا» قال متذمرًا.

«لأني بحاجة إلى ثلاثٍ منها. لم يقم أحد بجلدك».

أشاح بوجهه عني وابتلع الحبة. ما زال يمضغ الحبوب قبل ابتلاعها. «طعمها أسوأ من الأخرى» قال مشتكيًا.

تجاهلته وأعدت العلبة إلى مكانها.

«دانة؟».

«ماذا؟».

«أعلم أنك حاولت مساعدة بابا. أعلم».

«طيب لماذا أرسلتني إلى الحقل؟ لمَ تركتني أمر بكل ذلك يا روف؟».

هز كتفيه منزعجًا، يحك على كتفيه. يبدو أنه لا زال يعاني من تورم عضلاته. «أعتقد أني أردت أن يدفع أحدهم ثمن ذلك. وبدا أن... أن الناس لا تموت حين تقومين بتطبيبهم».

«لست بصانعة معجزات».

«لا. لكن والدي ظن ذلك. لم يحبك لكنه ظن أنك قادرة على العلاج أفضل من أي طبيب».

«غير صحيح، كل ما في الأمر أن احتمالات القتل أقل مما قد يقوم به طبيب».

«قتل؟».

«لا أسحب الدم ولا أكوي الناس فأسلبهم قواهم في أضعف لحظاتهم. كما أني أعرف ما يكفي لتطهير جرح ما».

«هذا كل ما تعرفين؟».

«ما يكفي لإنقاذ حياة البعض هنا، ولكن لا، أعرف أكثر من ذلك. أعرف القليل عن بعض الأمراض، فقط القليل».

«ماذا تعرفين عن... عن امرأة أصيبت خلال عملية الولادة؟».

«أصيبت كيف؟» تساءلت إن كان يقصد آليس.

«لا أعلم. قال الطبيب إن عليها ألا تحبل ثانية ولكنها حبلت. مات الأطفال وكانت على وشك الموت. ومن وقتها لم تعد بخير».

الآن تأكدت من يقصد بكلامه. «أمك؟».

«نعم. ستعود إلى البيت. وأريد منك الاعتناء بها».

«يا إلهي! روف، لا أعرف أي شيء عن مشاكل مثل هذه. صدقني، لا أعرف أي شيء». ماذا لو ماتت المرأة في عنايتي. الأكيد أنه سيجلدني حتى الموت!

«تريد العودة إلى البيت، بما أن... تريد أن تعود».

«لا يمكنني العناية بها. لا أعرف كيف». ترددت «كما أن أمك لا تحبني يا روف. تعلم ذلك جيدًا». تكرهني. ستجعل حياتي جحيمًا بلا سبب.

«لا أحد غيرك أثق به» قال «كاري مشغولة بعائلتها. سأضطر إلى أخذها بعيدًا عن نايجل وأطفالها...».

«لماذا؟».

«لأن أمي بحاجة إلى أحد معها طوال الليل. ماذا لو احتاجت إلى شيء؟».

«تقصد أني سأنام معها في غرفتها؟».

«نعم. لم تسمح للخدم بالنوم معها في الغرفة من قبل. ولكن الآن اعتادت الأمر».

«لن تعتاد وجودي. أؤكد لك، لن تقبل بي» يا رب أرجوك!

«أظن أنها ستقبل. صارت أكبر سنًّا الآن، خبت نارها. فقط أعطها اللودانيوم حين تحتاجه ولن تزعجك».

«لودانيوم؟».

«دواؤها. لم تعد تستخدمه بكثرة، هذا ما قالته العمة ماي. لكنها ما زالت في حاجة إليه».

بما أن اللودانيوم مستخرج من الأفيون لم يكن عندي شك أنها ستحتاجه. سأكون مسؤولة عن مدمنة مخدرات. مدمنة مخدرات تكرهني. «روف، ألا تستطيع آليس...».

«لا!» قالها بشكل قاطع. ثم استدركت أن مارغريت وايلن بالتأكيد تكره آليس أكثر مني.

«ستنجب آليس طفلًا آخر بعد شهور قليلة» قال روفوس.

«فعلًا؟ طيب ربما...» ثم سكت، ولكن الجملة اكتملت في رأسي. قد تأتي هاجر. قد يكون لبقائي هنا معنًى. لو فقط...

«ربما ماذا؟».

«لا شيء. لا يهم. روف، أطلب منك ألا تضع أمك في عنايتي، من أجلها ومن أجلي».

حك جبينه. «سأفكر في الموضوع يا دانة وأناقشها. لربما تتذكر أحدًا هنا تفضله. دعيني أنام الآن. لا زلت مرهقًا».

نهضت لأخرج من الغرفة.

«دانة».

«نعم؟ ماذا الآن؟».

«اقرئي كتابًا أو تسلي بشيء. لا تقومي بأي عمل اليوم».

«أقرأ كتابًا؟».

«افعلي ما تشائين».

هذه طريقته في الاعتذار. متأسف دائمًا. كان سيصدم ويستغرب لو رفضت مسامحته. تذكرت فجأة طريقة مخاطبته لأمه. كيف أنه حين يفشل في الحصول على ما يريد بلطف، ينقلب فلا يعود لطيفًا. لم لا؟ فهي تسامحه دائمًا.

٧

قبلت مارغريت وايلن بي. كانت نحيلة وشاحبة وضعيفة، بدت أكبر من سنها الحقيقي. راح جمالها وباتت هزيلة هشة. حين قُدمت إليها ثانية، كانت تشفط من قنينتها الصغيرة ذات السائل البني-الأحمر الغامق، ثم لاحت ابتسامتها.

حملها نايجل إلى غرفتها. بإمكانها المشي قليلًا لكنها غير قادرة على صعود السلالم. لاحقًا، طلبت رؤية أطفال نايجل. كانت في غاية اللطافة معهم. لم يسبق لي رؤيتها تعامل أحدًا هكذا فيما عدا روفوس. لم تكن تهتم لأطفال العبيد إلا إن كانوا من خلفة زوجها.

ومع هؤلاء، لم يكن اهتمامها بهم إيجابيًّا. لكنها أعطت أطفال نايجل الحلوى فأحبوها.

طلبت رؤية عبدًا آخر -لم أعرف من يكون أو تكون- ثم بكت حين علمت أنه قد بِيع. كانت تنضح بالمحبة والكرم. أرعبتني قليلًا. لا أعرف كيف أصدق هذا التغيير.

«دانة، هل ما زلت تقرئين كما كنتِ؟» سألتني.

«نعم يا سيدتي».

«اخترتك لأني تذكرت أنك تجيدين القراءة».

سيطرت على تعبير وجهي. إن كانت قد نسيت رأيها في طريقة قراءتي، فإني لم أنسَ.

«اقرئي الإنجيل لي» قالت.

«الآن؟» للتو انتهت من تناول الإفطار. بينما لم آكل شيئًا بعد، وكنت جائعة.

«نعم الآن. اقرئي جزء العظة على الجبل».

كانت تلك بداية يوم كامل قضيته معها. حين تتعب من قراءتي، تجد لي شيئًا آخر أفعله. غسل ملابسها، مثلًا. تقول إنها لا تثق بالآخرين. فكرت أنها ربما قد سمعت أن آليس هي من تقوم بالغسيل. إضافة إلى ذلك، تنظيف الغرفة. تظن أن غرفتها لم تُكنس وتمسح حتى أنجزت ذلك من أمامها. كما لم تقتنع بأن سارة تعرف كيف تفضل طريقة تحضير عشائها، حتى نزلت وجئت بسارة إليها

لتتلقى تعليماتها. ثم تحدثت مع نايجل وكاري فيما يخص التنظيف. وقامت بتفحص الولد والبنت اللذين يقدمان الطعام على الطاولة. باختصار، أرادت أن تذكرنا بأنها سيدة البيت. فقد مرت سنوات من دونها هنا، ولكنها ها قد عادت الآن.

قررت تعليمي الخياطة. كانت لديَّ ماكينة «سينجر» قديمة في البيت أخيط بها ما نحتاجه أنا وكيفن. أما الخياطة باليد، خاصة الخياطة بهدف المتعة، فمجرد تعذيب بطيء. كما أن مارغريت وايلن لم تسألني إن أردت التعلم. عندها من الوقت ما تضيعه وكانت وظيفتي أن أساعدها على تضييعه. قضيت ساعات طويلة تعيسة أحاول تقليد تطريزاتها الصغيرة المستقيمة المتساوية، بينما تقضي دقائق في تقطيع ما أخيطه وتوبيخي على سوء ما صنعت.

ومع مرور الأيام، تعلمت أن أقضي وقتًا أطول حين ترسلني في مهمة ما. تعلمت اختلاق الأكاذيب كي أتملص منها عندما أوشك على الانفجار فيها. تعلمت الاستماع صامتة كلما تكلمت وتكلمت وتكلمت... غالبًا عن كيف أن الحياة أفضل في بالتيمور. لم أتقبل النوم على أرضية غرفتها، كما أنها رفضت أن يأتوا بالسرير المتحرك هنا. فالحقيقة أنها لم ترَ أي مشكلة في نومي على الأرض. لطالما نام النيجر على الأرض.

بالرغم من كل صعوباتها، فالأكيد أن مارغريت وايلن باتت لينة. لم تعد تنفجر فجأة في ثورات غضب. قد يكون اللودانيوم السبب في ذلك.

«إنك فتاة جيدة» خاطبتني مرة وأنا جالسة قرب سريرها أنسج قطعة غطاء. «أفضل بكثير مما كنت عليه. لا شيء أسوأ من نيجر صفيق».

«نعم يا سيدتي» لم أرفع رأسي حتى.

تبعث فيَّ الكآبة، الملل، تثير غضبي، جنوني. لكن ظهري تعافى تمامًا خلال وقتي معها. لم يكن العمل صعبًا كما أنها لم تتذمر من عملي إلا في الخياطة. لم تهددني كما لم تحاول جلدي. قال روفوس إنها سعيدة معي. حتى أنه تفاجئ بذلك. لذا تحملتها بصمت. الآن، بتُّ قادرة على معرفة الوضع الجيد عن السيئ. أو هكذا ظننت.

«راجعي نفسك» خاطبتني آليس في يوم وأنا أختبئ في كوخها. الكوخ الذي بناه نايجل بأمر روفوس قبل ولادتها الأولى.

«ماذا تقصدين؟» سألتها.

«يبدو أن السيد روف بث الرعب فيك، أليس كذلك؟».

«الرعب... ماذا تقصدين؟».

«تدورين في المكان، تأخذين وترفعين من أجل تلك المرأة وكأنك تحبينها. لم يتطلب الأمر معك أكثر من نصف يوم في الحقل».

«آليس، اللعنة، اتركيني وحالي. قضيت صباحي كله أستمع إلى الهراء. لا أحتاج المزيد منك».

«إن لم ترغبي بسماع كلامي فاخرجي من هنا. طريقة تملقك لتلك المرأة تثير الغثيان».

قمت وذهبت إلى المطبخ. أحيانًا لا يمكن توقع أن تكون آليس منطقية، أو تقديم شروحات لها.

كان هناك اثنان من عاملي الحقل في المطبخ. شاب بساق مكسورة مُجبَّرة، واضح أنها تتعافى على عوج، وآخر مسن لم يعد يعمل كثيرًا. سمعتهما قبل الدخول.

«أعلم أن السيد روف سيتخلص مني إن أمكن» قال الشاب «لم تعد لي فائدة. لو كان والده حيًّا لتخلص مني».

«لا أحد سيشتريني» قال العجوز «انتهت صلاحيتي من زمان. الخوف عليكم أنتم الشباب».

دخلت إلى المطبخ والشاب الذي كان على وشك فتح فمه بجملة أغلقه فور رؤيتي، ينظر إليَّ بشزر واضح. أما العجوز فأعطاني ظهره. سبق وأن رأيت العبيد يعاملون آليس بهذا الشكل. فجأة، لم يعد المطبخ مكاني المريح كما بات الحال مع كوخ آليس. لربما يختلف الوضع لو وجدت سارة أو كاري هنا، لكنهما ليسا هنا. خرجت من المطبخ وذهبت إلى البيت الرئيسي بمشاعر الوحدة.

بمجرد أن دخلت رحت أتساءل لِمَ خرجت مهزومة هكذا؟ لِمَ لمْ أجادلهم؟ أعلم أن آليس تبالغ وهي تعرف ذلك. ولكن عمال الحقل... لا يعرفوني، لا يعرفون مدى ولائي لروفوس أو مارغريت، لا يعرفون أني لا أتلصص عليهم.

وإن أخبرتهم، فكيف لهم تصديقي؟

ولكن حتى لو...

مشيت إلى الممر أتجه إلى السلالم ببطء، أفكر لمَ لمْ أحاول الدفاع عن نفسي، على الأقل أحاول. هل اعتدت الاستسلام؟

في الطابق الأعلى، سمعت مارغريت وايلن تتحرك بعصاها على الأرض. لم تستخدم العصا كثيرًا في المشي لأنها نادرًا ما تحاول المشي. عادة تستخدمها لمناداتي.

استدرت لأخرج من البيت ثانية، نحو الأشجار. أحتاج وقتًا للتفكير. لم أعد أحصل على أي وقت وحدي. مرة، قبل فترة طويلة، كنت أخشى أني أقف على مسافة بعيدة عن هذا الزمن الغريب. الآن، اختفت هذه المسافة تمامًا. متى اختفت؟ كيف اختفت؟

لمحت ناسًا يسيرون نحوي عبر الغابة. عدة أشخاص. كانوا على الطريق، وكنت على مسافة خطوات منهم. تقرفصت بين الأشجار أنتظر أن يمروا. لم أُرِد الإجابة على الأسئلة الغبية المتوقعة لرجل أبيض ما «ماذا تفعلين هنا؟ من يكون سيدك؟».

بإمكاني الإجابة بلا مشاكل، فلم أكن على مقربة من حدود عزبة وايلن. ولكن فقط للحظة أردت أن أكون سيدة نفسي. قبل أن أنسى شعورًا كهذا.

مر بي رجل أبيض على حصان يقود مجموعة من الرجال السود، كل اثنين منهما مقيدان بعضهما إلى بعض. بالسلاسل. الأصفاد على أيديهم، وحول رقابهم، مربوطة جميعها إلى سلسلة رئيسية بين صفين

من الرجال. من خلفهم، نساء مربوطات بحبل من عنق إلى عنق. قافلة، عبيد للبيع.

في نهاية الموكب، يمشي رجل أبيض آخر بمسدس في حزامه. كانوا متجهين إلى بيت وايلن.

انتبهت فجأة إلى أن ما قاله العبدان في المطبخ عن احتمال بيعهما لم تكن مجرد توقعات. كانا يعرفان أن هناك عملية بيع قريبة. بالرغم من أنهم من عمال الحقل ولم يدخلا البيت أبدًا، فإنهم عرفوا بذلك قبلي. لم أسمع بالخبر.

مؤخراً، قضى روفوس كل وقته يتكفل بشؤون أبيه أو نائمًا. ترك المرض بعض الوهن فيه حتى الآن ولم يعد لديه الوقت ليضيعه معي. بالكاد عنده الوقت لرؤية أمه. لكن عنده الوقت لبيع العبيد. عنده وقت ليصبح نسخة من أبيه.

انتظرت حتى وصلت القافلة إلى البيت قبلي. حين وصلت، كانوا قد أضافوا ثلاثة عبيد إلى الصف. رجلين، أحدهم متجهم، آخر يبكي، وامرأة بدت وكأنها تسير نائمة. وكلما اقتربت، بدت المرأة مألوفة. توقفت، كأني وددت لو لم أتذكرها. امرأة طويلة قوية البنية جميلة.

تاس.

لم أرها أكثر من مرتين أو ثلاث في رحلتي هذه. فقد كانت تعمل في الحقل، ثم تقضي الليل مع المراقب. لم يكن عندها أطفال،

وقد يكون ذلك سبب بيعها. أو أن الصفقة من تدبير مارغريت وايلن. قد تصبح انتقامية إن عرفت عن فترة تاس مع زوجها.

سرت نحو تاس فلمحني الرجل الأبيض الذي ربط حبلًا حول عنقها ملحقاً إياها بالصف. استدار نحوي موجهًا بندقيته.

توقفت مرعوبة وحائرة... لم أقم بشيء يهدده «أريد فقط توديع صديقتي» أخبرته، لسبب ما كنت أهمس.

«ودعيها من مكانك هناك. بإمكانها سماعك».

«تاس؟».

وقفت مطأطئة رأسها، حانية أكتافها، تتدلى من يدها صرة حمراء صغيرة. أظنها سمعتني لكني لم أفهم ذلك.

«تاس، أنا دانة».

لم تلتفت.

«دانة!» جاء صوت روفوس عن قرب حيث وقف يحدث الرجل الأبيض الآخر. «اغربي من هنا. ادخلي».

«تاس؟» ناديت ثانية، أنتظر جوابها. تعرف صوتي بالتأكيد. لمَ لا تنظر إليَّ؟ لمَ لا تنطق؟ لمَ حتى لا تتحرك؟ وكأن لا وجود لي، وكأني خيال.

اقتربت منها. أردت لو أذهب إليها، أنزع الحبل عن عنقها، أو أموت خلال المحاولة. لكن لحظتها، جاءني روفوس. أمسك بي، جرني إلى البيت، ثم إلى المكتبة.

«ابقي هنا!» أمرني «فقط ابقي...» توقف، فجأة تعثر بي، يمسك بي الآن، لا لتثبيتي بل كي يثبت نفسه. «اللعنة!».

«كيف تفعل ذلك!» هسست بينما يستقيم «تاس... والآخرون ...».

«أملاكي!».

حدقت إليه في ذهول «يا إلهي...!».

غطّى وجهه بيده ثم استدار. «اسمعي، هذه البيعة قررها أبي قبل وفاته. لا يمكنني فعل شيء الآن، لذا ابقي هنا!».

«أو ماذا؟ تبيعني؟ ما الذي يمنعك!».

خرج ثانية دون أن يجيبني. بعد لحظات، جلست على الكرسي المهترئ لتوم وايلن، رأسي تتكئ على طاولة مكتبه.

٨

أخذت كاري مكاني عند مارغريت وايلن. أرادت تنبيهي إلى ذلك حين صادفتني في طريقي إلى الطابق العلوي. الحقيقة أني لا أعلم ما الذي أخذني إلى السلالم، أردت تفادي روفوس لفترة ولم يكن أمامي مكان آخر.

استوقفتني كاري على السلالم، ألقت عليَّ نظرة فاحصة، ثم أخذتني بكتفي من حيث أتيت وإلى كوخها. لم أعرف أو حتى أكترث

لما يدور في بالها، لكني فهمت من إيماءاتها أنها أخبرت مارغريت وايلن بأني مريضة. ثم أومأت بحركة من السبابتين والإبهامين حول عنقها ناظرة إليَّ.

«رأيت» قلت. «تاس واثنان غيرها» سحبت نفسًا قصيرًا «ظننت أن ذلك لن يحدث ثانية في هذه العزبة. ظننت أن الوضع تغير بموت توم وايلن».

هزت كاري كتفيها.

«كم أتمنى لو تركت روفوس في الوحل» قلت «أنقذه ليرتكب اليوم هكذا...!».

أمسكت كاري برسغي وهي تهز رأسها بقوة.

«ماذا تقصدين؟ لا رجاء منه. قد كبر الآن وصار جزءًا من المنظومة. كان يتعاطف معنا قليلًا وقت كان والده المسؤول، حينها لم يكن مستقلًّا تمامًا. ولكن الآن وقد أصبح المسؤول. يبدو أنه أراد إثبات ذلك لنا على الفور».

وضعت كاري يديها حول عنقها مرة أخرى. ثم اقتربت مني ووضعت يديها حول عنقي. اتجهت إلى سرير أصغر أطفالها الذي بات صغيرًا عليه وهناك، بحركة رمزية، عاودت وضع يديها بنفس الطريقة، تشكل دائرة مفتوحة حول عنق صغيرة.

استقامت تنظر إليَّ.

«الكل؟» سألتها.

هزت رأسها وأومأت بذراعين مفتوحتين وكأنها تشمل مجموعة من حولها. ثم ثانية بيديها حول عنقها.

هززت رأسي. هي محقة على الأغلب. فلا يمكن لمارغريت وايلن أن تدير العزبة. ستبيع الأرض والناس. وإن كان توم وايلن هو القدوة، فإن الناس سيُباعون دون اعتبار لروابطهم الأسرية.

وقفت كاري قرب سرير طفلها وكأنها تقرأ أفكاري.

«ظننت أني خائنة» قلت «شعرت بالذنب لأني أنقذته. الآن... لا أعلم كيف أشعر. بشكل ما ينتهي بي الأمر دائمًا إلى مسامحته على ما يفعله. لا يمكنني كرهه كما يستحق إلا عند رؤيته يفعل ما يفعله بالناس». هززت رأسي «أعتقد أني صرت أفهم لمَ يظن البعض هنا أني بيضاء أكثر مني سوداء».

أومأت كاري بحركة سريعة إلى الجانب، يبدو من وجهها الانزعاج. اقتربت مني ومسحت على جانب واحد من وجهي بأصابعها، مسحت بقوة. تراجعت فبقيت أصابعها أمامي، تريني إياها من الجانبين. لكني لم أفهمها هذه المرة.

محبطة، أخذتني بيدي وذهبت بي إلى نايجل حيث يقطع الحطب. هناك، أمامه، أعادت حركة مسح الوجه فأجابها بهز رأسه.

«تقصد أن لا شيء سيمحوه يا دانة» قال سريعًا. «لونك الأسود. تقصد أن كلام الناس لن يغير من تكونين».

عانقتها ثم هربت سريعًا منها حتى لا تلاحظ أني أوشك

على البكاء. ذهبت إلى مارغريت وايلن وكانت قد أخذت جرعة اللودانيوم. في مثل هذه اللحظات يكون التواجد معها كالجلوس وحدي. والجلوس وحدي كل ما أحتاج الآن.

٩

تفاديت روفوس لثلاثة أيام بعد صفقة البيع. ولم يُصعب ذلك عليَّ. تفاداني هو أيضًا. وفي اليوم الرابع جاء يبحث عني. وجدني في غرفة أمه أطيع أوامرها وأغير فراشها بينما تجلس واهنة وضعيفة بجانب النافذة. بالكاد أكلت. بل إني وجدت نفسي أقنعها بأن تأكل. استوعبت أنها تستمتع بمحاولاتي. تنسى أحيانًا أنها السيد فتصبح أمًّا عجوزًا لأحدهم. أم روفوس. للأسف.

دخل وقال «دعي كاري تنهي العمل يا دانة. عندي شيء آخر لك».

«هل يلزم أن تأخذها الآن؟» قالت مارغريت. «كانت على وشك...».

«سأرسلها إليك لاحقًا يا ماما. وستأتيك كاري سريعًا لتتكفل بترتيب السرير».

خرجت صامتة من الغرفة، لا أتطلع إلى معرفة ما يدور في باله.

«إلى المكتبة» قال من خلفي.

التفتُّ بنظرة خاطفة إليه، أحاول تعرف مزاجه، ولكنه لم يبدُ

سوى متعب. يأكل جيدًا ويأخذ من الراحة قسطًا أكبر من السابق، لكن وجهه يظل متعبًا.

«انتظري دقيقة» قال.

توقفت.

«هل جلبت بعضًا من تلك الأقلام بالحبر داخلها؟».

«نعم».

«أحضريها».

صعدت إلى العِلية حيث أترك أغلب حاجياتي. جلبت ثلاثة أقلام معي هذه المرة، لكني أخذت واحدة منها فقط في حال أراد الإسراف في الحبر كالمرة السابقة.

«هل سمعت من قبل عن حمى الضنك؟» سألني ونحن ننزل السلالم.

«لا».

«حسب طبيب البلدة فإن ذلك ما أصابني. شرحت له ما حل بي». منذ وفاة والده، كثرت زياراته إلى البلدة. «يقول الطبيب إنه لا يفهم كيف نجوت من دون سحب الدم ومسيل للقيء. ويقول إني ما زلت ضعيفًا لأن السموم لم تخرج تمامًا من جسدي».

«سلم نفسك لرعايته» قلت سريعًا «ومع بعض الحظ، سيحل ذلك مشكلتك ومشكلتي».

تجهم وجهه لم يفهمني «ما قصدك؟».

«ولا شيء».

استدار يمسكني بالكتفين بقبضتين أراد لهما أن تكونا مؤلمتين، لكنهما لم تكنا. «تقصدين أنك تريدين لي أن أموت؟».

تنهدت. «لو هذا ما أردت لكنت ميتًا، أليس كذلك؟».

صمت. رفع يديه عني ودخلنا إلى المكتبة. جلس على كرسي والده المهترئ وأشار إليَّ لأجلس على كرسي خشبي قربه. خطوة أعلى عن والده الذي كان دائمًا يتركني واقفة أمامه مثل طفل أرسلوه إلى غرفة الناظر.

«إن كنت تظنين أن عملية البيع الصغيرة تلك أمر سيئ -وهي حقًا كانت من تخطيط والدي- فإن عليك الاعتناء بي جيدًا» رجع روفوس بظهره ينظر إليَّ متعبًا «هل تعرفين ما مصير كل الموجودين هنا إن مت؟».

هززت رأسي. «يزعجني» قلت «مصير هؤلاء إن بقيت حيًا».

«تظنين أني قد أفعل شيئًا؟».

«بالتأكيد ستفعل. وسأضطر إلى أن أشاهد وأتذكر وأقرر متى تجاوزت الحدود. صدقني لا أتطلع إلى مهمة كهذه».

«تحمِّلين نفسك الكثير».

«لم أكن السبب في كل ما جرى».

تمتم بشيء غير مفهوم، على الأرجح شتيمة ما. «كنت ستجدين نفسك في الحقل» أضاف «الله أعلم لم لم أتركك هناك. لكنت تعلمت شيئًا أو اثنين».

«كنت سأُقتل. وكنتَ ستضطر إلى العناية بنفسك جيدًا» هززت كتفي «لا أظن أنك قادر على ذلك».

«اللعنة يا دانة... ما فائدة جلوسنا هنا نتبادل التهديدات؟ لا أظن أنكِ تريدين إيذائي كما لا أريد لك ذلك».

لم أرد.

«جئت بك إلى هنا لتكتبي بعض الخطابات لا لنتجادل».

«خطابات؟».

هز رأسه. «بصراحة أكره الكتابة. لا أمانع القراءة لكني أكره الكتابة».

«لم تكن تكرهها قبل ٦ سنوات».

«لم أضطر إلى الكتابة وقتها. لم يكن لديَّ ثمانية أو تسعة أشخاص ينتظرون خطابات مني، وعلى الفور».

لويت القلم في يدي. «لو تعرف كم عملت جاهدة في زمني حتى أتفادى وظائف من هذا النوع».

ابتسم فجأة «أعلم. أخبرني كيفن. وعن الكتب التي كتبتها. كتب من تأليفك».

«الكتابة كانت مصدر دخلنا أنا وكيفن».

«نعم. طيب فكرت أنك ربما اشتقت. إلى الكتابة أقصد. لديَّ من الورق ما يكفينا نحن الاثنين».

نظرت إليه متحيرة لِما سمعت. كنت قد قرأت أن الورق في هذا الزمن باهظ، كما رأيت أن وايلن لم يتوفر لديه الكثير منه. وها هو روفوس يعرض... يعرض ماذا؟ رشوة؟ اعتذارًا آخر؟

«ما المشكلة؟» قال روفوس «أعتقد أنه أفضل عرض قدمته إليك حتى الآن».

«لا شك».

جلب الورق وفرَّغ مساحة لي على طاولة المكتب.

«روف، هل ستبيع أحدًا آخر؟».

تردد. «أأمل ألا أفعل. لا أحبذ ذلك».

«لمَ تأمل؟ لمَ لا يمكنك أن تقول لا؟».

تردد ثانية. «ترك بابا ديونًا لأسددها يا دانة. كان أكثر الناس حرصًا على المال، لكنه ترك ديونًا».

«ألا يكفي المحصول لدفعها؟».

«بعضها».

«أوه! ماذا ستفعل؟».

«أطلب من امرأة تسترزق بالكتابة أن تكتب لي خطابات مقنعة جدًّا».

١٠

كتبت الخطابات. اضطررت إلى قراءة بعض المراسلات التي وصلته حتى أتعرف على نوع اللغة الرسمية المتكلفة لهذا الزمن. لم أرد لروفوس أن يتورط مع دائن أغضبتُه بلغة القرن العشرين الموجزة خاصتي، والتي قد تبدو كلغة مقتضبة أو حتى فظة في القرن التاسع عشر. أعطاني روفوس فكرة عامة عمَّا أراد لي كتابته، ثم يقرر المقبول وغير المقبول من صياغتي. غالبًا مقبول. ثم رحنا نراجع حسابات والده معًا. ومن حينها لم أرجع إلى مارغريت وايلن.

كما لن أعود إلى العمل لها مرة أخرى. فقد جاء روفوس بفتاة اسمها بيث من الحقل لتساعد في الأمور المنزلية. صار عند كاري المزيد من الوقت لتقضيه مع مارغريت. ظللت أنام في غرفة مارغريت لأني اتفقت مع روفوس أن مكان كاري مع عائلتها، على الأقل ليلًا. وذلك يعني أني مضطرة إلى تحمل مارغريت حين توقظني في الليل لأن النوم يجفوها، أو تتشاكى بأن روفوس أخذني منها بعدما تأقلمنا على بعض.

«ما الذي يطلب منك فعله؟» تسألني مرارًا بتوجس.

أخبرتها.

«بإمكانه فعل ذلك بنفسه. لطالما أنجز توم هذه المهام بنفسه».

بإمكان روفوس إنجازها وحده، أتفق معها، لكني لم أخبرها بذلك. كل ما في الأمر أنه لا يحب العمل وحيدًا. بل إنه لا يحب

العمل بتاتًا. وإن اضطر إلى ذلك يفضل أن يشاركه أحدهم العمل. لم أدرك أنه يفضل صحبتي أنا على الأخص حتى جاء ليلة سكراناً إلى كوخ آليس ليجدني وآليس نأكل. كان خارج البيت يتشارك العشاء مع عائلة ما في البلدة «ناس عندهم بنات يريدون التخلص منهن» أخبرتني آليس. أطلقت جملتها دون أي اهتمام بالرغم من أنها تعلم كم ستصبح حياتها أصعب بكثير لو تزوج روفوس. يملك روفوس أراضٍ وعبيدًا وعلى ما يبدو أنه لائق جدًّا للزواج.

عاد إلى البيت ولم يجدنا هناك فتوجه إلى كوخ آليس. فتح الباب ليجدنا ننظر إليه من الطاولة، فابتسم سعيدًا.

«ها هي المرأة» قال. وراح ينظر من الواحدة إلى الأخرى. «إنكما بالفعل امرأة واحدة. أتعلمان ذلك؟».

ثم خرج يترنح.

تبادلت وآليس النظرات. ظننت أنها ستضحك فهي تنتهز أي فرصة للضحك عليه، لكن ليس في حضوره لأنه قد يضربها متى ما قرر أنها بحاجة إلى ذلك.

لم تضحك. ارتجفت ثم نهضت بلا حذر -فقد بدأ حملها بالظهور- وأطلت من الباب من خلفه.

بعد لحظات، سألتني «هل أخذك إلى السرير يا دانة؟».

قفزت في مكاني. صدمتني بصراحتها. «لا، لا أرغب به ولا يرغب بي».

نظرت إليَّ من على كتفها «ولمَ تظنين أن لرغبتك علاقة بالأمر؟».

لم أجبها لأني أحبها. كما أني لا أملك ردًّا أقدمه دون أن يبدو كانتقاد لها.

«تعلمين» قالت «أنت تحننينه عليَّ. بوجودك معنا بالكاد يضربني. كما أنه لا يضربك».

«يأمر آخرين بضربي».

«ولكن حتى... أفهم قصده. يفضلني في السرير ويفضلك خارج السرير، ونحن نتشابه لو صدقنا بكلام الآخرين».

«نتشابه لو نصدق عيوننا».

«أعتقد ذلك. على أي حال، المعنى أننا نصفان لامرأة واحدة، على الأقل في عقله المجنون».

١١

مر الوقت بطيئًا، مرَّ بشكل ما، وأنا أترقب ولادة الطفل الذي أتمنى أن يكون هاجر. استمررت في مساعدة روفوس وأمه. احتفظت بدفتر يوميات على مقربة مني. («ما هذه الخربشات التي مثل حوافر دجاجة؟» سألني روفوس يومًا ما مادًّا رأسه فوق كتفي). يا لها من راحة أن أعبر عن مشاعري، حتى لو كتابة، دون خشية عواقب ذلك على نفسي أو غيري. وأخيرًا وجدت فائدة لفصول السكرتارية.

جرحت يديَّ البطيئتين المتخبطتين عند محاولتي تقشير الذرة، بينما أنجزت أيادي الحقل المتمرسة العمل سريعًا مستمتعين ودون تعب. لم أضطر إلى الانضمام إليهم لكنني رأيت أنهم قد جعلوا من تقشير الذرة احتفالًا، وقد أعطاهم روفوس بعض الويسكي لتسهيل المهمة. كنت بحاجة إلى الاحتفال، أو عمل أي شيء يخلصني من الملل، أهرب من نفسي قليلًا.

ويا لها من حفلة. حفلة من النوع الصاخب لم يحاول أحد فيها إخفاء شيء في حضور امرأتي السيد، أنا وآليس. ضحك المحيطون بي على جروحي وقالوا إنها من طقوس الانتساب. مرروا جرة تذوقت ما فيها فغصصت ثم انطلقت ضحكاتي. ضحكات أنيسة مفاجئة. قال رجل بعضلات ضخمة كم من المؤسف أني مأخوذة لرجل آخر مما جلب من حولي نظرات ناقمة من نساء ثلاث. بعد العمل، حُضرت كميات كبيرة من الأكل: الدجاج ولحم الخنزير والخضراوات وخبز الذرة والفواكه. طعام أفضل من وجبات الذرة والرنكة التي يعتادها عمال الحقل. ظهر روفوس يلعب دور البطل بتوفيره هذه الوجبة الوفيرة وأجابه الناس بالمديح الذي أراده. ثم أطلقوا نكات قذرة عنه بعدما تركنا. غريب كيف أنهم يستلطفونه ويكرهونه ويخافونه في نفس الوقت. شعرت بالحيرة حيال ذلك لأني أشاركهم مزيج المشاعر هذا. كنت أظن أن مشاعري معقدة بسبب طبيعة علاقتنا الغريبة. ولكن في نهاية الأمر، العبودية بشتى أنواعها خلقت علاقات غريبة. المراقب وحده يبث مشاعر واضحة من الكراهية والخوف كلما ظهر.

ولكنها مهمة المراقب، أن يكون محلًّا للكراهية والخوف لتظل يدا السيد نظيفتين.

بدأ الشباب ينسحبون في أزواج بينما توقف الأكبر سنًّا منهم عن الأكل والشرب والغناء والثرثرة التي تجلب لهم نظرات الانتقاد أو التفهم. فكرت في كيفن وكيف أني أفتقده فأدركت أني لن أنام بسهولة الليلة.

وفي عيد الميلاد المجيد، قامت حفلة أخرى من الرقص والغناء وثلاث زيجات.

«كان بابا يجعلهم ينتظرون حتى موسم التقشير أو عيد الميلاد ليتزوجوا» أخبرني روفوس «يحبون الاحتفال بالزواج فكان يسمح بالقليل من الحفلات».

«في سبيل توفير بعض القروش» قلت بلا حذر.

نظر إليَّ. «مفروض أن تسعدي بذلك بما أنك تنزعجين حين نضطر إلى تدبير بعض المال».

أدركت ما أفلت من لساني فالتزمت الصمت. لم يبع أحدًا من وقتها. الحصاد جيد والدائنون متفهمون.

«هل وجدت أحدًا لتقفزي فوق المكنسة معه؟» سألني.

نظرت إليه مصدومة فرأيت أنه كان يمازحني. يبتسم لمشاهدة العبيد ينحنون للتحية قبل رقصة ثنائية على أنغام آلة البانجو.

«ماذا كنت ستفعل لو أني وجدت أحدًا أتزوجه؟» سألت.

«أبيعه» قال. ظلت ابتسامته في محلها، لكنها خلت من المزاح الآن. انتبهت إلى أنه يراقب الرجل الضخم الذي حاول دفعي إلى الرقص معه، نفس الرجل الذي خاطبني خلال تقشير الذرة. يجب أن أطلب من سارة تحذيره من الحديث معي ثانية. كانت نواياه حسنة لكن ذلك لن ينقذه إن غضب روفوس.

«زوج واحد يكفيني» قلت.

«كيفن؟».



«بالطبع كيفن».

«بعيد جدًّا».

شعرت بشيء غريب في نبرة صوته. استدرت لمواجهته. «لا تكن أحمق».

قفز ينظر من حوله بسرعة يتأكد لو سمعني أحدهم.

«انتبهي إلى كلامك» قال.

«انتبه أنت».

ابتعد عني غاضبًا. قضينا الكثير من الوقت معًا في الآونة الأخيرة خاصة مع تقدم حمل آليس. ممتنة لآليس لأنها بذلك خلقت لي وظيفة أخرى، وظيفة تأخذني بعيدًا عنه. في وقت ما خلال أسبوع عيد الميلاد، أقنعته آليس أن يسمح لي بتعليم ابنهم جو القراءة.

«هدية الأعياد» قالت «سألني ماذا أريد للعيد فأخبرته أني أريد

ألا يكون ابني جاهلًا. تعلمين، تجادلت معه طوال الأسبوع حتى نطق بـ نعم».

ولكنه نطقها أخيرًا وداوم الولد على المجيء عندي كل يوم يرسم حروفًا كبيرة واهية على اللوح الذي اشتراه له روفوس، ويقرأ كلمات بسيطة ومسجَّعة من نفس الكتب التي درسها روفوس. ولكن بخلاف روفوس، لم يتململ جو من التعليم. كان مندفعًا نحو الدروس وكأنها ألغاز مسلية، ألغاز يستمتع بفكها. وقد يصل إلى حالة من التوتر فينخرط في نوبات من الرفس والصراخ حين يستصعب عليه أمر ما. لكن الكثير لم يستصعب عليه.

«لديك هنا ولد نابه جدًّا» قلت لروفوس «لا بد أن تفخر به».

بدت على روفوس المفاجأة، كأنه لم يتخيل من قبل أن هذا الطفل الضئيل بأنفه السائل قد يكون مميزًا. قضى حياته يشاهد والده يتجاهل -بل حتى يبيع- أطفاله الذين حبلت بهم نساء سوداوات. ويبدو أن روفوس لم يخطر له كسر ذاك التقليد. حتى الآن.

الآن، بات يهتم يابنه. لربما دفعه الفضول في البداية، لكن الولد جذب انتباهه. وجدتهما معًا مرة في المكتبة، يجلس الولد على ركبة روفوس يدرسان خريطة كان قد اشتراها للتو. تمددت الخريطة على طاولة مكتب روفوس.

«هل هذا نهرنا؟» سأل الولد.

«لا هذا نهر المايلز، جهة شمال شرق. لا تُظهر هذه الخريطة نَهرَنا».

«لم لا؟».

«بسبب الحجم الصغير».

«ما الصغير؟» نظر الولد إليه «نهرنا أم الخريطة؟».

«الاثنان أعتقد».

«تعالَ نرسمه عليها. أين نرسمه؟».

تردد روفوس «حوالي هذا المكان. ولكننا لا نحتاج إلى رسمه».

«لماذا؟ لا تريد خريطة صحيحة؟».

افتعلت ضجة ما فالتفت روفوس إليَّ. شعرت به محرجًا للحظة. أنزل الولد عنه ودفعه إلى الخروج.

«يُكثر من الأسئلة» اشتكى روفوس.

«استمتع بها يا روف. على الأقل لم يشعل حريقًا أو يعرِّض نفسه للغرق».

لم يخفِ ضحكته. «آليس قالت نفس الكلام» ثم تجهم قليلًا «طلبت مني عتق رقبته».

هززت رأسي. كانت آليس قد أخبرتني أنها ستطلب منه حرية الولد.

«أظن أنك حرضتها».

حدقت إليه «روف، لو أن هنالك امرأة في هذا المكان تأخذ قراراتها بنفسها فإنها آليس. لم أحرضها على شيء».

«طيب... الآن سيكون عليها اتخاذ قرارًا آخر».

«ماذا؟».

«لا شيء. لا تهتمي. كل ما في الأمر أني أريد منها أن تعمل جاهدة قبل أن تحصل على ما تريده هذه المرة» قال.

لم أعرف كيف أدفعه إلى الحديث أكثر. ولكن في نهاية الأمر أخبرتني آليس عمَّا يريده.

«يريد مني أن أستلطفه» قالت بحقد ثقيل «أو حتى أحبه. أظن أنه يريدني أن أكون مثلك!».

«أؤكد لك أنه لا يريد ذلك».

أغمضت عينيها. «لا يهمني ما يريده. لو أن ذلك سيدفعه إلى عتق أطفالي، سأحاول تحقيقه. لكنه يكذب! كما أنه لا يريد أن يوثِّق وعده رسميًّا».

«يحب جو» قلت «ولم لا. جو بمثابة نسخة سمراء منه، حين كان في عمره. على أي حال قد يقرر من نفسه أن يعتق الولد».

«وهذا؟» قالت تشير إلى بطنها. «وغيرهم؟ سيحرص على أن أحبل مرة أخرى».

«لا أعلم. سأُلح عليه متى استطعت».

«كان عليَّ أن آأخذ جو وأهرب قبل أن أحبل».

«ما زلت تفكرين في الهرب؟».

«ألن تفكري في ذلك إن لم يكن أمامك سبيل آخر للحرية؟».

هززت رأسي.

«لا أريد أن أقضي حياتي هنا أشاهد أطفالي يكبرون عبيدًا ثم يُباعون».

«لن يبيعهم».

«لا تعرفين ما قد يفعله! فهو لا يعاملك بالطريقة التي يعاملني بها. حين أستعيد عافيتي بعد هذه الولادة سأرحل».

«بالرضيع؟».

«تظنين أني سأتركه هنا؟».

«ولكن... لا أعرف كيف ستنجحين».

«أعرف المزيد الآن عن المرة التي هربت فيها مع إسحاق. سأصل».

سحبت نفسًا عميقًا. «حين تأتي الفرصة سأساعدك إن استطعت».

«اجلبي لي قنينة من اللودانيوم» قالت.

«اللودانيوم!».

«سيساعدني على إسكات الطفل. العجوز لا تسمح لي بالاقتراب منها لكنها تستلطفك. اسرقيها».

«حسنًا» لم يعجبني الكلام. لا فكرة أخذها الطفل والرضيع، ولا فكرة هربها من الأصل. لكنها مُحقة. لو كنت مكانها لحاولت.

بل لَقُمت بالمحاولة عاجلًا فأقتل عاجلًا، لكني كنت سأحاول الهرب وحيدة.

«طيب فكري في الأمر أكثر» قلت «سأجلب القنينة وأي شيء آخر تحتاجينه لكن فكري».

«فكرت وانتهيت».

«لم تفكري كفاية. لا أود التلفظ بهذا ولكن فكري فيما سيحل بجو لو اصطادته الكلاب، أو بالطفل إن جرجروك».

١٢

كان المولود فتاة، وُلدت في الشهر الثاني من العام الجديد. كانت ابنة أمها، أكثر سمرة من جو.

«أخيرًا جاءني طفل يشبهني» قالت آليس عند رؤية الطفل.

«كان بإمكانك إضافة بعض الشعر الأحمر على الأقل» قال روفوس. كان حاضرًا، يتفحص الوجه الصغير المجعد للطفلة، ثم قلقًا ينظر إلى آليس، منهكة ومبللة بالعرق.

للمرة الأولى والوحيدة رأيتها تبتسم له ابتسامة حقيقية. بلا سخرية أو استهزاء. دفعته إلى الصمت لثوانٍ.

ساعدناها في الولادة أنا وكاري. والآن، خرجنا سريعًا، على الأرجح راودتنا نفس الفكرة. إن كانت آليس وروفوس على وشك التصالح أخيرًا، فلا تريد إحدانا إفساد مزاجيهما.

سمَّيا الفتاة هاجر. قال روفوس إنه أقبح اسم مر عليه ولكن إن كان من اختيار آليس فلن يمانع. شعرت أنه أجمل اسم سمعته على الاطلاق، وبأني على وشك أن أكون حرة، نصف حرة لو أمكنني قول ذلك، وكأني عبرت نصف الطريق إلى البيت. كنت سعيدة في البدء، متجلية سرًّا. حتى أني مازحت آليس عن أسماء أطفالها. جوزيف وهاجر. والآخران اللذان فكرت في اسميهما سرًّا، آرون ومريم. قلت «يومًا سيصبح روفوس متدينًا ويقرأ ما يكفي من الإنجيل فيتساءل عن أسماء هؤلاء الأطفال».

هزت آليس كتفيها «لو كانت هاجر صبيًّا لسمَّيتها إشمائيل. في الإنجيل، قد يكون الناس عبيدًا فترة لكنهم لا يستمرون على ذلك».

كنت في مزاج عالٍ، وكدت أضحك إلا أنها لن تفهم ضحكتي، كما لا يمكنني أن أشرح لها. احتفظت بالأمر في سري وهنَّأت نفسي على أن الإنجيل ليس بالمكان الوحيد الذي يتحرر فيه العبيد. قد تكون الأسماء بالنسبة إليها رمزية لكني أعرف عما هو أبعد من الرموز ليذكرني بأن الحرية ممكنة ومرجحة -وفي حالتي- قريبة.

أليس كذلك؟

ببطء بدأت أهدئ من نفسي. نعم، زال الخطر عن عائلتي. ها هي هاجر. ولكن الخطر الذي يواجهني شخصيًّا... هذا الخطر ما زال يمشي ويتحدث وأحيانًا يجالس آليس في كوخها في المساء بينما تُرضع هاجر. كنت معهما مرتين، وشعرت وكأني دخيلة.

لم أكن حرة. لست أكثر حرية من آليس أو أطفالها بأسمائهم. في الحقيقة، بدا الأمر وكأن آليس أقرب مني إلى الحرية. وجدتني وحدي ذات مساء فسحبتني إلى كوخها. كان خاليًا فيما عدا هاجر النائمة. جو في الخارج يجمع الخدوش والكدمات من أطفال أقوى منه.

«هل أخذت اللودانيوم؟» سألتني.

حدقت إليها عبر الظلام الخافت. كان روفوس قد وفَّر لها ما يكفي من الشموع ولكن لحظتها لم يكن هنالك ضوء في الغرفة فيما عدا الضوء القادم من النافذة ومن نار هادئة يعلوها إبريقان يغليان. «آليس، هل أنتِ متأكدة مما ستفعلين؟».

رأيتها تتجهم. «بالتأكيد! بلا شك! ماذا دهاك؟».

انكمشت قليلًا «مستعجلة... الطفلة وُلدت قبل أسابيع قليلة فقط».

«اجلبي لي ما أريد حتى أستطيع الهرب متى ما أردت».

«القنينة في حوزتي».

«أعطني إياها».

«اللعنة يا آليس، هلَّا تريثت قليلًا! اسمعي، لو ستستمرين معه على نفس المنوال فستحصلين على ما تريدين وتعيشين لتستمتعي بذلك».

تفاجأت بتعبير وجهها الجامد ينهار، صارت تبكي. «لن

يترك أيًا منا يرحل» قالت. «كلما أعطيته توقع مني المزيد». توقفت للحظة تمسح عينيها ثم أردفت بنعومة «عليَّ أن أهرب بها أن الفرصة سانحة، قبل أن أصبح في صورة ما يظنه الناس عني». ثم نظرت إليَّ ولعبت نفس اللعبة التي يهارسها روفوس، دون أن يعي بها أحدهما. «يجب أن أذهب قبل أن أصبح مثلك!» قالت بمرارة.

كانت سارة قد استوقفتني مرة لتقول «لمَ تسمحين لها بمخاطبتك بهذه الطريقة؟ لا أحد غيرك يسمح لها بذلك».

لا أعلم. أظنها مشاعر الذنب. رغم كل شيء، كانت حياتي أسهل من حياتها. لربما حاولت تعويض ذلك بتحمل سوء معاملتها لي. لكن لكل شيء حد.

«إن أردت المساعدة مني يا آليس فعليك الانتباه إلى لسانك».

«انتبهي أنت إلى لسانك» قالت مستهزئة.

حدقت إليها مذهولة أتذكر وأفكر فيما سمعته بالضبط.

«لو خاطبته على طريقتك، لجعلهم يعلقوني في الإسطبل». قالت.

«إن لم تغيري طريقة كلامك معي فلن أكترث لما قد يفعله بك».

نظرت إليَّ للحظات طويلة دون أن تنطق. أخيرًا ابتسمت. «ستكترثين. وستساعدينني. وإلا ستضطرين إلى رؤية نفسك على حقيقتها كنيجر أبيض، وهذا أمر لا تحتملينه».

روفوس لم يسبق له الاستهزاء بتهديداتي. ولكن آليس تقوم

بذلك تلقائيًّا، ولأنها على حق لم أعارضها. نهضت لأتركها، ومن خلفي سمعتها تضحك.

بعد أيام، أعطيتها اللودانيوم. وفي نفس اليوم، تكلم روفوس عن إرسال جو إلى مدرسة في الشمال حين يكبر قليلًا.

«هل تنوي عتق رقبة الولد يا روف؟».

هز رأسه.

«جيد، عليك بإخبار آليس».

«في الوقت المناسب».

لم أجادله، أخبرتها بنفسي.

«لا يهم ما يقوله» قالت لي «هل هناك أوراق تثبت كلامه؟».

«لا».

«قد أصدقه حين يأتي بالورقة وتقرئينها لي. صدقيني إنه يستخدم الأطفال معي كمن يضع لجامًا على حصان. لقد تعبت من حمل اللجام في فمي».

لم ألمها. ولكني لم أُرد لها الرحيل ولا المخاطرة بجو وهاجر. كما أني لا أريد لها المخاطرة بحياتها. في مكان آخر ربما، أو ظروف أخرى، لربما ما كنت سأستلطفها. ولكننا هنا أمام عدو مشترك يوحدنا.

١٣

قررت البقاء في عزبة وايلن حتى رحيل آليس، لأرى إن كانت ستتمكن من الحفاظ على حريتها هذه المرة. نجحت في إقناعها بالانتظار حتى بداية الصيف. وكنت مستعدة للانتظار معها طويلًا لولا أني جربت خدعة خطرة قد تعيدني إلى البيت. كنت مشتاقة إلى البيت وإلى كيفن، لم أعد أطيق النوم على أرضية مارغريت وايلن ولم أعد أتحمل لسان آليس، لكن بإمكاني الانتظار بضعة أشهر. أو هكذا فكرت.

أقنعت روفوس أن يسمح لي بتعليم ابن نايجل الأكبر وطفلين آخرين يخدمان على المائدة مع جو. فاجأني الأطفال بحبهم للدروس. لا أتذكر أن أحببت الذهاب إلى المدرسة في عمرهم. أعجب الحال روفوس فقد كان جو ذكيًّا كما قلت، ذكيًّا ويحب المنافسة. عنده أسبقية على الآخرين ولا ينوي التنازل عن ذلك.

«لمَ لم تحب الدراسة مثله؟» سألت روفوس.

«لا تزعجيني» تمتم.

سمع بعض الجيران عن ما أفعله فقاموا بتقديم نصيحة أبوية له. حذروه أن تعليم العبيد خطر. التعليم يجعل العبيد غير راضين بالعبودية. يفسدهم على عمل الحقل. وقال القسيس إن التعليم يدفع بهم إلى العصيان فيتوقعون أكثر مما كتب الرب لهم. وقال رجل آخر إن تعليم العبيد مخالف للقانون. وحين أجابه روفوس

بأنه راجع القوانين وأنه في الحقيقة ليس ممنوعًا في ميريلاند، قال الرجل إن من المفترض منعه. مجرد كلام. تجاهل روفوس التعليقات دون أن يبين إن كان يصدق أيًا منها. يكفيني أنه ساندني لتستمر مدرستي في العمل. كان عندي شعور أن آليس أبقته سعيدًا، ولربما أنها هي أيضًا باتت تستمتع بصحبته. فهمت من كلامها أنها تخشى حدوث ذلك، فتأخذني خارج العزبة وتصب جام غضبها عليَّ، محاولة التعامل مع مشاعر الذنب.

ولكنها كانت تنتظر محتفظة ببعض السرية. استرخيت أفكر للحظات في طريقة للعودة إلى بيتي. لم أرد الاعتماد على فرصة مواجهة خطر شخص ما ثانية، خطر إن حدث قد يفتك بي.

لكن سام جونز استوقفني خارج المطبخ وانتهت بذلك حالة الرضا.

رأيته ينتظرني بجانب باب المطبخ، شابًا ضخمًا. ظننت لوهلة أنه نايجل. ثم تعرفت عليه. كانت سارة قد أخبرتني باسمه. سبق له محادثتي يوم تقشير الذرة وثانية في عيد الميلاد. لكن سارة قد حذرته بالنيابة عني ولم يحدثني من لحظتها. حتى الآن.

«أنا سام» قال «تذكرين في عيد الميلاد؟».

«نعم. لكني ظننت أن سارة قد أخبرتك...».

«كلمتني. اسمعي، الأمر ليس كذلك. أردت سؤالك لو تعلِّمين أخي وأختي القراءة».

«إخوتك... في أي سن؟».

«أختي وُلدت العام الذي تواجدتِ فيه المرة السابقة... وأخي يسبقها بعام».

«يجب أن أحصل على إذن. تابع الأمر مع سارة لكن لا تحادثني ثانية». تذكرت تعبير وجه روفوس وهو يراقب هذا الرجل. «قد أكون حذرة زيادة، لكني لا أريد لك أن تتورط بسببي».

أعطاني نظرة فاحصة طويلة «تريدين ذاك الرجل الأبيض يا فتاة؟».

«لو كنت في مكان آخر لما كان لأي طفل أسود فرصة تعلم أي شيء».

«لا أقصد ذلك».

«بلى هو نفس الموضوع. كل شيء جزء من نفس الموضوع».

«يقول البعض...».

«لحظة» وجدتني غاضبة فجأة «لا أريد سماع أي شيء عن كلام الناس. هؤلاء الناس يسمحون لفاولر بقيادتهم إلى الحقل كل يوم ليعملوا كالبغال».

«يسمحون...؟».

«يسمحون له! يفعلون ما يفعلون كي يظل الجلد على لحمهم، كي يتنفسوا. وليسوا وحدهم من يضطر إلى فعل أي شيء للبقاء على قيد الحياة سالمين. لذا أخبرني لمَ لا يستطيع هؤلاء فهم ذلك؟».

تنهد. «هذا ما قلته لهم. ولكنك أفضل منهم، لذلك ينقمون عليك». ألقى عليَّ بنظرة أخرى من نظراته الفاحصة المطوَّلة. «ما زلت أقول إن من المؤسف أنك امرأة لرجل آخر».

ابتسمت. «هيا اذهب يا سام. قد يشعر آخرون بالغيرة كعمال الحقل».

ذهب. وانتهى الموضوع عند ذلك. موقف بريء، بريء كليًّا. ولكن بعد ثلاثة أيام، سار سام مقيدًا يقوده تاجر عبيد.

لم ينطق روفوس بكلمة لي. لم يتهمني بشيء. ما كنت سأعلم ببيع سام لولا أني كنت أنظر من خارج نافذة مارغريت وايلن لأرى القافلة. ألقيت بكذبة ما على مارغريت ورحت أركض خارج غرفتها على السلالم عبر الباب. ركضت نحو روفوس وشعرت به يثبتني ويمسك بي. الوهن الذي خلفه المرض فيه اختفى في النهاية. صارت قبضته شديدة.

«ادخلي إلى البيت!» هسَّ لي.

رأيت سام يقيد إلى الطابور. على بعد خطوات منه وقفت امرأتان وبنت وولد. إنها عائلته.

«روف» قلت راجية «لا تفعل ذلك. لا داعي لذلك!».

دفعني تجاه الباب ولم أعد قادرة على مقاومته.

«روف أرجوك! اسمع، كل ما في الأمر أنه طلب مني تعليم إخوته. هذا كل ما حدث!».

وكأني أخاطب حائط البيت. تمكنت من الإفلات منه للحظة قبل أن تلمحني إحدى المرأتين الباكيتين.

«يا قحبة!» صرخت. لم يكن مسموحًا لها بالاقتراب من القافلة فجاءت إليَّ. «يا حثالة يا نيجر يا عاهرة لماذا لم تتركي أخي في حاله؟!».

كانت على وشك مهاجمتي. وبما أنها تعمل في الحقل، وبكل القوة الناتجة من شقاء العمل، على الأرجح أنها كانت ستبرحني ضربًا كما أرادت. لكن روفوس وقف بيننا.

«عودي إلى العمل يا سالي!».

لم تتحرك، وقفت في مكانها تحملق إليه حتى جاءت المرأة الأكبر، على الأغلب أمها، تمسك بها وتسحبها.

أمسكت بذراع روفوس أحدثه بصوت منخفض «أرجوك يا روف. إن فعلت ذلك ستدمر ما كنت تريد تحقيقه. أرجوك لا».

لكمني.

لكمة أولى لم أكن أتوقعها، ترنحت إلى الوراء ووقعت.

محض غلطة. ضربة لاتفاق غير معلن بيننا –اتفاق مبدئي جدًّا– وهو يعي ذلك.

نهضت ببطء أشاهده بغضب وشعور بالغدر.

«ادخلي البيت وابقي هناك» قال.

استدرت وتوجهت إلى المطبخ، متقصدة التمرد على أوامره. سمعت أحد المتاجرين يقول «يجب أن تبيعها هي أيضًا. صانعة مشاكل!».

في المطبخ، قمت بتسخين الماء حتى صار دافئًا لا ساخنًا. ثم ملأت طاسة به وصعدت بها إلى العلية. كان المكان حارًّا وفارغًا إلا من القطع البالية وحقيبتي في الزاوية. ذهبت إليها آخذ المطواة وأمسحها بالمعقم ثم علقت حبل الحقيبة إلى كتفي.

وفي الماء الدافئ قطعت رسغيَّ.

الحَبْل

١

استيقظت في الظلمة. بقيت في مكاني للحظات أحاول تذكر أين أكون ومتى ذهبت إلى النوم.

وجدتني مستلقية على شيء لطيف بغاية النعومة والراحة...

سريري. البيت. كيفن؟

أسمع أحدًا يتنفس بجانبي. استقمت أمد يدي لأشعل الضوء، أو حاولت، فبمجرد أن استقمت داهمني شعور التعب والدوار. للحظة ظننت أن روفوس يجرني إليه قبل أن تتسنى لي فرصة رؤية البيت. ثم استوعبت أن رسغيَّ قد ضمدا ومازال النبض يسري فيهما، فتذكرت فعلتي. اشتعل المصباح على جانب كيفن فبات بإمكاني الآن رؤيته، بلا لحية، إلا أن شعره الأبيض لم يُقص بعد.

استلقيت أنظر إليه سعيدة «جميل» قلت «إلى حد ما تشبه بورتريه أسطوريًا رأيته لآندرو جاكسون».

«مستحيل» قال «كان رجلًا نحيلًا جدًّا. رأيته».

«لكنك لم ترَ البورتريه».

«بحق السماء لمَ قطعتِ رسغيك؟ ماذا لو نزفت حتى الموت؟ أم أنك تعمدت ذلك؟».

«نعم حتى أعود إلى البيت».

«لا بد أن تكون هناك طريقة أخرى».

حككت رسغي بحذر. «لا توجد طريقة آمنة لقتل متوقع. خفت من الحبوب المنومة. كنت قد جلبتها معي لأكون قادرة على الموت لو... لو أردت الموت. ولكني خفت إن استعملتها للعودة إلى البيت، أني قد أموت قبل أن تتسنى لك أو لطبيب معرفة ما فعلت. أو أتفادى الموت ثم أعاني من آثار جانبية مثل الغنغرينة».

«همم فهمت» قال بعد لحظات.

«هل أنت من ضمدني؟».

«أنا؟ لا، خفت أن يكون الأمر أكثر جدية من التصرف وحدي. حاولت إيقاف النزيف واتصلت بلو جورج. هو من قام بتضميدك». لويس جورج طبيب صديق التقاه كيفن من خلال الكتابة. كان كيفن قد أجرى مقابلة معه بهدف كتابة مقال، ثم أصبحا صديقين. انتهى الأمر بهما أن تشاركا في تأليف كتاب نثري غير روائي.

«قال إنك تفاديت قطع الشرايين الرئيسية في كلتا الذراعين» أخبرني كيفن «وأنها مجرد خدوش».

«رغم كل هذا الدم!».

«لم يكن غزيرًا. يبدو أنك كنت خائفة من خط قطوع عميقة».

تنهدت «طيب... جيد أني لم أتسبب في الكثير من الضرر. المهم أني عدت إلى البيت».

«ما رأيك لو تذهبين لرؤية اختصاصي نفسي؟».

«ألتقي بـ... هل تمزح؟».

«نعم أمزح، لكن لويس لم يمزح. يقول إن من يرتكب أمراً كهذا فإنه بحاجة إلى المساعدة».

«يا الله. هل سأضطر إلى ذلك؟ كم من الأكاذيب سأختلقها!».

«لا هذه المرة لن تضطري إلى ذلك. لويس صديق. ولكن إن فعلتها ثانية و... القصد أنهم قد يحبسونك في مصحة عقلية سواء بقرارك أو من دونه. القوانين تحاول حماية أناس مثلك من أنفسهم».

وجدتني أضحك وأوشك على البكاء. وضعت رأسي على كتفه أتساءل لو أن قضاء بعض الوقت في مصحة عقلية أسوأ من قضاء شهور في العبودية. أشك في ذلك.

«كم غبت هذه المرة؟».

«ما يقارب ثلاث ساعات. كم كانت عندك؟».

«ثمانية شهور».

«ثمانية...» أحاطني بذراعه يحضنني. «لا أستغرب قطعك رسغيك».

«وُلدت هاجر».

«بالفعل؟» مرت لحظات من الصمت ثم «وماذا سيعني ذلك؟».

تزحزحت في مكاني وبالخطأ ضغطت على أحد رسغيَّ. الوجع المفاجئ جعلني أشهق.

«حاذري» قال «كوني لطيفة مع نفسك على سبيل التغيير».

«أين حقيبتي؟».

«ها هي». سحب البطانية جانبًا ليريني أني ما زلت مربوطة إلى الحقيبة. «ماذا ستفعلين يا دانة؟».

«لا أعلم».

«كيف صار الولد الآن؟».

الولد. روفوس. صار جزءًا من حياتي بحيث لم يعد ذكره بالاسم ضروريًا. «مات أبوه» قلت. «صار المسؤول الآن».

«طيب؟».

«لا أعلم. هل هنالك مهارة في امتلاك وبيع العبيد؟».

«الوضع سيئ» استنتج كيفن. نهض يذهب إلى المطبخ ليعود بكوب ماء. «هل ترغبين بأكل شيء ما؟ بإمكاني تحضير طبقًا لك».

«لست جائعة».

«ماذا فعل بك، أخيرًا، بحيث يدفعك إلى قطع رسغيك؟».

«لم يفعل شيئًا بي، لا شيء يذكر. باع رجلًا فأبعده عن عائلته دون حاجة إلى ذلك. ضربني لَّما احتججت. قد لا يكون بقسوة أبيه لكنه ابن زمنه».

«حسنًا... معنى ذلك أن القرار أمامك مستقبلًا لن يكون صعبًا».

«بلى. تكلمت مع كاري مرة في الموضوع وقالت...».

«كاري؟» نظر إليَّ باستغراب.

«نعم. قالت... أوه. هي قادرة على إيصال المعنى يا كيفن. ألم تقضِ ما يكفي من الوقت هناك لمعرفة ذلك؟».

«لم تحاول إيصال الكثير إليَّ. كنت أتساءل إن كانت متخلفة عقليًّا».

«يا إلهي، لا! بل على العكس. لو تعرفت عليها، لما خطر لك ذلك».

هزَّ كتفيه. «طيب على أي حال، ماذا أخبرتك؟».

«قالت لو كنت قد تركت روفوس يموت لكان مصير الجميع البيع. لأصبح الشتات مصير المزيد من العائلات. صار عندها ثلاثة أطفال».

صمت للحظات. ثم «قد تُباع مع أطفالها لو كانوا صغارًا.

لكن أشك في أن يكترث أحدهم لإبقائها وزوجها معًا. يشتريها أحد ويجعلها تحبل من رجل آخر. عملية تكاثر لا أكثر».

«نعم. كما ترى القرار ليس سهلًا كما ظننت».

«ولكن... إنهم يُباعون على أي حال».

«ليس الجميع. يا ربي، كيفن، حياتهم صعبة كفاية».

«وماذا عن حياتك؟».

«أفضل من أي حياة قد يعيشها أي منهم».

«قد لا تظل بهذا الشكل كلما كبر».

عدَّلت من جلستي محاولة تجاهل ضعفي. «كيفن، أخبرني ماذا تريد مني أن أفعل؟».

نظر بعيدًا دون أن يجيب. انتظرته بضع ثوانٍ لكنه ظل صامتًا.

«هذا الواقع، أليس كذلك؟» قلت بهدوء «تناقشنا في ذلك من قبل -الله أعلم متى- ولكن وقتها كانت الأمور نظرية. والآن... كيفن، إن كنت تعجز عن قول ما تريد مني فعله، فكيف تتوقع مني أن أُقدِم عليه؟».

٢

قضينا خمسة عشر يومًا معًا هذه المرة. سجلت كلًّا منها في الرزنامة: من ١٩ يونيو حتى ٣ يوليو. بتعبير من الرمزية العكسية،

استدعاني روفوس في عيد الاستقلال ٤ يوليو. ولكن على الأقل تسنت لنا الفرصة أنا وكيفن أن نتأقلم على القرن العشرين. لم نحتج إلى التأقلم على بعضنا. لم يكن الفراق جيدًا لكنه لم يؤثر على علاقتنا كثيرًا. صار سهلًا أن نكون معًا، بعدما تشاركنا تجارب كهذه لم يسبق لأحد المرور بها. لكن التواجد مع غيرنا لم يكن بنفس السهولة.

زارتنا ابنة عمتي وحين فتح كيفن الباب لها لم تتعرف عليه.

«ما مشكلته؟» قالت هامسة لاحقًا حين انفردت بي.

«مريض» كذبت.

«بماذا؟».

«الطبيب غير متأكد بعد. لكنه أفضل بكثير الآن».

«ذكرني بوالد صديقتي الذي أصيب بالسرطان».

«جولي، ما هذا الفأل؟!».

«آسفة ولكن... لا تهتمي. هل حاول ضربك ثانية؟».

«لا».

«جيد. اعتني بنفسك. حتى أنت لا تبدين بحال جيدة».

حاول كيفن قيادة السيارة للمرة الأولى بعد خمس سنوات من حياة الأحصنة والعربات. يقول إن حركة المرور تلخبطه وتنرفزه بلا سبب. بل إنه كاد يقتل أحدهم. لذا وضع السيارة في الكراج وتركها هناك.

بالتأكيد لن أحاول قيادة سيارة بل لن أحاول حتى ركوب سيارة مادام احتمال اختطاف روفوس لي قائمًا. بعد مرور أسبوع، بدأ كيفن يشكك باحتمال استدعائي مرة أخرى.

لكني لم أشك. من أجل أولئك الذين تقع حياتهم بين يدي روفوس، لم أرِد له أن يموت، ولكني لن أطمئن حتى أتأكد من موته. حسب معرفتي بالأمور، عاجلًا أم آجلًا، سيورط نفسه ثانية ويستدعيني. لذا احتفظت بحقيبتي قريبة مني.

«تعلمين، يومًا ما، ستتوقفين عن جرجرة هذه الحقيبة معي في كل مكان لتعودي إلى حياتك» قال كيفن بعد مرور أسبوعين. كان قد حاول حالًا قيادة السيارة، وحين عاد، وجدت يديه ترتجفان. «بل إني أتساءل أحيانًا إن كنت ربما تتوقين للعودة إلى ميريلاند».

كنت أتفرج على التليفزيون، أو أن التليفزيون كان مشتعلًا. والحقيقة أني كنت أتفحص بعض الصفحات من يومياتي التي عدت بها في حقيبتي، أفكر لو بإمكاني نسج قصة منها. رفعت رأسي أنظر إلى كيفن: «أنا؟».

«لمَ لا؟ ثمانية شهور كثيرة بلا شك».

وضعت الصفحات جانبًا وقمت لأطفئ التليفزيون.

«اتركيه» قال كيفن.

أطفأته. «يبدو أن لديك ما تقوله لي» قلت. «لذا أريد أن أسمع كلامك بوضوح».

«لا تريدين سماع أي شيء».

«لا، لا أريد. لكني سأستمع، أليس كذلك؟».

«يا إلهي يا دانة، بعد أسبوعين...».

«المرة قبل السابقة قضيت ثمانية أيام. والمرة السابقة ما يقرب من الثلاث ساعات. الفترات الفاصلة بين الرحلات لا تعني شيئًا».

«كم كان عمره المرة الماضية؟».

«بلغ الخامسة والعشرين آخر مرة كنت فيها هناك. بينما بلغت أنا السابعة والعشرين بالرغم من أني لا أستطيع إثبات ذلك».

«صار بالغًا».

هززت كتفي.

«تذكرين ما قاله قبل أن يطلق النار عليك؟».

«لا، كنت أفكر في أمور أخرى».

«حتى أنا كدت أنسى لكني تذكرت. قال: لن أتركك ترحلين عني!».

فكرت للحظة. «صحيح... قال ذلك».

«لا أظنه صحيحًا».

«أقصد صحيح أن ذلك ما قاله. لكن لا سلطة لي على ما يقوله».

«ولكن حتى...» توقف للحظة ينظر إليَّ وكأنه يتوقع مني قول

كلمة ما. لكني لم أنطق. «تبدو كجملة قد أقولها أنا لك لو كنت سترحلين عني».

«فعلًا؟».

«تفهمين قصدي».

«قل ما تقصد. لن أجيبك حتى تخبرني بقصدك».

أخذ نفسًا عميقًا. «طيب. أنت قلت إنه ابن زمنه، كما قلت لي عما فعله بآليس. ماذا عن ما فعله بك؟».

«أرسلني إلى الحقل، جعلهم يضربوني، تركني أنام لشهور على أرضية غرفة أمه، تاجر بالناس... فعل الكثير، ولكن أسوأ ما فعله كان بحق الآخرين. لم يغتصبني يا كيفن. إنه يفهم، على عكسك، أن ذلك سيكون بمثابة انتحار».

«تقصدين أن هناك ما قد يرتكبه لدفعك إلى قتله؟».

تنهدت، اقتربت منه، جلست على ذراع كرسيه. نظرت إليه «أخبرني إن كنت لا تصدق ما أقوله».

نظر إليَّ مترددًا «اسمعي، لو حدث أي شيء سأتفهم. أعرف حال الأمور هناك».

«تقصد أنك ستسامحني لو كنت قد اغتصبت؟».

«دانة، أنا عشت هناك. أعرف كيف يتصرف هؤلاء الناس. وبحكم أسلوبه...».

«المعقول في أغلب الأحيان. يعرف أن بإمكاني قتله بمجرد تجاهله في اللحظة المناسبة. كما أنه يعرف أني لن أكون معه لأني أحبك. قال ذلك مرة. كان مخطئًا لكني لم أصحح له».

«مخطئ؟».

«إلى حد ما. بالطبع أحبك ولا أريد أحدًا غيرك. ولكن هناك سبب آخر، وحين أعود سيكون ذاك أهم الأسباب. لا أظن أن روفوس سيفهمني. وأنت كذلك قد لا تفهم».

«أخبريني».

فكرت للحظة أحاول إيجاد الكلمات المناسبة. لو تمكنت من جعله يفهم، فمؤكد أنه سيصدقني. لا بد أن يصدقني. فهو مرساتي هنا في هذا الزمن. والشخص الوحيد الذي يعرف بما يحدث لي.

«أتعرف فيما فكرت» قلت «حين رأيت تاس مقيدة إلى القافلة؟» كنت قد أخبرته عن تاس وعن سام، أني عرفتهما وأن روفوس قام ببيعهما. لكني لم أخبره بالتفاصيل، خاصة فيما يتعلق ببيع سام. طوال الأسبوعين حاولت منع مثل هذه الأفكار عن رأسه.

«ما دخل تاس...؟».

«فكرت وقتها أني قد أكون في مكانها، أقف والحبل حول عنقي يجرجروني مثل كلب!» توقفت أنظر إليه ثم أكملت «لست بملكية يا كيفن. لست بحصان ولا كيس قمح. لو اضطررت إلى التظاهر بأني ملكية، أو تقبل حدود لحريتي من أجل روفوس، فسيكون

عليه هو أيضًا تقبل مثل هذه الحدود في تعامله معي. عليه أن يتركني أسيطر كفاية على حياتي بحيث تكون الحياة بالنسبة إليَّ أفضل من القتل والموت».

«لو فكر أسلافك السود هكذا لَمَا كنت اليوم هنا» قال كيفن.

«ألم أخبرك منذ البداية أني لا أملك ما يملكونه من الجَلَد. ولا زال الأمر كذلك. سيتحمل البعض منهم كل شيء من أجل النجاة. لكني لست مثلهم».

ابتسم قليلًا «أظن أنك كذلك».

هززت رأسي. ظن أني أتظاهر بالتواضع. لكنه لم يفهم.

ثم انتبهت أنه يبتسم. نظرت إليه متسائلة.

استدرك «أردت التأكد».

«وهل تأكدت الآن؟».

«نعم».

وكان صادقًا. ما يكفي من الصدق بحيث أتجاهل أنه لم يفهم سوى نصف ما قلت.

«هل قررت ما ستفعلين حيال روفوس؟».

هززت رأسي «كما تعلم المشكلة ليست فقط فيما سيحل بالعبيد... ولكن أيضًا ما سيحل بي إن أدرت ظهري له».

«ستكون نهايته».

«أو نهايتي. فلا أستطيع العودة».

«عودتك إلى البيت لا تعتمد عليه. عودتك إلى البيت مرتبطة بالخطر».

«ولكن كيف أعود؟ هل أمتلك هذه القوة، أم أن ذلك يعتمد على ملامسة قوة عنده؟ فهذا كله بدأ بسببه. لا أعلم إن كنت أحتاجه أو لا. ولن أعرف حتى يختفي».

٣

زارنا بعض أصدقاء كيفن يوم الرابع من يوليو وحاولوا دفعنا للذهاب معهم إلى ملعب روز بول لمشاهدة الألعاب النارية. أراد كيفن أن يذهب، للخروج من البيت لا أكثر، أظن. طلبت منه أن يذهب لكنه لم يود الذهاب من دوني. أخيرًا لم يعد هنالك أي احتمال لخروجي، فبمجرد أن خرج أصدقاء كيفن من بيتنا بدأت أشعر بالدوار.

ترنحت باتجاه حقيبتي وسقطت قبل أن أصل إليها، زحفت نحوها، التقطتها في اللحظة التي دخل فيها كيفن بعد توديع أصدقائه.

«دانة» قال «لا يمكننا القعود في البيت أطول بانتظار حدوث شيء لن...».

فقدته.

بدلًا من الاستلقاء على أرضية غرفتي، وجدتني مستلقية تحت الشمس، فوق تل على مقربة من نمل أسود كبير.

وقبل أن يتسنى لي النهوض، رفسني أحدهم، وارتمى فوقي ثقيلًا. للحظات فقدت أنفاسي.

«دانة!» جاء صوت روفوس. «بحق الجحيم ماذا تفعلين هنا؟».

طالعت لأجده منبطحًا فوقي حيث وقع. وقفنا في اللحظة التي كان يوشك فيها شيء على عضي، النمل على الأرجح. نفضت ملابسي سريعًا.

«ماذا تفعلين هنا؟» بدا غاضبًا. لم يكن أكبر عن المرة الماضية التي رأيته فيها، ولكن يبدو أنه ليس على ما يرام. بدا شاحبًا ومنهكًا، وكأنه لم ينم لفترة طويلة، بل وكأنه لن يعرف النوم قريبًا.

«لا أعرف ماذا أفعل هنا يا روف. لا أعرف حتى أعرف ما دهاك».

حدق إليَّ للحظة طويلة. كانت عيناه حمراوين تحيطهما هالات داكنة. أخيرًا، أمسك بذراعي وأخذني عائدًا من حيث جاء. كنا في العزبة غير بعيدين عن البيت. لم يتغير شيء. رأيت اثنين من أبناء نايجل يتصارعان ويتدحرجان على الأرض. الطفلان اللذان درَّست لهما ولم يبدُ أنهما قد كبرا عن آخر مرة رأيتهما فيها.

«روف، كم مر عليَّ من الوقت؟».

لم يجبني. كان يقودني إلى الإسطبل، هذا ما فهمت، ويبدو أني

لن أعرف المزيد حتى نصل إلى هناك. وقف عند باب الإسطبل ودفعني إلى الدخول منه. لم يدخل من بعدي.

نظرت من حولي، بالكاد أرى أي شيء حتى تعتاد عيناي الضوء الخافت. التفت إلى المكان الذي عُلقت فيه وجلدت، ثم قفزت فزعة عند رؤية أحدهم معلقًا. معلقًا من الرقبة. امرأة.

آليس.

حدقت إليها مصدومة، لم أرد أن أصدق... لمستها وكان جلدها باردًا وقاسيًا. الوجه الرمادي الميت قبيح في الموت كما لم يكن من قبل في الحياة. الفم مفتوح. العينان مفتوحتان تحدقان. رأسها مكشوفة وشعرها منسدل وقصير مثل شعري. لم تكن تحب ربطه كما تفعل الأخريات. كان ذلك من التفاصيل التي جعلتنا نتشابه، الوحيدتان برؤوس مكشوفة في العزبة. ثوبها أحمر غامق ومريلتها بيضاء ناصعة. ارتدت حذاء طلبه روفوس خِصِّيصى لها، بخلاف الأحذية والجزم الثقيلة والخشنة التي يرتديها باقي العبيد. وكأنها تزينت وسرحت شعرها ثم...

أردت إنزالها.

نظرت حولي فوجدت الحبل مربوطًا إلى عقفة في الحائط فوق عارضة. كسرت أظافري بينما أحاول فك الحبل حتى تذكرت مطواتي. سحبتها من الحقيبة وقطعت آليس إلى الأرض.

سقطت متيبسة كشيء قابل للكسر لو ارتطم أرضًا. لكنها سقطت

دون أن تتكسر وفككت الحبل عن عنقها وأغمضت عينيها. للحظة، جلست معها أمسك برأسها وأبكي بصمت.

بعد فترة ظهر روفوس. نظرت إليه فأشاح بوجهه عني.

«هل فعلت ذلك بنفسها؟».

«نعم. بنفسها».

«لماذا؟».

لم يجب.

«روف؟».

راح يهز رأسه يمينًا ويسارًا ببطء.

«أين الأطفال؟».

استدار وخرج من الإسطبل.

عدلت من وضعية جسد آليس وفستانها وبحثت في الجوار عن شيء أغطيها به. لكني لم أجد شيئًا.

خرجت من الإسطبل وعبرت مساحة كبيرة من العشب نحو المطبخ. كانت سارة هناك تقطع اللحم بسرعتها وتناسقها الرهيبين. لطالما أخبرتها أنها على وشك قطع إصبع أو اثنين فتضحك. ما زالت تحتفظ بكل أصابعها.

«سارة؟» صار فرق العمر بيننا أكبر حتى أن كل من كان في عمري بات يناديها بـ«العمة سارة». فهمت أن ذلك علامة احترام

في هذا الزمن وأنا أكن لها الاحترام. لكنني لم أتمكن من نطق «عمة» أكثر مما يمكنني نطق «مامي». وهي لم تكترث للألقاب.

نظرت إليَّ «دانة! يا بنت ماذا تفعلين هنا؟ ماذا فعل السيد روفوس الآن؟».

«لا أعلم. ولكن يا سارة، آليس ماتت».

وضعت سارة فأسها وجلست على المقعد قرب الطاولة. «يا إلهي. المسكينة. أخيرًا قتلها».

«لا أعلم» قلت. ذهبت أجلس بجانبها. «أظن أنها فعلتها بنفسها. شنقت نفسها. حالًا أنزلتها».

«إنها فعلته!» هست لي. «حتى وإن لم يضع الحبل حول عنقها، هو من دفعها. باع أطفالها!».

تجهم وجهي. كان كلامها مفهومًا صريحًا، بصوت واضح، ولكن للحظة، لم أفهم. «جو وهاجر؟ أطفاله؟».

«ما همه بهم؟».

«ولكن... كان يهتم. كان سيقوم... ما الذي دفعه إلى ذلك؟».

«لأنها هربت» استدارت تواجهني. «مؤكد أنك كنت تعرفين عن ذلك. كنتما بمثابة أختين».

لم أكن بحاجة إلى هذا التذكير. نهضت مدفوعة بحاجة إلى الحركة، أحاول صرف انتباهي قبل أن أبكي ثانية.

«على الأقل تتجادلان كما لو كنتما أختين» قالت سارة «تشاغب الواحدة الأخرى، تنصرف عنها ثم تعود إليها. لحظة اختفيت، ضربت أحد عمال الحقل لأنه تكلم عنك سوءًا».

فعلًا؟ لا أستغرب ذلك منها. الإساءة إليَّ امتياز لها وحدها. ممنوع على أحد تخطي ذلك. رحت أدور بين الطاولة والموقد وطاولة أخرى صغيرة. ثم إلى سارة.

«دانة، أين هي؟».

«في الإسطبل».

«سيحضر جنازة كبيرة لها» هزت سارة رأسها «المضحك أني ظننت أنها أخيرًا قد تأقلمت معه، ولم يعد يزعجها الكثير».

«لو أنها قبلت به لا أظن أنها كانت ستسامح نفسها».

هزت سارة كتفيها.

«حين هربت... هل ضربها؟».

«قليلًا. بقدر ما جلدك السيد توم العجوز تلك المرة».

أوه تلك الصفعة الرقيقة، نعم.

«لم يكن الضرب هو المهم. لكن حين أخذ أطفالها، ظننت أنها ستموت لحظتها. كانت تصرخ وتبكي طوال الوقت. ثم مرضت وكان عليَّ الاعتناء بها». صمتت سارة للحظة «لم أود حتى الاقتراب منها. حين باع السيد توم أطفالي، لم أرِد سوى الاستلقاء والموت. رؤيتها على تلك الحال أعادت إليَّ كل الذكريات».

دخلت كاري، وجهها مبلل بالدموع. جاءت إليَّ غير متفاجئة بحضوري وعانقتني.

«تعلمين؟» سألت.

هزت رأسها، ثم أومأت بإشارتها التي تستخدمها لوصف البيض، ودفعتني نحو الباب. فذهبت معها.

وجدت روفوس إلى طاولته في المكتبة يعبث بمسدس.

التفت ولمحني في لحظة أوشكت على الانسحاب. أدركت أن ذلك ما كان يوشك عليه، مؤكد، حين استدعاني. ما معنى استدعائه لي إذًا؟ رغبة غير واعية لأمنعه من قتل نفسه؟

«ادخلي يا دانة» جاء صوته خاويًا وميتًا.

سحبت الكرسي الخشبي القديم إلى طاولته وجلست. «كيف فعلت ذلك يا روف؟».

لم يجب.

«ابنك وابنتك... كيف تبيعهما؟».

«لم أفعل».

استوقفني رده. توقعت أي إجابة سوى هذه أو حتى الصمت. إلا الإنكار... «ولكن... لكن...».

«هربت».

«أعلم».

«كنا قد تأقلمنا على بعض. تعلمين. كنت هنا. الأمور كانت جيدة. مرة، بعد رحيلك، جاءت إلى غرفتي. بنفسها».

«روف...؟».

«كل شيء كان على ما يرام. حتى أني أكملت دروس جو. أنا! أخبرتها أني سأعتقهما».

«لم تصدقك. لأنك لم توثق كلامك على ورق».

«كنت سأفعل».

هززت كتفي. «أين الأطفال يا روف؟».

«في بالتيمور مع خالتي».

«ولكن... لماذا؟».

«لمعاقبتها، أردت تخويفها. كي أريها ما سيحدث لو.. لو حاولت تركي».

«يا إلهي! كان بإمكانك إعادتهما حينما مرضت».

«أتمنى لو فعلت».

«لماذا لم تعيدهما؟».

«لا أعلم».

أشحت عنه بشعور من القرف. «أنت من قتلها. وكأنك وضعت مسدسًا بيدها وأطلقت النار».

نظر إلى المسدس، وتركه سريعًا.

«ماذا ستفعل الآن؟».

«ذهب نايجل ليأتي بكفن. كفن جيد، لا مجرد صندوق. وسيطلب قسيساً ليأتي غدًا».

«أقصد ماذا ستفعل لأجل ابنك وابنتك؟».

نظر إليَّ بيأس.

«صكا حرية» قلت «تدين لهما بذلك، على أقل تقدير. فقد سلبتهما أمهما».

«يلعنك يا دانة! توقفي عن قول ذلك! لا تقولي إني قتلتها».

اكتفيت بالنظر إليه.

«لمَ رحلت! لو لم ترحلي، لمَ هربت!».

حككت وجهي حيث ضربني حين توسلته ألا يبيع سام.

«لم يكن عليك الرحيل».

«كنت تتحول إلى شيء لم أرغب بالتواجد قربه».

صمت.

«صكا حرية يا روف، بالقانون. دعهما يكبران حُرَّين. هذا أقل ما عليك فعله».

٤

في اليوم التالي، نظموا عزاء خارج البيت حضره الجميع، من عمال الحقل وخدم البيت وحتى إيفان فاولر الذي لم يكن مهتمًّا بالحدث.

كان القسيس رجلًا طويلًا، أسود بلون الفحم، حُرًّا وله وجه ذكرني بصورة احتفظت بها لأبي الذي مات قبل أن أتعرف عليه. كان القسيس يعرف القراءة. حمل إنجيلًا بين يديه الكبيرتين، يقرأ من سفر الجامعة وسفر أيوب حتى لم أعد قادرة على سماع المزيد. كنت قد أدرت ظهري للتعاليم المعمدانية الصارمة لخالي وزوجته منذ سنوات. ولكن حتى الآن، بل خصوصًا الآن، أشعر بالكلمات المريرة الكئيبة لأيوب تلامسني. «اَلإِنْسَانُ مَوْلُودُ الْمَرْأَةِ، قَلِيلُ الأَيَّامِ وَشَبْعَانُ تَعَبًا. يَخْرُجُ كَالزَّهْرِ ثُمَّ يَنْحَسِمُ وَيَبْرَحُ كَالظِّلِّ وَلاَ يَقِفُ...».

احتفظت بهدوئي بشكل ما، مسحت دموعي الصامتة، أهش البق والذباب بعيدًا، وأسمع الهمسات.

«ستذهب إلى الجحيم! ألا تعلم أن من يقتل نفسه يذهب إلى الجحيم!».

«أغلقي فمك! والا سيجعلك السيد روفوس تشاركينها مكانها تحت الأرض!».

صمت.

دفنوها.

ثم جاء العشاء الكبير من بعد. أذكر أن أقاربي أيضًا يجلسون للعشاء بعد العزاء. لم يخطر لي أنه تقليد قديم.

أكلت قليلًا، ثم ذهبت إلى المكتبة لأنفرد بنفسي، حتى أكتب. أحيانًا أكتب عن أمور لا يمكنني الحديث عنها، أو لأن مشاعري تجاهها غير واضحة بعد، أو لأني فشلت في كبتها داخلي. كتابات أقوم بالتخلص منها في النهاية. كتابات ليست موجهة إلى أحد، ولا حتى إلى كيفن.

جاء روفوس لاحقًا وأنا على وشك الانتهاء من تفريغ كل شيء في الكتابة. جاء إلى الطاولة وجلس على كرسيي الخشبي القديم -كنت جالسة على كرسيه- ووضع رأسه على الطاولة. لم نقل شيئًا، جلسنا هكذا لفترة.

في اليوم التالي، أخذني معه إلى البلدة، إلى مبنى المحكمة القرميدي القديم، وتركني أشاهد بينما ينجز صكّي الحرية لطفليه.

«لو أعدتهما» قال في الطريق إلى البيت «هل تعتنين بهما؟».

هززت رأسي. «لن يكون في صالحهما يا روف. فهذا ليس بمكاني. يعتادان عليَّ ثم أختفي».

«من إذًا؟».

«كاري. سارة ستساعد».

هز رأسه بلا حماسة.

في أحد الصباحات بعد أيام قليلة، توجه إلى إيستن بوينت ليركب قاربًا بخاريًّا منها إلى بالتيمور. عرضت أن أذهب معه لمساعدة الأطفال، لكنه رد عليَّ بنظرة توجس، نظرة لم أعرف كيف أفسرها.

«روف، لا أحتاج إلى الذهاب إلى بالتيمور لأهرب منك. كل ما في الأمر أني أريد المساعدة».

«فقط ابقي هنا» قال. ثم راح يتحدث إلى إيفان فاولر قبل أن ينطلق. عرف كيف عدت إلى بيتي المرة الماضية. كان قد سألني وأجبته.

«ولكن لماذا؟» قال «ماذا لو قتلت نفسك؟».

«هنالك أمور أسوأ من الموت» قلت.

استدار يبتعد عني.

والآن بات يراقبني أكثر من السابق. لم يستطع مراقبتي على الدوام بالطبع إلا لو قيدني بالسلاسل. لا يمكنه منعي عن الخروج من عالمه بطريقة أو بأخرى إن كان ذلك ما أريد. لا يمكنه التحكم فيَّ. هذا أمر كلانا يعرفه.

تواجد إيفان فاولر داخل المنزل بكثرة في غياب روفوس. نادرًا ما يخاطبني، كما لم يحاول توجيه أي أوامر إليَّ. لكنه حاضر في المكان. وجدت في غرفة مارغريت وايلن مخبأً لي، وكم كانت سعيدة بحيث لم تتوقف عن الحديث. وجدتني أضحك بل وأتجاذب أطراف

الحديث معها وكأننا مجرد شخصين وحيدين يتحاوران، دون الحمل الزائد الذي تخلقه أي حواجز غبية.

عاد روفوس، جاء إلى البيت حاملًا البنت الداكنة الصغيرة وبيده الولد الذي بات يشبهه أكثر. رآني جو في الممر وراح يركض نحوي.

«العمة دانة، العمة دانة!» ثم عانقني «صرت أقرأ أحسن الآن. بابا علمني. تحبين أقرأ لك؟».

«بالتأكيد أحب» نظرت إلى روفوس. *بابا؟*

حدق إليَّ زامًّا شفتيه وكأنه يتوقع مني قول شيء. كل ما أردت قوله «ما الذي استغرقك طويلًا؟» فقد قضى الولد حياته القصيرة يخاطب أباه بالسيد. والآن وقد فقد أمه، يبدو أن روفوس قرر أن يمنحه أبًا. بشكل ما وجدتني أبتسم لروفوس، ابتسامة صادقة. لم أرد له أن يشعر بالحرج أو يضطر إلى التبرير لأنه أخيرًا قرر الاعتراف بابنه.

أجابني بابتسامة وبدا مسترخيًا.

«ماذا لو نعيد فصول التدريس ثانية؟».

هزَّ رأسه «ربما لم ينسَ الآخرون بعد ما تعلموه».

لم ينسوا. اكتشفت أني لم أغِب لأكثر من ثلاثة أشهر. وكأنهم حصلوا على عطلة صيفية مبكرة. والآن يعودون إلى المدرسة. بينما عدت أنا، ببطء، للعمل على روفوس، أدفعه نحو تحرير المزيد منهم،

ربما مجموعة منهم - أو جميعهم، على الأقل في وصيته. سبق وسمعت أن ملاكًا للعبيد قاموا بأمور مماثلة. الحرب الأهلية لا زالت على بعد ثلاثين عامًا من الآن. قد أتمكن من مساعدة بعض البالغين من العبيد في الحصول على الحرية بما أنهم في سن الشباب ليبنوا حياة جديدة لهم. قد أتمكن من مساعدة الجميع أخيرًا. على الأقل، شعرت بأمان يكفي للقيام ببعض المحاولات، خاصة وأن حريتي باتت قريبة.

جعلني روفوس الآن أرافقه أكثر من حاجته. ينادي عليَّ لمشاركته الأكل، يصغي إليَّ حين أحدثه عن عتق العبيد. لكنه لم يتعهد بشيء. تساءلت إن كان يرى في تجهيز الوصية فعلًا أحمق لشخص في مثل سنه، أم أنه يظن أن عتق العبيد هو الحماقة. لم يعطني إجابة، لذا لم أعرف السبب.

ولكنه أخيرًا أعطاني إجابة، ما يكفي لأعرف موقفه. والحقيقة أن كل ما قاله كان متوقعًا.

«دانة» قال في المكتبة في إحدى المساءات «من الجنون أن أكتب وصية أعتق بها كل هؤلاء ثم أخبرك بذلك. قد أموت شابًّا بسبب حماقة كهذه».

تطلعت إلى وجهه لأتأكد من جدية تعبيره. لكن النظر إليه حيرني أكثر. فقد كان مبتسمًا، لكني فهمت أنه كان جادًّا بالفعل. يؤمن بأني سأقتله في سبيل تحرير العبيد. الغريب أن الفكرة لم تخطر لي. كان اقتراحي بريئًا. لكنه قد يكون على حق في ظنه. لأن الفكرة كانت ستخطر لي آجلًا أم عاجلًا.

«كانت تأتيني كوابيس عنك» قال «بدأت في الصغر، بعد حرقي للستائر. أتذكرين الحريق؟».

«بالطبع».

«كنت أحلم بك وأستيقظ متعرقًا».

«تحلم... بي أقتلك؟».

«ليس بالضبط» توقف للحظة يتفحصني بنظرة لم أفهمها «أحلم بك تتركينني».

تجهمت. هذا تقريبًا ما قاله لي كيفن وما أثار شكوكه. «أتركك» قلت بحذر «لا بد من ذلك فأنا لا أنتمي إلى هنا».

«بلى تنتمين، في تقديري أنك تنتمين. ولكني لم أقصد ذلك. تتركيني، ثم تعودين عاجلًا أم آجلًا. ولكن في كوابيسي، تتركيني دون مساعدتي. تديرين ظهرك وتتركيني عالقًا، مصابًا، وربما حتى ميتًا».

«أوه. متأكد أن هذه الأحلام بدأت في الصغر؟ يبدو لي وكأنك اختلقتها بعد شجارك مع إسحاق».

«بعد الشجار صارت الكوابيس أسوأ» اعترف «لكنها بدأت مع حادثة الحريق، بمجرد أن فهمت أنَّ لك أن تختاري أن تساعديني أو لا، حسبما تقررين. استمرت معي لسنوات. ولفترة حين كانت آليس موجودة، اختفت. لكنها تعود إليَّ الآن».

توقف ينظر إليَّ وكأنه يتوقع مني قول شيء له، ربما أطمئنه، أو

أعطيه وعدًا أني مستحيل أن أقوم بذلك. لكنني لم أستطِع دفع نفسي إلى قول ما يريد.

«صح؟» قال بهدوء.

تزحزحت في سريري قليلًا. «روف، تعلم كم من الناس يشيخون دون التورط في مثل المواقف التي تجعلك تحتاجني؟ إن كنت لا تثق بي، معنى ذلك أن عندك من الأسباب ما يكفي لاتخاذ الحذر».

«أخبريني أن بإمكاني الوثوق بك».

الضيق مرة أخرى. «ما زالت أفعالك تجعل الثقة بك أمرًا مستحيلًا، بالرغم من أنك تعرف بأن الثقة يجب أن تكون متبادلة».

هز رأسه «لا أعلم. لا أعلم كيف أتعامل معك. لا أحد يفهمك. يرى عمال الحقل أنك بيضاء، خائنة بشكل ما».

«أعرف انطباعهم».

«لطالما ظن بابا أنك خطرة لأنك تعرفين أكثر من اللازم عن البيض بالنسبة إلى شخص أسود. أسود زيادة، كما وصفك. النوع الذي يراقب ويفكر ويخلق مشاكل. أخبرت آليس بذلك وضحكت. قالت إن بابا عنده من المنطق أكثر مما عندي. وأنه محق بشأني وأني سأكتشف ذلك يومًا ما».

فزعت. هل قالت آليس كلامًا من هذا القبيل بالفعل.

«وأمي» أردف روفوس بهدوء «تقول إنها حين تغمض عينيها بينما تتحدثان، فإن من السهل عليها أن تنسى كونك سوداء».

«أنا سوداء» قلت «عندما تبيع رجلًا أسود وتفرقه عن عائلته فقط لأنه تحدث معي، لا تتوقع مني أن أقابلك بمشاعر المحبة».

نظر بعيدًا. فلم يسبق لنا الحديث عن سام مسبقًا. تطرقنا إلى ما حدث بشكل ما نشير إليه دون ذكر اسمه.

«كان يريدك» قال روفوس بصراحة.

حدقت إليه وقد فهمت الآن ما الذي منعنا من الحديث عن سام. لأنه حديث خطر. قد يقود إلى مناقشة أمور أخرى. نحتاج إلى مواضيع آمنة الآن، أنا وروفوس، سعر الذرة، لوازم للعبيد، أمور من هذا النوع.

«لم يرتكب سام خطأً» قلت «بعته بناءً على توقعاتك عنه».

«كان يريدك» كرر روفوس.

كما تريدني أنت، فكرت. لم تعد آليس هنا لتأخذ بعض الحمل عني. حان وقت العودة إلى البيت. بدأت بالنهوض.

«لا تتركيني يا دانة».

توقفت. لم أرد الخروج مستعجلة، الهرب بعيدًا عنه. لم أرد له أن يتوقع أني ذاهبة إلى العلية كي أعيد فتح ندوب رسغي ثانية. عاودت الجلوس.

عاد بظهره إلى الكرسي ينظر إليَّ حتى تمنيت لو أني انتهزت فرصة الخروج.

«ماذا سأفعل حين تذهبين إلى بيتك هذه المرة؟» قال هامسًا.

«ستعيش».

«أتساءل... ما الذي يدفعني إلى العيش؟».

«من أجل أطفالك، على الأقل» قلت «أطفالها. كل ما تبقى لك منها».

أغمض عينيه، ثم راح يفركهما. «مفروض أن يصبحوا أطفالك الآن» قال «لو تكنين لهم المحبة، ستبقين».

من أجلهم؟ «تعلم أني لا أستطيع».

«تستطيعين إن أردت. لا أرغب في إيذائك، ولن تضطري إلى فعل ذلك بنفسك... ثانية».

«لن تؤذيني حتى تغضب لسبب ما، تنزعج أو تسيطر عليك الغيرة. لن تؤذيني حتى يؤذيك أحدهم. روف، أنا أعرفك. لن أستطيع المكوث هنا حتى وإن لم أعد إلى بيتي، حتى وإن لم يكن هناك من ينتظرني».

«ذاك الكيفن!».

«نعم».

«أتمنى لو أني قتلته».

«لو فعلت لكنت ميتًا الآن».

استدار بجسده يواجهني مباشرة «تقولين ذلك وكأن لك مقصدًا ما؟».

نهضت لأخرج. لم يكن هناك ما أقوله. طلب مني ما لا يمكن لي تقديمه ورفضت.

«تعرفين يا دانة» قال بنعومة «عندما أرسلت آليس إليَّ تلك المرة الأولى، رأيت فيها كم أنها تكرهني، فكرت أنها ستنتظر أن أنام وتقتلني. تضربني بشمعدان. تشعل النار في سريري. أو تأتي بسكين من المطبخ...

فكرت في كل ذلك، لكني لم أخف. لأنها لو قتلتني سينتهي الأمر عند ذلك. لا يهم ما يحدث بعد ذلك. ولكن إن عشت، فإني سأحصل عليها. ويعلم الله كم كان مهمًّا أن تكون لي».

نهض يقترب مني. تراجعت عنه لكنه أمسك بذراعيَّ. «تشبهينها بشدة إلى درجة بالكاد أطيقها» قال.

«روف، اتركني».

«كنتما امرأة واحدة» قال «أنت وهي. امرأة واحدة. شيء وانقسم إلى نصفين».

لا بد أن أخلص نفسي منه. «اتركني، وإلا أجعل كابوسك حقيقة!» الهجران. السلاح الوحيد الذي لم يكن متاحًا لآليس. لا يبدو أن روفوس يخشى الموت. والآن وهو في حالة العزاء، يبدو وكأنه يريد الموت. لكنه خائف من الموت وحيدًا، خائف من أن تهجره المرأة التي اتكل عليها لفترة طويلة.

ظل واقفاً ممسكًا بذراعي، ربما يفكر فيما سيفعله الآن. بعد

لحظات، بدأت قبضته تسترخي، فسحبت نفسي منه. فهمت أن عليَّ الخروج فورًا قبل أن تتصاعد مخاوفه مرة أخرى. قد يفعلها. بإمكانه أن يقنع نفسه بارتكاب أي شيء.

خرجت من المكتبة، صعدت على السلالم، ثم إلى العلية. ذهبت إلى حقيبتي، مطواتي.

فتحتها، ترددت، ثم أعدت المطواة إلى الحقيبة والشفرة بعد مفتوحة.

فتح الباب، دخل، ينظر حول الغرفة الحارة الفارغة. رآني في البداية لكنه أكمل نظرته الفاحصة للمكان، هل يتأكد من أننا وحيدان؟

كنا وحدنا.

اقترب مني وجلس بجانبي على الفرشة. «آسف يا دانة» قال.

آسف؟ لما كان يوشك على فعله، أم على ما سيقوم به؟

آسف. سبق وأن اعتذر مني مرات كثيرة بطرق مختلفة، لكن اعتذاراته كانت مبهمة دائمًا «لتأكلي معي يا دانة. طبخت سارة وجبة خاصة» أو «هاك يا دانة، هذا كتاب جديد اشتريته لك من البلدة» أو «هاك بعض القماش يا دانة. اصنعي منه شيئًا لك».

أشياء. هدايا يمنحها بعدما يدرك أنه قام بإهانتي أو أذيتي. لكن لم يسبق له قول «آسف يا دانة». نظرت إليه بحيرة.

«لم أشعر من قبل بمثل هذه الوحدة» قال.

لامستني كلماته كما لم تلامسني غيرها من قبل. لأني أعرف عن الوحدة. أخذتني أفكاري للمرة التي عدت بها إلى البيت من دون كيفن: الوحدة، الخوف، وأحيانًا اليأس. لكن اليأس ليس بشعور عابر عند روفوس. فقد ماتت آليس ودُفنت. لم يتبقَ له سوى أطفاله. على الأقل أحد منهم أحب آليس. جو.

«أين ذهبت ماما؟» سأل في يومه الأول بعد العودة.

«بعيدًا» قال روفوس «ذهبت بعيدًا».

«متى ستعود؟».

«لا أعلم».

جاء الصبي إليَّ «عمة دانة، أين ذهبت ماما؟».

«حبيبي... ماتت».

«ماتت؟».

«نعم. مثل العمة ماري» والتي أخيرًا قطعت المسافة الأخيرة نحو جزائها. فقد عاشت لأكثر من ثمانين سنة، جاءوا بها من إفريقيا، أخبرني الناس. صنع لها نايجل تابوتًا وضع فيه ماري لترقد على مقربة من مرقد آليس.

«لكن ماما لم تكن عجوزًا».

«لا ولكنها كانت مريضة يا جو».

«بابا قال إنها راحت بعيدًا».

«نعم... إلى الجنة».

«لا!».

بدأ يبكي وحاولت الطبطبة عليه. تذكرت الألم الذي شعرت به عند وفاة أمي: الفقدان، الوحدة، الضياع في بيت خالي.

حضنت الولد وأخبرته أنه ما زال لديه بابا، أرجوك يا الله. وأن سارة وكاري ونايجل يحبونه. لن يسمحوا لأي أحد أن يؤذيه، على أساس أن عندهم القدرة على حمايته، أو حتى حماية أنفسهم.

تركت جو يذهب إلى كوخ أمه ليقضي بعض الوقت وحده. هذا ما أراده. ثم أخبرت روفوس بما فعلت. ولم يعرف روفوس هل يضربني أم يشكرني. حملق إليَّ حتى بات وجهه مشدودًا وحادًّا. ثم، أخيرًا، بدأ يسترخي يهز رأسه ومن بعد خرج يبحث عن ابنه.

الآن يجلس معي، متأسفًا ووحيدًا متوقعًا مني أن أشغل مكان الموتى.

«لم تكرهيني من قبل، أليس كذلك؟» سألني.

«لفترات قصيرة. لا أعلم لماذا. رغم أنك عملت جاهدًا على نيل كراهيتي يا روف».

«هي كرهتني. من أول مرة أجبرتها».

«لا ألومها».

«ولكن قبل هروبها. توقفت عن ذلك. يا ترى كم ستحتاجين من الوقت؟».

«وقت من أجل ماذا؟».

«حتى تتوقفي عن كراهيتي».

يا إلهي. دون قصد مني أحطت بأصابعي على المطواة التي ما زالت مغطاة بالحقيبة. أخذ يدي الأخرى يمسكها بين يديه في قبضة لن تكون لطيفة لو حاولت سحب يدي.

«روف» قلت «أطفالك...».

«أحرار».

«لكنهم صغار. يحتاجونك لحماية حريتهم».

«معنى ذلك أن الأمر يعتمد عليك، صح؟».

حركت يدي محاولة سحبها منه في فورة غضب مفاجئة. في نفس اللحظة، تحولت قبضته من التمسيد إلى الحبس. بينما تعرقت يدي اليمنى حول المطواة.

«يعتمد عليك» كرر.

«لا اللعنة لا، لا يعتمد عليَّ. إنقاذ حياتك اعتمد عليَّ لوقت طويل. لِمَ لم تطلق النار على نفسك حين حاولت؟ ما كنت سأوقفك!».

«أعلم ذلك».

نعومة صوته جعلتني أنظر إليه.

«ماذا أيضًا عليَّ أن أفقد؟» سأل. دفعني إلى الفرشة ولبضع لحظات استلقينا ساكنين. ما الذي ينتظره؟ ما الذي أنتظره أنا؟

استلقى برأسه على كتفي، وذراعه اليسرى تحيط بي، يده اليمنى ما زالت تمسك بيدي، وببطء، استوعبت كم سيكون سهلًا عليَّ أن أبقى ساكنة هنا وأن أغفر له أي شيء. سهل جدًّا، بالرغم من كل الكلام الذي قلته. بينما سيكون صعبًا أن أرفع المطواة وأغرزها في اللحم الذي أنقذته عدة مرات. كم من الصعب أن تَقتُل...

لم يؤذني، ولن يؤذيني إن بقيت هكذا. لم يكن مثل أبيه، عجوزًا وقبيحًا، وحشيًّا وقذرًا. شممت رائحة الصابون فيه، وكأنه استحم قبل فترة قصيرة، من أجلي؟ شعره الأحمر مرتب ومبلل قليلًا. لن أكون ما كانته تاس لأبيه، مجرد شيء يمررونه مثل جرة ويسكي في ليلة الحصاد. لن يفعل ذلك بي ولن يقوم ببيعي.

لا.

ما زلت أشعر بالمطواة في يدي مبللة بالعرق. العبدة عبدة. أي شيء قد يرتكب بحقها. وروفوس هو روفوس، منجرف، أحيانًا كريم، ومتوحش. قد أتقبله كأحد أسلافي، أخي الأصغر، صديقي، لكني لن أقبل به سيدًا، ولا حبيبًا. يعرف ذلك جيدًا.

تحركت بحدة أبتعد عنه. أمسكني محاولًا ألا يؤذيني. كنت واعية بمحاولته حتى وأنا أرفع المطواة، حتى وأنا أغرسها في خصره.

صرخ. لم يسبق لي أن أسمع صرخة مثل هذه، صرخة حيوانية. صرخ ثانية، لفظة قبيحة مكتومة.

انفكت يده عني للحظة، لكنه أمسك بذراعي قبل أن أتمكن

من الابتعاد عنه. ثم لوح بقبضته الأخرى يلكمني مرة، ثم ثانية كما فعل رجل الدورية منذ زمن.

سحبت المطواة دون أن يمسكها، رفعتها وغرستها ثانية، هذه المرة في ظهره.

اكتفى هذه المرة بنخرة. انهار من أمامي، ما زال حيًّا، يمسك بذراعي.

متمددة من تحته، نصف واعية من اللكمات، يداهمني الغثيان. بدأت معدتي تتلوى فتقيأت علينا.

«دانة؟».

صوت. صوت رجل.

أدرت رأسي لأرى نايجل يقف على العتبة.

«دانة، ما...؟ أوه لا، إلهي لا!».

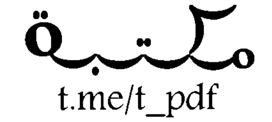
«نايجل...» تأوه روفوس ثم خرجت منه تنهيدة مرتجفة. صار جسده رخوًا وثقيلًا من فوقي. دفعته جانبًا بشكل ما، كل جسده سوى يده التي ما زالت تمسك بذراعي. صرت متشنجة أشعر بغثيان مريع ومؤلم.

شيء ما أقوى من قبضة روفوس بدأ يشد ذراعي، يعصرها، يتصلب حولها، يضغط عليها -بلا ألم، في البدء- ثم يذوب فيها، يتداخل معها وكأن ذراعي يمتصها شيء ما. شيء بارد وغير حي.

شيء... صبغ، جص، خشب، جدار. إنه جدار غرفة الجلوس. لقد عدت إلى البيت، في بيتي، في زمني. لكني ما زلت عالقة بشكل ما، في جزء من الحائط وكأن ذراعي تكبر منه، أو تكبر داخله. من الكوع وحتى الأصابع، ذراعي اليسرى باتت جزءًا من الحائط. نظرت إلى البقعة حيث يتداخل اللحم بالجص، أحدق إليها بلا إدراك. كانت بالضبط البقعة التي شد عليها روفوس.

سحبت ذراعي نحوي، سحبت بقوة.

وفجأة، انهمر الألم، عذاب أحمر مستحيل! وصرت أصرخ وأصرخ.



الخاتمة

سافرنا إلى ميريلاند بمجرد أن تعافت ذراعي. هناك، قمنا بتأجير سيارة فقد عاد كيفن إلى القيادة، وتجولنا حول بالتيمور بالقرب من إيستن. هناك جسر الآن بدلًا من القارب البخاري الذي ركبه روفوس. وأخيرًا استطعت رؤية البلدة التي عشت بالقرب منها ولم أرَ إلا القليل منها. وجدنا المحكمة والكنيسة القديمة، وبعض مبانٍ قديمة لم يأكلها الزمن. ووجدنا برجر كنج وهوليدي إن وتيكساكو ومدارس فيها أطفال سود وبيض معًا، ومسنون نظروا إليَّ أنا وكيفن، ثم عاودوا النظر ثانية.

ذهبنا إلى الريف، المنطقة التي لا زالت غابة ومزارع، لنجد بعضًا من البيوت القديمة. اثنان منهما قد يكونا بيت وايلن. يبدوان أجمل وأفضل، ولكنهما بقيا على نفس الطراز الجورجي.

لكن بيت روفوس قد اختفى. حسب تقديرنا، تحولت المساحة الآن إلى حقل ذرة شاسع. صار البيت ترابًا، كروفوس.

كنت أنا من أصرَّ على إيجاد قبره، أستجوب المُزارع عن مكانه

لأن روفوس، كالحال مع أبيه والعجوز ماري وآليس، على الأرجح دُفن في العزبة.

لكن المزارع لم يعرف أي شيء، أو على الأقل لم يخبرني بشيء. الإشارة الوحيدة التي حصلنا عليها، أكثر من إشارة، هي قصاصة قديمة من جريدة تقول إن السيد روفوس وايلن قد مات بحريق في بيته الذي تدمر جزئيًّا. وفي أعداد لاحقة، إعلان عن بيع العبيد من بين ممتلكات السيد روفوس وايلن. ذكروا العبيد بأسمائهم الأولى وأعمارهم التقريبية ومهاراتهم. أسماء أبناء نايجل الثلاثة مذكورة، لكن نايجل وكاري لم يُذكرا. اسم سارة موجود، ولكن جو وهاجر غير مذكورين. البقية مذكورون، جميعهم.

فكرت في الأمر، أحاول تجميع التفاصيل قدر الإمكان. الحريق مثلًا. الأرجح أن نايجل افتعله كي يغطي فعلتي، ويبدو أنه نجح في ذلك. توقعوا أن روفوس قد احترق حتى الموت. لم أجد أي إشارة في الصحيفة إلى جريمة قتل أو حتى إلى الحريق باعتباره جرمًا متعمدًا. لا بد أن نايجل قد أحسن ما فعل. ولا بد أنه نجح في إخراج مارغريت وايلن حية في الوقت المناسب. لم يكن هناك ذكر لمقتلها. لمارغريت أقارب في بالتيمور. كما أن بيت هاجر في بالتيمور.

عدت وكيفن إلى بالتيمور نبحث في الصحف، السجلات الرسمية، أي شيء قد نجده ليربط بين مارغريت وهاجر أو حتى أي ذكر لهما. ربما أخذت مارغريت الطفلين. ربما بموت آليس

تقبلتهما. في النهاية هما حفيداها، أطفال ابنها الوحيد. ربما ربتهما. أو احتفظت بهما كعبدين. وحتى إن حدث، فإن هاجر عاشت مطولًا حتى تشهد التعديل الدستوري الرابع عشر وتصبح بفعله حرة.

«كان بإمكانه ترك وصية» قال كيفن خارج أحد الأماكن التي بحثنا فيها، جمعية ميريلاند التاريخية. «كان بإمكانه عتق كل هؤلاء على الأقل حين لم تعد لهم فائدة عنده».

«ولكن أمه كانت حية» قلت «وكان في الخامسة والعشرين من عمره. ربما ظن أنه شاب وأمامه وقت كافٍ لكتابة وصية».

«كفي عن تبرير أفعاله» تمتم كيفن.

ترددت ثم هززت رأسي «لا أبرر. أظن أني أبرر لنفسي بشكل ما. فأنا أعرف لمَ لمْ يترك وصية كهذه. سألته وأجابني».

«لماذا؟».

«بسببي. كان خائفًا أني سأقتله بعد الوصية».

«كان بإمكانه ألا يخبرك عنها».

«صحيح، ولكن يبدو أنه لم يرد المجازفة».

«وهل كان محقًّا... في خوفه؟».

«لا أعلم».

«أشك في ذلك، لو نضع في الاعتبار ما سلبته إياه. لا أظن أنك كنت قادرة على قتله لولا أنه اعتدى عليك».

وبالكاد استطعت، فكرت. لن يفهم كيفن أبدًا كيف كانت تلك اللحظات. أخبرته بما جرى وسألني بضعة أسئلة. وكنت ممتنة لذلك. الآن قلت ببساطة «دفاع عن النفس».

«نعم» قال.

«ولكن الثمن... أطفال نايجل، سارة، والآخرون...».

«انتهى» قال «ليس بيدك ما يمكن فعله لتغيير أيًا من ذلك الآن».

«أعلم» أخذت نفسًا عميقًا. «أتساءل إن سمحوا للأطفال أن يبقوا معًا، ربما مع سارة».

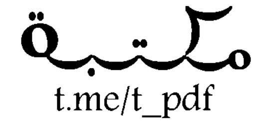
«بحثت» قال «ولم تجد أي سجلات. ربما لن تعرفي أبدًا».

مسدت على الندبة التي رسمتها جزمة توم وايلن على وجهي، ثم لمست كمي الأيسر الخاوي. «أعلم» أجبت «لمَ جئت إلى هنا أصلًا. مفروض أني قد تشبعت من الماضي».

«غالبًا أردتِ المجيء إلى هنا لنفس السبب الذي جاء بي» وهز كتفيه «محاولة للفهم. بحثًا عن دليل ملموس على وجود هؤلاء الناس. لتؤكدي لنفسك أنك لست مجنونة».

نظرت خلفي إلى المبنى القرميدي للجمعية التاريخية، هو أيضًا كان منزلاً قديمًا. «لو أخبرنا أي أحد عمّا حدث، أي أحد على الإطلاق، فلن يظن أننا عقلاء».

«لكننا عقلاء» قال «والآن وقد مات الولد، أمامنا فرصة لنبقى على ذلك».



عملت بتلر على هذه الرواية لما يقارب من عشر سنوات من عمرها، قرأت فيها مذكرات العبيد والوثائق الرسمية وأرشيف الجمعيات التاريخية والخرائط القديمة، لتقوم على أساسها بالتخطيط لمسارات وتحركات شخصياتها، هذا بالإضافة إلى زياراتها لولاية ماريلاند حيث تدور أحداث الرواية. سيكون جلياً أمام القارئ حجم العمل الدؤوب والتراكمي الذي بذلته بتلر لتشكيل سياقات مكانية وزمانية وثقافية حول الرواية. أرادت بتلر أن تقاوم النسيان بالذاكرة، وأن تخلق استمرارية بين الماضي والحاضر، خاصةً وأن هوّة الحداثة تخلق وهماً عند الإنسان المعاصر بأن ذاك الماضي تحوّل وبات بعيداً، ليمحو بذلك معاناة إنسان الأمس، ومحاولاته في المقاومة والنجاة. كما أن بتلر تعالج هذه الهوّة في سياقٍ محلي أيضاً، حيث الاختلاف الأيديولوجي الشاسع بين السود في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي بالمقارنة مع أسلافهم الذين استُعبدوا. عاشت بتلر فترة راديكالية في تاريخ أمريكا، حين كان أغلب جيلها من السود ينزح نحو الكفاح المسلح، وينظر إلى الأسلاف باعتبارهم ضحايا أو خانعين. وأرادت للقارئ أن يخلق روابط جديدة مع الأسلاف، قائمة على التعاطف والترابط التاريخي لتطرح مفاهيمَ جديدة عن القمع والمقاومة.

المترجمة

هذه أول رواية من نوعها تعيد خلق عوالم الجنوب الأمريكي، عبر حكاية فانتازية تجمع بين الخيال العلمي والواقعية التاريخية.

صحيفة فرانسيسكو كرونكل




9 789921 723618


منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com